

حسان عبد القدوس

العذراء والشعر الأبيض



دار المعارف

❦ أصحاب السوابق ❦

دخل الأستاذ أحمد عبد اللطيف مكتب الوزير وانتفض السكرتير يستقبله
 في احترام مبالغ فيه ، وقال الأستاذ أحمد في هدوء :
 - هل أستطيع أن أرى سيادة الوزير ؟
 وقال السكرتير في رعشة :
 - طبعاً يا أفندم .. طبعاً .. ثانية واحدة ..
 وما كاد السكرتير يدير ظهره حتى لوى شفتيه في قرف وأطلق زفرة من صدره
 كأنه يستغيث بالله ، وفتح الباب ودخل إلى الوزير وقال كأنه يبلغه بأنباء نكبة :
 - الأستاذ أحمد عبد اللطيف هنا ..
 ورفع الوزير حاجبيه في دهشة وقال :
 - ماذا يريد ؟
 - يريد أن يدخل ..
 - ألم يسبق أن طلب تحديد موعد ؟
 - لا ..
 وأطلق الوزير أنفاس الضيق ، وعاد السكرتير يقول :
 - هل أقول إن سيادتكم في اجتماع وأحدد له موعداً في الساعة الثانية ..

- أى شيء يا أحمد .. أى شيء .. اطلب ..

وقال أحمد كأنه يسخر من فرحة الوزير :

- إنك تعلم أنى لم أطلب أبداً شيئاً منكم ..

وقاطعه الوزير :

- ولكنها ليست غلطة أحد فأنت الذى كنت ترفض كل ما يعرض عليك ..

كان يمكن أن تكون الآن وزيراً ..

وضحك أحمد قائلاً :

- ربما لأنى أنه منك .. فإن كل وزير يصبح بعد قليل وزيراً سابقاً ..

وأنا أكره أن أحمل لقب « سابق » إنه أقرب إلى لقب « المرحوم » .. هل تذكر

أخانا مختار وفعت .. إنه وزير سابق ورئيس وزراء سابق ، وهو أيضاً رئيس

مجلس إدارة سابق ، وسكرتير هيئة سابق ، إنه الآن يعتبر من أصحاب السوابق ..

وهو يعيش فعلاً كأصحاب السوابق ، حائر فى تحقيق مكانة وصفته فى المجتمع ..

إنى أعرف أن الذى يصاب بلقب « سابق » يصاب بمرح خطر يؤثر فى كل تفكيره

وفى كل أحاسيسه .. إنه بعدها يصبح إما من أكبر المعالين فى النفاق وفى التزلف

وفى الاستسلام ، وإما أن يصبح من أكبر المتطرفين فى المعارضة وفى النقد .. ولا علاج

له إلا أن يعود إلى الوزارة .. وكثيرون عادوا إما لجهودهم فى النفاق والاستسلام ..

وإما لإسكاتهم عن الكلام والنقد ، والذى يعود لا يعود أبداً كما كان ، إنه يعود

وهو مجروح ويزاول عمله وهو يحسب فى كل يوم أن يتلقى السهم المسموم من

جديد ويصبح « سابقاً » مرة أخرى ، ولذلك فهو يعمل لما بعد خروجه من الوزارة

أكثر مما يعمل لمسئوليته كوزير .. ولست فى حاجة لأن أضرب لك الأمثلة ..

فهى معروفة ..

وقال الوزير فى حيرة وقرب :

- ولكن يا أحمد كل وزراء العالم يدخلون ويخرجون .. ومنذ وجد الإنسان

لم يوجد وزير بقى المعركه كله وزيراً إلا فى القصص الخرافية ..

وقال أحمد وهو لا يزال يضحك :

- هناك فرق .. فهناك وزارة بأكملها تترك الحكم ، أو وزير يخرج من

الوزارة نتيجة معركة .. سواء معركة سياسية أو معركة فنية خاصة باختلاف الرأى

القنى .. وفى هذه الحالة لا يتأثر الوزير بلقب سابق لأنه يعيش وضعاً مستمراً

وهو المعركة السياسية أو الفنية .. فهو مقاتل دائم وكل ما هناك أنه غير موقعه

داخل هذه المعركة .. ولكن الذى يصاب ويبرح هو الذى يصبح « سابقاً »

مجرد شلوت .. شلوت قد يرفعه إلى أعلى كأن يخرج من الوزارة ليصبح مستشاراً

أو بعد أن يمنح وصافاً جليلاً ، وقد يكون شلوتاً إلى أسفل ويمجد نفسه فى الشارع ..

المهم أنه لم يدخل معركة يعرفها ويستطيع أن يستمر بها سواء داخل الوزارة

أو خارجها ، ولكنه أتى فجأة من الشباك وقرا خبر وفاته فى الصحف وبدأ يستقبل

المعزين دون أن يستعد لاستقبالهم ، أو يقع صيوئاً لاستقبالهم .. إن آثار الشلايت

على بنطلونات كثير من الوزراء السابقين لا يمكن أن تمحى أبداً حتى لو أخذ

بنطلونه وذهب به إلى أكبر الإخصائين فى إزالة البقع والفتوق ..

وقال الوزير فهى عباس فى حدة :

- اسمع يا أستاذ أحمد .. إن هذا الكلام عسنى ولابد أنك تقدر ذلك ..

وأحب أن أقول لك أنه لا يهين أن أخرج من الوزارة اليوم أو غداً .. لا يهين

فى أى لحظة أن أكون سابقاً .. كل ما يهينى هو إحساسى بأنى أجلس على هذا

المكتب لأؤدى خدمة لبلدى .. إلى أنخمد بلدى سواء وأنا جالس إلى مكتب وزير

أو إلى مكتب موظف درجة سادسة ..

وقال الأستاذ أحمد دؤن أن يبدو عليه أى تأثير بحلّة سيادة الوزير :

- هذا ما فكرت فيه عندما عرضت على الوزارة منذ سنوات كما تعلم ..

فكرت في خدمة بلدى .. وأنا كما تعلم محام وخريج كلية الحقوق وكل دراستى خاصة بالقانون والعلوم السياسية والاجتماعية ، ولكن الوزارة التى كانوا يعرضونها علىّ هى وزارة المواصلات .. وقد ردت أنى في حاجة على الأقل إلى ثلاث سنوات لدراسة علوم المواصلات حتى أستطيع أن أقرر بعدها إذا كنت أستطيع أن أكون وزيراً أو لا أستطيع .. أى أنى لم أتعال على الوزارة ولكنى فقط درست قدرى وإمكاناتى على حمل المسؤولية و ..

وقاطعه سيادة الوزير :

- يا أستاذ أحمد .. إن الوزارة ليست مركزاً فنياً .. كل الاختصاصات

الفنية يتولاها وكلاء الوزارة .. أما الوزير فهو مركز سياسى ..

وقال أحمد في هدوء :

- هذا هو الخطأ الأكبر الذى تقع فيه وتقع فيه كل الدول العربية وأيضاً معظم دول العالم الثالث وهو أن يعتبر مركز الوزير داخل نظم الحكم التى يعيشونها مركزاً سياسياً .. أبداً .. إن مركز الوزير لا يكون مركزاً سياسياً إلا داخل نظم تعدد الأحزاب لأن الوزارة تنفذ مبادئ وخطط وبرامج الحزب في مواجهة حزب آخر .. ونحن ما زلنا متأثرين بالماضى عندما كانت الوزارات سياسية حزبية .. كان الوزير سياسياً لأنه وفدى أو لأنه دستورى أو لأنه مستقل ، ولكن الآن أى صفة سياسية يمكن أن يحتاج إليها الوزير .. لقد أخطأنا يوماً ووضعتنا للوزراء صفة التمثيل السياسى الخارجى .. كنا في مرحلة التفاهم مع

أمريكا نختار وزيراً له موقف سياسى راسخاً ، وفي مرحلة التفاهم مع الاتحاد السوفيتى نختار وزيراً له موقف سياسى شيوعى .. وكل هذا لم يؤد إلى نتيجة سياسية ، لأن الواقع هو أن الوزارة كلها ليس لها اختصاص سياسى ولا تستطيع ، وليس من حقها أن تقبل أو ترفض أى قرار سياسى .. إن السياسة مركزة في تنظيم آخر خارج الوزارة .. وكان الحل الأمثل هو الاعتراف بكيان هذا التنظيم وأن تنفرد الوزارة ككيان فى تنفيذ .. ولكن هذه اللبشة بين السياسة والتخصص العلمى أدت إلى ضياع صفة الوزير لا هو سياسى ولا هو فنى .. أنت مثلاً إنك خريج كلية الآداب قسم اللغة العربية و ..

وقاطعه الوزير وقد اشتدت حدته قائلاً :

- يا أحمد .. أنت أستاذنا جميعاً ونحن نقدر لك استمرارك في التفرد

للمحاماة و ..

ورد أحمد مقاطعاً :

- حتى مكنتى كمحام تعرض لكل لهذا الخلط وكل هذه الأوضاع الغريبة .. فأنت تعلم أن عدد المؤكدين أو الزبائن الذين يعتمدون على مكنتى محدود ، ورغم أنى متفرغ للمحاماة كمكمل فضلاً إلا أنى أكثر تفرغاً للفكر السياسى منذ تخرجت وقبل أن أنفرد .. وكانت صورى ومعنى السياسة والكتب السياسية التى كتبها ونشرتها ، ثم ما هو معروف عنى من عمليات ثورية كنت أقوم بها في شبانى ، كل ذلك أثر في إقبال الناس على مكنتى كمحام .. وكنت أعطى الناس العذر ، فمع افتراض أنهم يقدروننى كسياسى عاشوا مع جيلاً كاملاً ، إلا أنهم لا يحتاجون في قضاياهم إلى سياسى بل يحتاجون إلى محام .. ثم قد يكون القاضى مختلفاً معى في آرائى السياسية فيتأثر بهذا الخلاف في حكمه ، فما ذنب صاحب القضية ..

إن من صالحه دائماً أن يختار محامياً مغرغاً تفرغاً كاملاً للمحاماة .. هذا ما كنت أعقد .. إلى أن قابلت مرة الرئيس في لقاء خاص ، وأنت تعرف أني تعودت أن ألقاه كثيراً كصديق ، ولكن في هذه المرة نشرت المقابلة في الصحف ضمن المقابلات الرسمية ، وكانت الصلصة التي تعرضت لها هي أني فوجئت في اليوم التالي مباشرة بعدد كبير من الزبائن بدأوا يترددون على مكنتي .. زبائن جدد .. وأنواع جديدة من القضايا .. وفرح عبد العاطي وكيل المكتب الذي عاش معي العمر كله وهو يعانى تقدير القدر عليه في الزبائن ، واستحسنت أنا أسبوعاً وأسابيع وأنا أقابل كل من يأتي إلى المكتب وأقرأ وأبحث كل قضية .. ثم توقفت .. إنها ليست قضايا ، إنها صليات تحتاج إلى صاعات ، وكل هؤلاء الزبائن الجدد لم يلجأوا إلى كمحام ، إنما لجأوا إلى كأحد المقربين بعد أن قرأوا الخبر في الصحف .. إن الذي يقابل الرئيس يستطيع بلا شك أن يقابل رئيس الوزراء ، ويستطيع أن يقابل الوزير ، ويستطيع أن يقابل رئيس هيئة أو أى وكيل وزارة .. ويستطيع أن يحقق المطالب ويكسب القضايا .. و.. وكانت النتيجة هو أني اعتذرت عن جميع القضايا التي جاءتني بهذا الفهم الجديد لقيمتي ، بل إنني أغلقت مكنتي وذهبت إلى القرية وبقيت هناك ثلاثة أشهر ..

قال الوزير فهمي عباس ساخراً :

- لأن لك قرية تننيك عن المكتب .. ولكن لو لم يكن لك شيء في القرية أين كنت تذهب .. اعطيتني يا أستاذي عن هذا السؤال ..

وقال أحمد دون تأثر :

- تقصد أكل العيش .. إنني أستطيع أن أعيش بلا عمل لأنني أملك أرضاً في القرية ، ولذلك أستسلم لكل أرائى السياسية لأنى لست محتاجاً .. هذا

ما نفعه .. وهذا ما جئت لأطلب واصلتك فيه ..

ودق جرس التليفون بجانب الوزير ، وكان السكرتير يذكره بأنه على موعد وقال الوزير في عجل :

- لا .. لا .. لا مواعيد ..

ثم التفت إلى أحمد قائلاً :

- في خدمتك يا أستاذ أحمد ..

وقال أحمد :

- أخشى أن تفاجأ إلى حد أن تحبب أسمى ..

وقال الوزير مبتسماً :

- لقد عودتنا على المفاجآت ..

وقال أحمد :

- لقد اخترتك ولجأت إليك لأنى مقتنع بأنك خير من يستطيع أن يحل كل موقف وأن يقدر وأن يفهم الصعب ..

وقال الوزير كأنه يتعجبه :

- شكراً .. كلنا من توبيخت ..

وقال أحمد في هدوء وبين شفوية ابتسامة حزينة :

- جئت لأوسطك حتى تسمى لإقناعهم بوضعي في السجن ..

وقال الوزير كأنه ينتفضي :

- ماذا تقول .. السجن ؟ !

وقال أحمد في هدوء :

- نعم .. السجن .. إن الشيء الوحيد الذى أطلبه من الثورة بعد هذا

العمر الطويل وبعد أن أصبحت الثورة دولة ، هو إصدار قرار بوضعي في السجن ..
ونظر إليه الوزير كأنه ينظر إلى مجنون ، وقال :

- ماذا فعلت وجئت تعترف به حتى تدخل السجن ..

- لم أفعل شيئاً بعد ..

- ولكن بأى سبب تريد أن يدخلوك السجن ..

- تحت التحقيق ..

- التحقيق في ماذا وأنت لم تفعل شيئاً ..

- التحقيق في احتمال أن أفعل شيئاً ...

- أنت رجل قانون وتعرف أن الاحتمالات لا تكن لتوجيه أى اتهام ..

- ليس القانون .. ولكن أحد المقررين إليكم .. كل الناس تعرف أى من
المقررين .. والمقررين لهم امتيازات كثيرة ، والامتياز الوحيد الذى أعطاه به هو
إدخالى السجن ..

- ولكن لماذا ؟

- لأن القرية لم تعد تكن ..

- تكنى لماذا ؟

- لم يبق من نفسى .. إن السجن وجدت لتحمى الناس وتحمى الدولة ..

وأنا أريد أن أحمى نفسى من نفسى ..

- لا أفهمك ..

- حق تفهمنى يجب أن تقدر أولاً أى تعبت .. إلى الآن فى الستين من

عمرى .. الواحد والستين .. ورغم ذلك فككرى لا يزال فى شبابه لا يريد أن

يشيخ معى ولا يريد أن يستسلم لواقعى .. وأصبحت أخشاه وليس هناك من

وسيلة إلا أن أحبس نفسى فى زنزانه حتى لا يستطيع فككرى أن يتحكم فى تصرفاتى
ولا حتى فى لسانى ..

وزفر الوزير زفرة زهق وقرف وأستد رأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع
أن يسمع مزيداً من هذا الكلام ، ثم قال :

- صدقنى يا أحمد .. لقد جعلت من نفسك مشكلة لا يمكن حلها ..

وقال أحمد وهو ينظر إلى الوزير بكل عينيه كأنه يرجوه أن يحتمله :

- يكفى أنك اعترفت أى أصبحت مشكلة .. وحتى تصل إلى تحديد خطوط

مشكلتى يجب أن تعرف أى لا أقبل أبداً أن أحمل لقب «سابق» .. أفضل أن

أموت قبل أن يعلن أى أصبحت من أصحاب السوابق .. وأنا ليس لى صفة أعتر بها

وأحرص عليها إلا صفتى كثائر .. فكر ثورى .. وإيمان ثورى .. ولا أريد أن

أعيش حتى أصبح فى نظر وتقدير الناس ثائراً سابقاً .. واحد من ثوار زمان ..

واحد لا يستطيع أن يلاحق بثورته الأجيال الجديدة والتطورات السياسية والحضارية.

وبما أنى فى الوقت نفسه أريد أن أستريح من نفسى ومن ثورى فإن أفضل مكان

وأشرف مكان يمكن أن يستريح فيه الثائر هو السجن .. إن وجودى فى السجن

هو تأكيد لصفتى كثائر وفى الوقت نفسه إعفائى من أداء مهنتى كثائر ..

وقال الوزير ساخراً :

- كنا نعرف أيام زمان نوعاً من الشبان يفتعل الحركات الثورية ويفتعل

الاحتكاك بالبوليس حتى يقبض عليه وينشر اسمه فى الصحف ويشتهر كأنه

أحد الثوار .. وهو ليس بثائر ، إنما مجرد نصاب باسم الثورة ، وأخشى بعد هذا

العمر الثورى الطويل الذى عشته أن تحسب من بين هؤلاء .. تريد السجن
لتبدو بطلاً ..

وقال أحمد في هدوء :

- لا ألوكم على تصور هذا الاحتمال .. لقد تصوره أنا أيضاً .. خشيت أن تعتبروا سعيي إلى السجن نوعاً من البحث عن الشهرة والبطولة .. ولكن يجب أن تقدروا أنني لم أقم بأى عمل يمكن أن يبرر دخول السجن .. إلى أدخل السجن بناء على طلب شخصي .. أى يمكن أن يصدر القرار في صيغة « تقرر حبس الأستاذ أحمد عبد اللطيف حبساً مطلقاً بناء على طلبه الشخصي » ثم لا ينشر هذا القرار في الصحف ولا يدرى أحد أين اختفيت .. أرجوك .. المهملنى .. يمكن أن تعتبرنى مريضاً في حاجة إلى دخول مستشفى .. والمستشفى الذى يصلح لى هو السجن ..

- أنت لست مريضاً .. والسجن ليس مستشفى .. وأنت تطالب الدولة بقرار استثنائي لا يقره قانون .. فإنك تريد أن تستغل صداقتك واحترامنا لك لتحقيق مطلب شخصي ..

- هذا صحيح .. ولكنه مطلب لا يكلف الدولة شيئاً .. وأنت تعرف كم كلفت الدولة المطالب الشخصية الأخرى ..

وسكت الوزير برهة ثم رفع رأسه وملأ عينيه من وجه الأستاذ أحمد كأنه يريد أن يتأكد أنه هو نفسه الأستاذ أحمد الذى يعرفه ثم قال :

- أستاذ أحمد .. إن ما يحيرنى هو اعتقادك أنك يجب أن تهرب من فكرك الثورى .. لماذا .. إن الثورة لا تزال مستمرة ولا تزال قادرة على احتواء أى فكر ثورى .. ولا أعقد أنك ضد الثورة أو معارض لها بحيث تصور أنها لن تحتل أفكارك ..

وابتم أحمد اهتمامه الأستاذ وقال :

- هناك فرق بين الثورية المضادة وبين اختلاف الموقف داخل الثورة الواحدة ..

وأنا وأنتم أصبحنا من زمن نختلف في الموقف .. أنا أقف في الشارع وأنتم تقفون في الداخل .. والذين يقفون في الشارع هم الذين اختاروا الحرية المطلقة .. حرية بلا مسئولية تنفيذية .. إنها حرية الفكر .. والذين يقفون في الداخل يقيدون حريتهم بعشرات السلاسل والأغلال .. السلاسل والأغلال التى تفرضها المسئولية التنفيذية .. وكل من الطرفين على حق في موقفه .. الذى يقف في الشارع يمكن أن يطالب بمشروع شعبي يتكلف ألف مليون جنيه ، والذى يقف في الداخل يعارض هذا المشروع لا لأنه ضد الشعب ولكن لأن الدولة لا تملك ألت مليون جنيه .. أى أن التأثير المطلق لا يتقيد بالواقع بل يرفضه ويثور عليه ويركز كل فكره الثورى على المستقبل ، أما الذى يحمل المسئولية التنفيذية فهو مقيد بالواقع وهو مضطر إلى الإبقاء على هذا الواقع وصيانته حتى لو اضطر إلى تسليط البوليس على رجل الشارع ، وليس معنى ذلك أنه لا يفكر في المستقبل ولكن تفكيره قد يكون مجرد الإيمان بأن الواقع قادر على التطور لتغطية المستقبل ، أو قد يكون تفكيره هو مجرد الاتكال على الغيب ، ومواجهة كل المشاكل بهذا الاتكال ..

ربنا يصلحها .. و ..

وقاطعه سيادة الوزير فهمى عباس قائلاً :

- المهم أنك قلت إن كلاً من الطرفين على حق في موقفه .. أى يمكن

التضاهم بينهما .. و ..

وقال أحمد مقاطعاً :

- لا .. التضاهم هو انحاء الضعفاء المسلمين .. لا يمكن لأى ثورة أن

تتقدم في مواجهة المستقبل إلا تحت ضغط .. وهو إما أن يكون ضغطاً من خارجها

أو ضغطاً من داخلها .. ضغط قوة شعبية قائمة مستمرة تملك أن تجعل كل مسئول في حالة مستمرة من الدفاع عن نفسه .. وكى يداخ عن نفسه يجب أن يثبت قدرته على التقدم .. على التطور .. على مواجهة كل مطالب المستقبل .. على تحقيق المبادئ الثورية .. فإذا اختنى هذا الضغط أو ضعف ، أصيب المسؤولون عن الحكم بالغرور لأنهم تخلصوا من الإحساس بالدفاع عن النفس .. والغرور هو أخطر ما يتعرض له الحكم ، وهو ما يمكن أن يجعل من الدولة مجرد شركة مقاولات لا تتصرف إلا في حدود ما يطلبه صاحب الملك المغرور .. ثورات كثيرة عجزت عن تحقيق مبادئها لأنها لا تواجه قوة ضغط .. الثورة الشيوعية مثلاً .. إن مبادئ ماركس لم يطبق واحد على مائة منها حتى اليوم .. والمجتمع السوفيتي لا يزال يعاني من الانفصال الطبقي ، ولو أن الطبقات تحولت إلى طبقات بيروقراطية .. لماذا .. لأن الثورة قضت على قوة الضغط الخارجى عليها ، ثم قضت على قوة الضغط الداخلى أيضاً .. أى قضت على الفكر الشيوعى الذى يقف فى الشارع .. وفى أيام ستالين أعدم ثلاثة ملايين شيوعى كانوا يمثلون قوة ضغط على الحكومة ، ثم بدأ المجتمع الشيوعى بعد ستالين يتقدم فى بطء لأن الحكومة صحت بظهور بارقة من الضغط الداخلى .. لهذا لا يمكن استمرار الثورة على أساس التضام بين الفكر المطلق والفكر التنفيذى المسئول أى التضام بين المقيدين بالواقع والمطالبين إلى المستقبل .. لا يمكن أن تستمر إلا تحت قوى ضاغطة .. كل منها يضغط على الأخرى ..

وقال الوزير وهو يتشم كأنه توصل إلى الحل الذى يرضى أحمد :
- إذن فإنى أتعهد لك باسم جميع الأصدقاء أن أترك لك حرية التعبير عن القوة الضاغطة .. إننا نثق فيك حتى لو اختلفنا معك ..

وصاح أحمد وقد احتد لأول مرة :

- لا .. لا .. لا أستطيع .. قلت لك إني تعبت .. تعبت من نفسي ومنكم .. أريد أن أستريح .. أن أحال على المعاش .. ولا أطلب وساماً ولا حتى خطاب شكر .. أريد أن أستريح في السجن .. إني كمن يرسل كتابه الذى انتهى منه لوضعه في غلاف محترم له .. والسجن هو الغلاف الذى أريد أن أغلف به حياتى .. هل في هذا شيء يصعب على الدولة ..
وقال الوزير وقد علا صوته هو الآخر :

- إني لا أستطيع أن أتوسط لك في مثل هذا الطلب الغريب .. إنهم سيهتمون بالجنون لمجرد أني أنقل إليهم فكرة مجنونة ككفرك .. وهذا الأستاذ أحمد وقال وهو يتشم ابتسامة مسكية ضعيفة :
- لقد فكرت في الجنون أيضاً .. فكرت أن أدعى أني أصبت بمرض في عقل وفى أعصابى .. وأطلب من الطبيب أن يضعني في مستشفى المجاذيب .. واخترت مستشفى بهمان بالذات لأن نزلاءه أقل خطراً .. والانتهاه بالجنون هو نهاية مشقة أيضاً لصاحب أى فكر ثورى .. لأن معناها أنه أجهد عقله في سبيل وطنه إلى أن جن ، وقد يعتبر الناس أن الدولة هي التي وضعتني مع المجاذيب كما يحدث لكثير من المهتمين السياسيين تخلصاً من محاكمتى ..

وقال الوزير في تأثر :
- أستاذى إني أشفق عليك من كل ما تفكر فيه .. من كان يصدق أن هذه يمكن أن تكون أفكار الأستاذ أحمد عبد اللطيف ..
وقال أحمد :

- هل تعرف ما فكرت فيه أيضاً .. فكرت في الانتحار .. إن الكاتب

الأمريكي هيمنجواي انتحر لأنه اكتشف أنه أصبح أعجز من أن يقدم شيئاً جديداً لقراءه .. وأنا .. ربما كانت هذه هي سر أزمي .. لم أعد أستطيع أن أقدم فكرة جديداً لوطني .. لم أعد أستطيع أن أستمع بالإنجاءى الثورى وأصبح من حق أن أنتحر .. على الأقل فاني أفضل لقب « مرحوم » على لقب « سابق » ..
الثائر المرحوم أشرف من الثائر السابق ..

وقال الوزير وهو يتطلع إلى أحمد بنظرة إشفاق :

- تستطيع أن تفكر في شيء آخر .. تستطيع أن تفكر في اعتزال العمل السياسى والتفرغ لمشروع زراعى أو اقتصادى .. كثير من زملائنا كما تعلم أنهوا وضعهم الثورى وتركوا كل مسئولية سياسية ونجحوا نجاحاً كبيراً في مشروعات تصدير واستيراد أو غيرها من المشروعات ..

ونظر أحمد إلى الوزير كأنه يلومه وقال :

- تريدنى أن أكون واحداً من هؤلاء .. إنهم جميعاً استغلوا الثورة في الاتجار .. لقد وجدت كتاباً أصدره واحد منهم في إحدى دول الخليج .. دول البترول .. وكتب عليه اسمه وكتب تحت اسمه صفة « عضو مجلس قيادة الثورة » رغم أنه لم يكن عضواً في مجلس القيادة ، ورغم أن الكتاب كله لا علاقة له بالثورة إنما هو كتاب عن مشروع تجارى ربح منه الثائر السابق أكثر من مليون جنيه استرلىنى .. هل هذا ما تريده منى ؟ .. هل يهون عليك أستاذك إلى هذا الحد .. هل يهون عليك الثورة لتنتهى إلى يد أمثال هؤلاء ؟ !

وقال الوزير وهو يحاول أن ينهى الحديث :

- لا .. لا أقصد هذا النوع من الناس .. هناك مشروعات أخرى مشرفة .. تستطيع مثلاً أن تقيم في القرية مزرعة دجاج .. النجاج الآن يمثل حاجة شعبية

و محل أزمة حادة من أزماننا ، وهي أزمة المطالب الغذائية .. كل صاحب أرض بهم الآن مزرعة فراخ .. وشخصيات معروفة من الشخصيات الثورية السابقة تعيش الآن على مشروعات الفراخ ..
وقال أحمد ساخراً :

- إن كل ما أجيده هو التعامل مع عقول الناس .. عقل وعقلهم .. تبادل الفكر .. ولا أستطيع أن أتعامل بعقل مع عقل فرخة .. وإن كانت الفراخ كما تقول أصبحت لها قيمة شعبية ودور وطنى ..

وقال الوزير وهو يضغط بيده على حافة المكتب كأنه يهتم بالقيام حتى يلفت نظر أحمد إلى ضرورة إنهاء المقابلة :

- هل كل حال يا أستاذى .. أنا أسف .. لن أستطيع أن أعرض مشروعتك على أحد .. لا أستطيع .. أكرر أسفى .. وقام أحمد من على مقعده ومد يده بصافح الوزير مودعاً قائلاً :

- كنت أنتظر هذا .. وقد قلت لك في أول الحديث إنك ستفاجأ .. وعلى كل حال من حق أن أختار .. إما السجن أو مستشفى المجاذيب أو الانتحار ..
والوزير يودعه حتى الباب قائلاً :

- لا تنس مشروع الفراخ ..

وقال أحمد ضاحكاً ..

- هذا إذا قامت الفراخ بثورة ..

﴿ الساعات الأخيرة قبل الغروب ﴾

كنت أقضي أياماً في جزيرة رودس . . صالحة تبحث عن الهدوء والجمال . .
«دب حاسة في حديقة فندق «جراند أويل» على حافة حمام السباحة أقرأ كتاباً
عجم مجموعة قصص قصيرة لكتاب إيطاليا عبر الأجيال المتعاقبة من أول بوكاسيو
وسكاميلي إلى الكاتب المعاصر مورافيا . . ووقف أمامي شاب وسيم رشيق
نأه رسم خطوط وعضلات جسده بنعمه وبنطق فنان ، وفيه سمرة أوربا
التي تختلف قليلاً عن سمرةنا . . سمرة مصر . . وهي سمرة يتميز بها شباب
حوض اليونان وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط . . وقد حاولت أولاً أن
أناهله هذا الشاب ولكنه ظل واقفاً أمامي حتى اضطرت أن أرفع عيني إليه
«لنفتت بانتسامة حلوة بين شفتيه شدة ابتسامتي إليه . . وقال وكأنه يعرفني
من زمان :

- سيدى . . منذ أيام وأنا أراك لا تفعلين شيئاً إلا القراءة في الكتب . .
بك تستطيعين القراءة في أى بلد ولكن جزيرة رودس ليست مخصصة للقراءة ، إنها
حريرة تستطيع أن تعطى أكثر مما يعطى أى كتاب .
وكان يتكلم بالإنجليزية وبلهجة إيطالية .
وقلت وابتسامتي تسمح بلا افتعال كأنى فرحة بهذا الجمال الذى يعرض نفسه على :

إني لا أستطيع أن أأخذ شيئاً من رودس قبل أن أنتهي مما يعطيني هذا الكتاب .
قال وهو ينظر إلى الكتاب بين يدي في رفق كأنه ينظر إلى مناسخ خطير :
- هل يأخذ منك وقتاً طويلاً ؟

قلت :

- إني أقرأ في قصة قصيرة .

قال :

قد تأخذ منك ساعة . .

قلت :

- ربما أقل . .

قال وعينه مركنتان على وجهي كأنه يحاول أن يكتشف مصيره معي :

- هل أعود إليك بعد ساعة . . أقصد نصف ساعة ؟

قلت وقلبي بضحك :

- حاول . .

قال في إصرار وكأنه انتهى من تحديد مصيره :

- سأحاول . .

وانتد عني وعيناي تجريان وراء قوامه المشوق المرسوم بخطوط فنان وتعلقان بشعر رأسه . إنه لا يطلق شعر رأسه بلا حساب كما هو موضحة الشأن هذه الأيام ولكنه يضعه في قالب معتدل يتفق مع ملامح وجهه ، وهو ليس شعراً ناعماً لأمعاً ولا شعراً خشناً غامقاً . ولكنه شعر متموج في لون الساعات الأولى من الغروب ، وأحسست إحساساً قوياً بأنني أريد أن أمد يدي وأعزز أصابعي بين خصلات شعره . . وطبعاً قاومت هذا الإحساس ورقعت كتابي أمام عيني أحاول أن أهرب منه وأعود

١ المرأة . .

وسددت أعتمد على القراءة ملء الفراغ الواسع الذي أتعرض له في كثير من . . ، وأنا لا أقرأ إلا القصص . . القصص الطويلة والقصص القصيرة .
ولا أحس وأنا أقرأ القصص بمجرد التسلية وتضييع الوقت ، كما لا أحس بأنني معطى منتقل لأعيش في الخيال ، بل أحس وأنا أقرأ قصة كأنني أقرأ دراسة اجتماعية . .
الفائز يستطيع أن يتعرف على كل طبائع الشعوب وكل مميزات الشخصية لاسيابة من خلال القصص التي يكتبها كتاب كل شعب . . ولذلك أصبحت . .
أدري أن أجمع القصص التي تكتب في كل بلاد العالم . . قصص روسية وقصص يابانية وقصص هندية و . . و . . بل أني قرأت أيضاً قصصاً كتبها شاب من غانا ومالي وكوبا . . وأصبحت أحس كأنه من السهل على أن أكتشف شخصية أي إنسان من أي بلد في العالم ، حتى هذا الشاب الذي وقف أمامي . . ألبرتو . . إلى أعرفه من خلال قصة قرأتها منذ أكثر من عشر سنوات حسب كاتب ألماني بعنوان « قيمة الحب عشرة » ويظهر شاب احترف اصطلياد السمك في البحار العجايز الإنجليزية والأمريكيات ويعطيه كل ما يطلب من متع بطير حر عال ، واتسعت أعماله إلى حد أنه افتتح بيتاً كاملاً مخصصاً لاستقبال عجايز سمك . . واتسعت شهرة هذا البيت في مجال السياحة في ألمانيا حتى أصبح يتردد منه نساء الصغيرات أيضاً ، وهو لا ييخل أبداً بقواه كرحل يبيع الجنس ، ولكنه يحس أنه في حاجة إلى بعض المقويات ، ثم لم تعد المقويات تكفي لتغطية مسات الزماني فاستعان نائنين من الشبان ليعملوا معه داخل البيت ، ولكنه كان دائماً هو المطلوب وهو صاحب الشهرة بين العجايز والشابات . إلى أن أحب . .
حب فتاة لا تعرف شيئاً عن مهنته ولا تعرف كيف جمع هذه الثروة الضخمة ،

وأحبها فعلاً بكل عقله وقلبه وقرر أن يسي أعماله الخاصة بالساعات ويترغ
للحب ، ولكنه عندما بدأ يعطى للحب .. عندما بدأ يمارس الحب ..
مثل .. لم يستطع .. وكان يعود ليمارس مهنته مع سائحة عجوز فينجح ،
ثم ينجي إلى حبيبته معتقداً أنه استرد ثقته في قواه ولكنه يفشل .. واعتقد
أن الحبة يرفض أن يستجيب مع آله ، وهو قد حول نفسه وحسده إلى آلة
لا تستطيع أن تعيش الإحساس الإنساني .. الإحساس بالحب .. فانتحر .
هذه هي القصة التي ذكرني بها ألبرتو وحكمت بها عليه .. إنه هو أيضاً
بسطاد الساعات العجائز . به يحترف مهمة يطلق على صاحبها لقب « جيجولو »
وهي مهنة منتشرة في كل فنادق العالم ، وفي فنادق مصر أيضاً .. وحتى أمس
كان ألبرتو في خدمة امرأة أمريكية ربما كانت في السبعين من عمرها ، ولعلها
سافرت هذا الصباح وتركت رودس فجاء يعرض نفسه عليّ ..
وأنا ..

هل أنا عجوز .. إني - بلا كذب - في التاسعة والخمسين من عمري ،
لكن أعترف بأن وصلت الستين عندما أصل إليها ، ولكنني محتفظة بقوامي ونضرة
جلدي المشدود فأبدو كأني في الأربعين من عمري ، وصدقوني أني لم أحرع عملية شد
جلد وهي العملية التي أجرتها معظم سيدات المجتمع الراقى في مصر أبداً .
وربما كان احتفاظي بنضارتي يرجع إلى هدوني الدائم ، ودرصائي عن نفسي ،
ونحاشي العائل . نحاح زوجي ونحاح أولادي وساني .. إن النجاح في حد ذاته
عملية تجعل الجلد وتحفظ بنضارة اللحاحات واتساق القوام ..
لا ، إن ألبرتو لم يأت إليّ لأني عجوز . لقد جاء إليّ لأني وحيدة .. إنه
رأى منذ أسبوع في هذا الفندق وأنا وحيدة .. ووحدة المرأة هي إغراء طبيعي

سعدم إليها أي رجل .. الوحدة .. الفراغ .. إنها أكثر ما يهدد تصرفات
الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة .. وأنا أتغلب على وحدتي وفراغي بقراءة
ممنص ..

وعدت وفتحت الكتاب وحاولت أن أعيش في داعله كأني أحمي به
مسي من ألبرتو .. ولكني لم أستطع .. إن ألبرتو أثار في نفسي إحساساً بأنني
مهدومة في وحدتي ، رغم أنها ليست المرة الأولى التي أعيش فيها وحيدة وفي فندق
وفي بلد أجنبي ، فمئذ أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أسافر كثيراً مع زوجي إلى
.. . وسافرت معه مرات إلى أمريكا ، ومرتين إلى روسيا ، وفي كل مرة
كان يشي من عمله في العاصمة التي تقصدها ، ثم يقتني بأنه في حاجة إلى
لسر وحيداً إلى عاصمة أخرى ، وعالماً ما تكون لندن أو باريس ، وشفق على أن
سطره في مدينتي المدة السياحية المعروفة .. وكنت أقبل هذه الفرقة بيني وبينه
في سطة وفرح لأنه في الغالب كانت انتي أمينة وابي طارق معنا ، أو كانا
لحقاق في في البلد التي نختارها وأنقضى معها أسبوعاً أو أسبوعين في اصطلاح
عالي حلو إلى أن يلحق بنا عبد اللطيف ونعود جميعاً إلى مصر .. ولكن أمينة
وطارق كبرا .. أمينة الآن زوجة وأنجبت ولدين ، وطارق يقيم في أمريكا ..
عم ذلك فروحى لا يزال يتركني وحيدة في كل مرة سافر فيها إلى أن يعود إليّ
إيه في حاجة إلى عندما يسافر حتى يستكمل صفته الرسمية وحتى أكون بجانبه في
ندعوات التي توجه إليه ، ولأنه لا يطمئن إلى أحد في حفظ أوراقه إلا إليّ ،
وهو أصبحت أعرف وأحفظ من هذه الأوراق أكثر مما يعرف هو نفسه ..
م بعد أن تنتهي العملية يصبح وليس في حاجة إلى فينكر الأعداء ليتركني ..
هناك زمان يجسد في الأولاد حجة فهو يريد أن يخلطها مدرسة في جنيف

أو يريد أن يلتحقا بالدراسة الصيفية في أكسفورد أو كامبردج ، أو يريد هما أن ينمتعا بمصيف أورما ، ولكن بعد أن كبر الأولاد لم تعد هناك حاجة تقضى إلا أنه يريد أن يكون بعيداً عني ، وكنت أستسلم لما يريد . ماذا يمكن أن يكون همسه من هذه الفرقة المتعمدة . . أن يتمتع نفسه كرجل . . يذهب إلى هذا الصنف من النساء الذي يعطيه بالثمن . . لا يمكن أن يكون محصور مرتبطاً بأي علاقة جادة مع أي امرأة . . إلى أعرفه . . إنه يلعب أو يعطى نفسه إحازة روحية ، وهو في حاجة إلى هذه الإحازة خصوصاً بعد أن وصلنا إلى هذه السن . . إنه الآن في الثانية والستين ولا يزال محتفظاً بكل رجولته . . في أعرف رغم أني فقدت القدرة منذ سنوات على إثارة هذه الرحلة . إن كل ما يحتاج إليه مجرد امرأة يدفع لها . . نفس الصنف الذي ينتمى إليه ألبرتو . . امرأة تباع نفسها ورجل يبيع نفسه . . ولكني لم أشعر أبداً بحاجتي إلى رجل من هذا النوع ولا من أي نوع آخر . . إلى عشت وحيدة في مصايف أوروبا وفي جزر البحر الأبيض . . في كايبري . . وسيليا . . وكريت . . وجزر كناري في المحيط الأطلسي . . أصبحت أنا التي تختار الملجأ الذي أعيش فيه إلى أن ينتهي زوجي من لعبه . . وأنا التي اخترت جزيرة رودس لمجرد أب قريبة من أثينا التي كنا فيها للعمل .

وجاءت وجدت ألبرتو واقفاً أمامي يقول من خلال ابتسامته الرزينة :

— هل انتهت القصة . .

ورفعت عيني إليه وطارق جليد يلح على عفتي . . لماذا لا أجرب . . ماذا سأعصر . . إنها مجرد تسلية تريحني من وحدتي وفراغي ومن قراءة القصص . . وقلت وأنا أبتسم له ابتسامة كبيرة .

الواقع أنها لم تنته . .

— شحنته استعفى عند يده وأخذ الكتاب من بين يدي وقال :
سأروي لك قصة أمتع مما تقرئين . . ومن يدرى ربما استطعت أنت وأنا أن نكتب قصة . . هل نكتبها بالعربية أم بالإيطالية . .

وقلت في دهشة .

كيف عرفت أني أكتب بالعربية .

قال وهو يشد مقعداً ويجلس بجانبني :

سألت . . لقد أخذتك أولاً على أنك إسبانية . . إن ملامحك فيها كثير ملامح الإسبانيات ولكن عندما سألت عرفت أنك مصرية .

وقلت ضاحكة :

— وماذا عرفت أيضاً .

قال كأنه يطمئني :

— أعرف أكثر مما تريدني أن أعرف . المهم ألا يبقى الآن هنا . هل ذهبت إلى ليندوس . .

قلت :

— سمعت عنها ولم أذهب لأنني لا أحب الذهاب في أفواج سياحية .

قال :

— ستكونين أنت وحدك غريباً كاملاً . . إنك تساوين عشرين . . تعال .

وساطة تركت له يدي يشدني منها ويبقى محتفظاً بي ونحن سير إلى خارج السفنق ويدعوني للركوب بجانبه في سيارته . إنها سيارة فيات صغيرة قديمة ورغم ذلك فرحت وأنا أركبها كأنني أصبحت طفلة وجدت لعبة تلعب بها .

أو ربما كانت هذه السيارة الصغيرة القديمة قد حررتني من كياي الاجتماعي الذي يعرض على أن أركب السيارة البويك والمسيدس الكبيرة الفخمة . أصححت حرة . . والطريق إلى « ليسبس » يعبر إلى قمة الجبل ويهبط إلى الوادي وكله مكسو بأشجار الزيتون وأشجار البرتقال والجمال من حول يكاد يطير في لا . ليس مجرد الجمال . . لقد عشت قبل ذلك في القسم والجبال وبين أشجار الزيتون والبرتقال ، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أحس فيها بأن أعيش معامرة مع رجل غريب . . إن الإحساس بالمعامرة يجعل الإنسان يركز انشائه أكثر إلى كل ما يمر به فيكشف مزيداً من الجمال . ولكن . . لماذا أسميتها معامرة . إنها مجرد رحلة سياحية أقوم بها على حسابي الخاص ، وألترتو ليس إلا دليلاً سياحياً ترحمناً . وأنا مطمئنة إليه مطمئنة لأنني سيدة كبيرة . عجوز . لا يمكن أن يطعم فيها أي شاب كألترتو .

وهو لا يكف عن الكلام طول الرحلة . إنه يجعلني أضحك عندما يريد أن يضحكني . . ويزيد معلوماتي عندما يريد أن يرويني معلومات . ويروي لي قصصاً مسلية تصلح ليضمها كتاب من الكتب التي أقرأها . . وقد انتهزت فرصة سكت فيها وسألته :

- ألترتو . . ماذا تعمل . . ما هو عملك ؟

ونظر إلى كأنه استخف السؤال وتلعثم قليلاً ثم قال :

- أنا رجل أعمال .

قلت :

- أي نوع من الأعمال ؟

وأطاع نظرة اللوم إلى ثم قال :

- كل الأعمال تؤدي إلى نتيجة واحدة . كلها محاولات لتحقيق سعادة لإنسان . . إن مدرس الأطفال يبيع السعادة للطفل بتعليمه . . والجرسون في بار يبيع السعادة بتقديم الخمر للزبائن . . ورئيس الوزراء في أي بلد يدعى أنه يبيع السعادة للشعب بتحقيق الحرية والرخاء . . وأنا أزاوئ أي عمل يحقق السعادة . . لا يهم نوع العمل . . المهم أن أكون سعيداً به وأن أسعد به غيره .

قلت :

- إنك تسعدني فعلاً ، ولكن هل أنت سعيد بي ؟

قال :

- إنني الآن سعيد بالأمل فيك ولا يمكن أن يتحقق الأمل بمجرد نظرة أو مجرد

نقاء . إن الأمل يولد كالجنين ثم يأخذ في النمو إلى أن يتحقق ويستكمل نفسه

وأنت أنت وأنا لم يولد إلا منذ لحظات ألا تسمعين صراخه . . واه . . واه . . واه . .

وضحكك وعدت أسأله :

هل تحقق الأمل بينك وبين السيدة الأمريكية التي كت أراها معك .

ونظر إلى وبين شفقه ابتسامة كأنه يشفق بها على وقال :

- أراهن أنك سيدة بلا تجارب . . إنك تجعليني أحس كأنني أول رجل

في حياتك ، بعد زوجك طبعاً .

قلت كأنني أتبره .

- إنك لم تدخل حياتي بعد .

قال :

- أقصد أنني أول رجل غريب تلبين دعوتي .

قلت :

- هذا صحيح .

قال :

- وهذا ما يجعلك تحاولين أن تعرفي كل شيء عني رغم أني معروف في كل أوروبا تقريباً .. وهذا أيضاً ما يجعلك تغارين من السيدة الأمريكية .. جاكلين .. وطاقته :

- "إني لا أغار ولكني فقط أحاول أن أعرفك .."

قال :

- حتى محاولة معرفتي بمجلك كأنك طفلة صغيرة تحتاز تجربة لأول مرة ، فإن معرفتي لا تهم في أي شيء ، المهم هو اللحظة التي نقضها معاً ، هل أنت سعيدة بها وهل أنا سعيد بها أم لا . ولكن .. لا يهم .. سأرى لك قصة جاكلين .. لقد عرفتها منذ عشر سنوات في فينيسيا وكنت لا أزال في اولى محاربي ، وكان لما فضل كبير على .. علمتني كل شيء .. ودمعتني إلى الحياة التي كنت أحلم بها .. قدمتني إلى أرقى المجتمعات .. وعشت معها في أكرم الفنادق التي أصبحت الآن زيوماً دائماً بها .. بل إن أصحاب الفنادق يتنافسون على دعوتي للإقامة عندهم كما يتنافسون على استئجار الفرق الموسيقية أو العناوين المشهورين . وقد أعذتني جاكلين معها إلى أمريكا .. إنها تملك أسهم إحدى شركات الترتول في ولاية أوكلاهوما وعشت هناك أكثر من عام ثم لم أعد أطيع ، رغم كل ما كانت تحيطني به جاكلين .. لقد اشتريت في طائفة خاصة لأنتقل بها داخل أمريكا ، وكنت أطيّر بها إلى لاس فيجاس لألعب القمار وأحسر وجاكلين تحمّل ، ورغم ذلك لم أعد أطيع .. وكانت كريمة فاتفقت معي على أن أعود إلى أوروبا وتأتي هي إلى كلما أرايتها .. لقد سافرت صباح اليوم .. ومنذ ثلاثة أيام ..

.. رأتك في الحرائد أوّيل وأنا مصمم أن أتقدم إليك بعد أن تسافر جاكلين .

وأقول لك بصراحة .. لو عادت جاكلين فأسأطر أن أعود إليها :

قلت وأنا مبهورة بالصراحة التي يتكلم بها :

- إنها كبيرة .. أكبر مني بكثير .. لعلك تحسن بها كأم ..

قال في بساطة :

- لا .. أحسن بها وأحبها كمثل .. إن الطبيب لا يهتم من المريض ..

وأعتبرني طبيباً نفسانياً

ويزداد ابتهازي بصراحة ألبرتو .. إنه لا يخفي شيئاً عن طبيعة عمله بل يتحدث

كإخصائي فخور بتخصصه .. إنه لا يخدعني .. ولا يحاول أن يصل إلى شيء

لا أعرفه .. إنه يقدم لي نفسه ويتركني أختار .. والسيارة القديمة الصغيرة

تعلو وتهبط بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وفجأة بدأت السيارة تهتز ثم هجرت

عن السبيل وتوقفت ، صرخ ألبرتو :

- هذا ما كنت أخشاه ..

ونزل من السيارة وفتح غطاء الموتور وبدأ يبحث فيه إلى أن عاد إلى التحرك ..

وعدنا نغفر في طريق الزيتون والبرتقال ثم عادت السيارة وتوقفت ، ونزل منها

ألبرتو قائلاً :

- إنها غلطى .. كنت أريد أن أشتري سيارة جديدة من روما وليس من هنا ..

ثم دار وفتح لي الباب قائلاً :

- سنضطر أن نسير كيلومتراً واحداً ونصل إلى حرية « مالونا » .. إن هناك

أحسن نبيذ .. هل تستطيعين السير كيلومتراً واحداً .. أستطيع أن أحملك

بين ذراعي لو أردت ..

وقضت من السيارة في خفة كأنى أحاول أن أثبت له شيئا ، وتركنا السيارة وراما دين أن يهتم ألبرتو حتى يخالق أبويها ، وبدأنا نسير على أقدامنا بين أشجار الزيتون والبرتقال وقلت :

- ألا يستحسن أن نعلق أبواب السيارة ؟

قال وهو يأخذ يدي في يده :

- لم نعد في حاجة إليها . . ليأخذها من يريد . .

وسرنا حوالى نصف ساعة . وكل ما حيل حميل . . والجمال في داخل . . أحس كأنى أعيش قصة بطلتها فتاة صغيرة خطفتها فارس أحلامها . . ولم أكن أحس بالبرتو بالذات . ليس هو . . وهو إلى الآن مجرد شاب من الشباب الذين تعودت أن أقيمهم بينى وأنا حالسة في مفاهى أوربا . . ولكن ما أحس به هو ما يحيط به ألبرتو . هو الإحساس بالمعامرة . . بالشيء الجديد . . بالجمال الجديد . . جمال التحرر من كل ما عشت فيه من تقاليد . . وتوقف ألبرتو تحت شجرة زيتون قائلا :

- استراحة لمدة عشر دقائق . .

ثم سقط على الأرض في ظل الشجرة وأسقطني معه . . ثم سكت عن الكلام . . وأخذ ينقل عينيه في أنحاء وجهى ، ثم مد ذراعه وضمها فوق كفى ، ثم قال في همس :

- أريد أن أحاول .

وعيناي متعلقتان بوجهه الوسيم وشعره المنموج في لون الساعات الأولى من الغروب ولكنى حائرة . . لا أدرى ماذا يريد أن يحاول . . ولا أدرى ماذا أريد أنا . . ومال بشفتيه فوق عنق ، ثم تسلل بهما فوق وجتى ، ثم أحستهما بين

شفتى . . وبحمدت شفتاى . . منذ أكثر من عشر سنوات لم أنلق قلة بين شفتى . . روى عن اللطيف كان قد استغنى عنهما كما يستغنى عن الحذاء القديم ، وأنا أيضاً . . شفتاى . . كانتا قد فقدتا الحاجة بالإحساس بالقبل . . ولذلك بحمدت شفتاى بين شفتى ألبرتو . . وهمس مبتسماً :

- إنك ما زلت ساذجة . . أحس كأنى يجب أن أعلمك كل شيء حتى القبل . .

وشفتاى لا تزالان متعلقتين إلى شفتيه كأنهما تستجديانه ألا يتركهما . . وعاد إليهما . . وتركهما له . . أطلقتهما من سحهما الطويل . . ولكنى وأنا أقفه أحاول أن أتذكر كيف كنت أقبل قبل أن أجتاز سن القبل . . وكنت أخشى أن أعمل شيئاً مهنراً أو شيئاً لا يعجبه . . ولكن ألبرتو كان يتصرف بين شفتى ونصرف الأستاذ . . إنه يفتنى القبل . . يلتقى على الدرس الأول . . وتعلت على رعدة كبرياء المرأة فأقبلت شفتى عنه قائلة :

- كفى يا ألبرتو . . دعنا نعد إلى السير . .

وقضت واقفة ، وقهر معى وهو يتسم كأنه يعلم كل أحاسيسى ، وبدأنا من جديد ، وبدأ يعود إلى أحاديثه كأنه يعرف لى الألحان بين أشجار الزيتون والبرتقال .

إلى أن وصلنا إلى قرية « مالوبا » ودخلنا هناك دكان بقال واستقبلوه بالتهليل كأنهم يعرفونه من زمان طويل ، وجلسنا لتناول طعام الغداء والنيذ ، وهو يقوم بين الحين والآخر ليبدل الأسطوانات فوق « الديستونك » . . وبعد أن انتهينا وقرنا أن نعود لتستأجر سيارة ونعود إلى « رودس » فتحت حقبتى وأخرجت منها كل ما فيها من آلاف الدخيمات ومددت بها يدي من تحت المائدة إلى ألبرتو قائلة :

وكانت الساعة الرابعة عندما وصل بنا التاكسى إلى الفندق وتركنى ألبرتو
على أن يلتقى فى التاسعة . . إنه هو أيضاً الذى دفع أجر التاكسى وقد حاولت
أن أدفع أنا ولكنه عاد وقال مبتسماً :
- لا تكونى ساذجة . .

ومن الرابعة حتى التاسعة كنت أشبه بالمجنونة . . كنت كأتى أحاول أن
أخلق نفسى من جديد . . لقد دخلت الحمام ولأولى مرة أهتم بأشياء مضت سنوات
ملولة لم أهتم بها . . إلى أستعرض كل تفاصيل جسدى فى المرآة ، وأتحسس صدرى
لاطمس إلى أنه لا يزال يحتفظ بشيء من تماسكه . . وساقى . . وذراعى . . وبطنى . .
لا شئ أنى لا أزال محتمة باتساق قوامى . . وبدلت فى الإستحمام مجهوداً
لم أعود أن أبذله ، ولم أكن فى كل ذلك أفكر فى ألبرتو أو يخطر ببالى . . لم أكن
أعد نفسى له . . ولكنى كنت أعد نفسى لنفسى . . كنت أعيش شخصية جديدة
أريدها هكذا . . ثم قررت أن أذهب إلى الكوافير رغم أن شعرى ناعم وكنت
قادرة دائماً على أن أعقسه كما أريد بلا كوافير . . وعندما بدأت أختار الثوب
لذى سأندو به بدأت أبحث عن مظاهر أخرى غير لى تعودتها . . لقد تعودت
أن أختار ثوب المساء لأظهر به فى الدعوات الرسمية بصحبة زوجى ، أو فى
لسهرات الاحترافية بصحبته أيضاً وكنت أهتم دائماً إلى الأزياء الحشمة العاقلة ،
وكنت معروفة فى كل المجتمعات باتساق دوقى فى اختيار ثوبى مع الاحتفاظ
بهذه الحشمة العاقلة . . ولكنى الليلة لست حشمة ولا عاقلة . . إلى فُكر فيما
يكشف عنه الثوب أكثر مما أفكر فى الثوب نفسه . . ذراعى . . عنق .
وبراز صدرى وخطوط ظهرى . . كل ما أنجبل أنه جميل منى أحاول أن أبرره . .
وقفت أمام المرآة معجبة ببطلة القصة التى أؤلفها . . ولكن . . ماذا

- ألبرتو . . أرجوك ادفع عنى الحساب . .
وكنت أعتقد أن هذا ما يجب أن أهله بعد أن اعترف لى ألبرتو بعمله .
ونظر إلى ألبرتو فى دهشة ثم ضحك ضحكة كبيرة وقال :
- ليس هكذا أيتها الطفلة الساذجة . .

ثم دفع الحساب من جيبه ، وأعتقد أنه كان سخيًا فى دفع البقيش
فقد أثار فى الذكان كثيراً من التهليل وصيحات المرح . . وأكثر من ذلك .
أخذنى إلى دكان فى القرية يبيع تحف السيراميك التى تشتهر بها رودس ،
واشتريت لى قطعاً غالية دفع ثمنها من جيبه . .
وركبنا السيارة التاكسى وأنا حائرة . . لا أدري كيف أحدد أسلوب التعامل
معه . . ترى كيف يتعامل زوجى عبد اللطيف مع الساء اللاتى يعطينه اللحطات
الحلوة . .
وقال ألبرتو :

- صاعت من « لاندوس » اليوم . . هالليل هناك بارد وهم يامون بمجرد أن
تنام الشمس . . ولكننا سندهب غداً أو بعد غد وبعد أن نجد سيارة جديدة . .
والتاكسى ينطلق بنا عائداً بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وألبرتو يضع ذراعه
فوق كتفى وأملت رأسى واسترحت بها فوق كتفه . . ثم رفعت يدى ودست
أصابعى بين عصلات شعره . . حطقت ما كنت أحلم به منذ رأيت . . شعره
المسجج فى لون الساعات الأولى من الغروب . . لم لا . . إلى أعيش فى حالة
نسيان . . نسييت عمرى ، ونسييت زوجى وأولادى ، ونسييت مركزى . . إلى
أعيش قصة ، ويبدو أن إدمانى قراءة القصص جعل منى امرأة مخمورة بقصة
تؤلفها وتعيشها . .

أحمل معي لألبرتو .. يجب أن أحمل له هدية تشجعه على أداء مهمته و
إسعادي .. هكذا تتطلب القصة . وألبرتو ليس « جيجولو » رخيصاً يقبل
أن تدفع له المرأة حساب السهرة .. إنه محترف غالى الثمن .. وكنت قد اشتريت
من باريس علبة سجائر ذهبية وولاعة سجائر كازيتيه هدية لأخى إسماعيل .
سأعطيها لألبرتو وأشتري لإسماعيل هدية أخرى .

واستقبلني ألبرتو في هو الفندق كأنه بهر برشاقى ولا أريد أن أقول جماًلى
على الأقل بهر بجمال ثوبى وجمال إعدادى لنفسى .. وجلست تناول العشاء
في صالة الفندق . وأخرجت علبة السجائر والولاعة وقدمتهما له قائلة :

- حتى لا تنسائى ..

ولم يبد عليه أنه بهر بالهدية .. قلبها بين يديه وقال بلا حماس :

- ألف شكر . كنت في حاجة فعلاً إلى علبة سجائر وأفضل دائماً

ولاعات كازيتيه :

قالها ببساطة كأنه تعود على أن يتلقى مثل هذه الهدايا .. ثم بدأ يثير إهتمامى
بحكاياته ونكاته ويقضى وقتاً طويلاً في اختيار أنواع النبيذ ، ويروى لى تاريخ
كل نوع .. وأنا لم أتعود أن أشرب من النبيذ ولكنه استطاع أن يجعلنى أشرب .
لم أسكر ولكنى شربت .. وبين كؤوس النبيذ قال لى ألبرتو :

- غداً نذهب في رحلة بحرية بين الجزر .. وبعد عد تكون قد اشترينا
السيارة ونذهب إلى ليندوس .. خبرينى .. هل تفضلين المرسيدس أم الألفا روميو .
وتوقفت عقل لحظة عند هذه الكلمة .. ماذا يقصد .. ولكنى بسرعة
مجاهلت كل ما يحظر على بالى مما يقصده ، وقلت :

- ألفا روميو تليق بك .. والمرسيدس تليق بى . إن فرق السن ينحكم

مصباً في أنواع السيارات ..

وقال كأنه غضب :

لا تتكلمى عن السن مرة أخرى .. تعالى .. سأنت لك أن لا فرق

بينى وبينك ..

وقام من حول مائدة العشاء وقمت معه ، وفي هذه المرة لم يدفع لحساب ، قيد
المبلغ في حسابى بالمدق ، وبدوا أن الجرسوات في هذا الفندق وهو أكبر مدق
في المدينة تعودوا كلما رأوه مع امرأة من التلذذ أن يضيقوا الثمن على حسابها ..
وقلت وأنا ألحق بخطواته السريعة :

- إلى أين ؟

قال :

- صبرين ..

قالها وكله ثقة في نفسه وكأنه تملكنى وكأنى استسلمت له . ثم توقفت برهة
عند مكتب البواب وطلب مفتاحاً ، ونظر البواب إلى واتسم انسمامة لم أرتج لها
ثم أعطاه المفتاح ، ثم أدخلنى معه في المصعد وضغط على رقم الطابق الرابع
به نفس الممر الذى يؤدى إلى
حجرتى .. ووقف أمام حجرتى معللاً : الحجرة ٤٤٤ .. وفتح بابها بالمفتاح ..

وقلت كأنى أصرخ :

- كيف أعطوك مفتاحى ؟

قال :

- لقد كنت معى ..

قلت :

- لم أحسك تطلب مفتاحي ، ولو سمعت لاعتزمت ..

قال في ثقة :

- لا أظن ..

ودخل الغرفة كأنها غرفته ، كأنه يعرف كل تفاصيلها وكل ما فيها ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب زحاجة ليكبر ، من عصير التيناج ، ثم جلس على الأريكة العريضة وشدني ليجلسني إلى جانبه ، وقال وهو يحتوي بعينه الغامضتين وابتناسته العذوبة تكاد تلتقط شفتي :

- يا عزيزي .. إن العمر إحساس .. وأنا أحس بك الآن كأنك فتاة في الرابعة عشرة ، وأحس بنفسي كأني وحش في الأربعين قرر أن يفترسك . وأنت .. أنت في حاجة إلى هذا الإحساس .. الإحساس بأنك امرأة . إن القدرة على الإحساس لا تصنف أبداً ولا تدبل .. وقد بدأت أحس فعلاً .

وبين كنوس العصير المسكر يشد إحساسى .. إحساسى بأنى امرأة وأن ألبرتو رجل .. وأنا قريبان جداً من الفراش .. وألبرتو يتحكم في مهارة صناعي .. يحدد المصنعة .. لا شيء يبتنا سوى المصنعة .. المهارة في الإخراج وفي الوصول .. واكتشفت أنه لا شيء هناك يسمى سن اليأس بالنسبة لأى امرأة .. قد يكون الوصول إلى سن اليأس هو توقف المرأة عن القدرة على الإنجاب ، ولكن ليست هناك أبداً من تصل فيها المرأة إلى العجز عن الإحساس .. وقد كنت أعتقد أنى وصلت إلى سن اليأس منذ سنوات ، ولكنى الآن مع ألبرتو أحس بالمتعة كاملة .. أحس كأني أعيش في جسد تنبض كل خدجة منه بالحياة .. ليس في داخل قطعة مانت أو فقدت الإحساس .. وربما كان هذا هو سر ما كنت أعياه

مع زوجي عبد اللطيف .. إنه يؤمن بما يسمى سن اليأس بالنسبة لي فتجاهل إحساسى كل هذه السنين .. إنه ما تعنيه كل نساء الشرق عندما يصلن إلى هذه السن .. وقد حررت ألبرتو من المعاناة ..

وتركنى ألبرتو عادية فوق الفراش .. قاللا :

- سآرك عداً

وفي لحظة خلعت من أصبى خاخمى السوليتير الذى يحمل قصاً ماب رته ثمانية قراربط . وكنت قد اشتريته منذ أكثر من عشر سنوات بثلاثة آلاف جنيه وربما يساوى الآن ثلاثين ألفاً ، وأعطيته لألبرتو قائلة :

- بهه ... واشتر لنا سيارة ألفا روميو .

وأخذته ألبرتو بعد أن قبل أصبى الذى خلعت منه ربه كمن غزال دهعت للمفجأة التى فوحت بها . مدحاة الى ما رت أعيش

إحساسى كامرأة ..

ومهما كان الثمن الذى دفعته فلا يمكن أن يقاس بما دفعه زوجي عبد اللطيف خلال كل هذه السنوات وخصوصاً بعد أن تمدى السنين حتى يمارس إحساسه برحولته مع نساء أوروبا اللاتي يقدمن نفس ما يقدمه ألبرتو .. يقدمن متعة الإحساس ،

..

وعت ليبتها . لعل لم أمد بل أغنى على فقد كان ألبرتو قد استترف كل قوى من ساعة أن قابلته في الصباح حتى تركنى على فراشى بعد منتصف الليل . وستيقظت في حوالى الساعة الثانية بعد الظهر .. لا .. لم أستيقظ ولكنى فرعت نافذة من فوق الفراش كأن ناراً مستى ، وكل ما حدث أمس يطلق في رأسى .. كيف استسلمت لكل هذا .. إن هذا الصنف من المحترفين أمثال

ألبرتو أعرفه وأسمع عنه منذ زمان ولكنى لم أستسلم أبداً . بل لم يكن يحظر على مالى التعرض لمثل هذه التجربة . . وزوجى إنه يعيش حياته الخاصة منذ سنوات وقد احتملها دون أن أحاول أبداً أن أعطى لنفسى الحق فى حياة خاصة بى انتقاماً منه أو رداً عليه . . ثم مركزى وقيمتى فى المجتمع المصرى والعربى والأوربى إن المركز والقيمة لا يصعبهما ما يعرفه الناس عنك ولكن ما تعرفه عن نفسك وما أعرفه عن نفسى الآن يهدم مركزى وقيمتى . وأولادى . يا حبر . كيف أواجه أولادى وأحمادى وفى صدرى خطيئة كبيرة أحفيها عنهم . إن الإحساس بأنى أخفى عنهم شيئاً يضعفتى أمامهم . . يجعلنى أستسلم لأخطائهم . لو وقعت ابنتى أمانة فى خطيئة ماذا أقول لها وأماها وقعت فى نفس الخطيئة . . والله ماذا يفعل بى الله . . إنه قد يغفر للرجل ، بل منحه الحق فى الزواج من أربع حتى يحميه من الخطيئة . أما المرأة فهو لا يغفر لها بسهولة ولم يمتنعها شيئاً تحمى به نفسها إلا إيمانها به واستسلامها لحكمته . قد يصب غضبه على فى صحتى . أو فى أولادى ، أو فى زوجى . يارب كر غفوراً . احمنى من غضبك . وقررت أن أقوم وأنظهر وأصل . . ولكن هذه الحجرة كلها لم تعد تصلح لأداء صلاة . . إنها موقع الخطيئة . .

وتعدلت ساعات طويلة حاولت خلالها أن أقتع عسى بأن ما حدث ليس شيئاً كبيراً ولا غريباً . وأنى يجب أن أتحور من التقاليد القديمة وأعيش المجتمع الحديث . إن فى الجزيرة عشرات من الرجال من أمثال ألبرتو وكل منهم يبيع بضعته لسيدات كلهن فى سنى وأكبر منى وكلهن من عائلات كبيرة ثرية . بل حتى المجتمع العربى . . كثير من السيدات المحترمات يتعاملن مع أمثال ألبرتو كلما خرص من بلادهن . . بل إن سوق النساء العربيات أصبحت هى

السوق الرائجة لصناعة ألبرتو . . بل ربما كان ألبرتو لم يخترق ليلقى على شباكها إلا لأن حرف أوى عربية ، وأقيم فى هذا الفندق فأتا ثرية . . ثراء تروى . . وقد . . معللاً ربما أكثر مما تدفع سيدات البترول . .

عسى فى عرقى حتى المساء لم أطلب شيئاً أكله ولا حتى كوب ماء . . ثم لب إلى بيو الفندق فى المساء وقد قررت أن أسى أى علاقة بألبرتو . ولا مجرد كلام . .

وبجذته أمامى كأنه كان فى انتظارى . . قلت له فوراً :
أسفة مسيو ألبرتو . . إلى متعة وفى حاجة لأن أبى وحيدة . .
وقال فى هدوء وإتسامته الحلوة تنطلع بى شفق .
هد ما كنت أنتظره . . فإنى أعرف أنك مازلت متدنة . .
واستعد عسى . .

وعطيتى تحريان وراءه وإحساسى يأخذ فى التحرك . إحساسى بأنى امرأة . . إن ما تركه فى ليلة أمس لا يمكن أن أنخلص منه بمجرد قرار . .
بى أحس بكل قطعة من حسدى فى لفة إليه . . شفتاى . صدرى . . ساقى . .
لقد أصبحت . . أصبحت مريضة . . ولم أقاوم مرضى وأأ وهو فى مكان واحد .
وبسرعة انجهت إلى مكتب الفندق وحجزت مقعداً فى الطائرة التى تنسجه إلى أثينا صباح الغد . . وما كدت أبتعد عن المكتب حتى وجدت ألبرتو أمامى يقول فى صوته المنغم الهادئ :

— هل تسمحين أن أصبحك إلى المطار . . هناك شيء يئى دائماً ولا يكلف شيئاً . . وهو الصداقة . .
وأجبت وأنا أهرب من إغرائه ومن ضعفى :

- نعم . نعم . . أولك في المطار .

وعدت أخرى إلى غرقى دون أن أتناول طعام العشاء ، وخفت أن أموت لو نمت دون أن أكل فطلبت قطعة من الساندوتش وكوب ماء . .

ولم أتم ليبتها . . أتعذب في صراع بين ما يريد هذا الإحساس الذى أثاره في ألبتروم . وبين تصميمي على أن أعالج نفسي من هذا الإحساس .

وفي الصباح لم ينتظري ألبتروم في المطار ولكنه انتظرنى في بهو الفندق ، وقام بكل الإجراءات الخاصة بنقل حقائى ونصفية حسائى ثم وضعنى في سيارة يقودها . ليست السيارة القديمة وليست جديدة ، وقال :

- إذا التقينا مرة ثانية سركين ألفا روميو . .

وكل ذلك دون أن يحاول إقناعى بالعدول عن السفر . . لم يطلب شيئاً بدأ . كأنه فعلاً طيب يجد أن العلاج الوحيد لحالتى هو أن يتركنى أتمدن القرار بنفسى . .

وقيل أن أتركه في المطار أعطائى بطاقة تحمل اسمه وعنوانه . فقلنا :

- إنه عنوانى في روما ولكم من هناك يستطيعون أن ينصبوا بى في أى مكان أنا فيه . . إذا احتجت إلى . .

ورفعت عيني إليه ولم أتكلم . . ولا حتى كلمة وداع وحررت إلى الطائرة .

وفي أتبنا اتصلت بروجى عبد اللطيف في لندن وطلت منه أن يأتى إلى في اليوم نفسه . ولكنه لا يستطيع أن يترك لندن قبل يومين ، فقلت له إنى مريضة وسأعود غداً وحدى إلى القاهرة وعدت . .

لعل أنسى وأشقى من إحساسى بأنى امرأة . .

° ° °

بعد ستة شهور قرر روجى عبد المصيف أن يسافر إلى برلين في عملية جديدة .
أسمى الخبر كان المعروف أن أسافر معه ولكنى صرحت دون أن أتمدن الصراح
وكأنه فاجأنى بشيطان مخيف :

- لا . . إن أسافر .

وقال في دهشة :

- لماذا ؟

فمت :

- لأنى زهقت من السفر ولم أعد أحمّل

قال :

ولكنه عمل . والعمل في حاجة إليك وأنت تعرفين أنك عندما تكونين معى
دون ما يمكن أن أصل إليه في شهر أصل إليه في يوم . إن لروحة تفتح دائماً
بواب المجتمع أجاد أمم زوجها . عندما تكونين معى ندعى إلى جلسات عذنية
وتتفرق عني زوجات الآخرين وهذا هو أقصر طريق لاجاح العملية . . وعندما
أكون وحدى أدعى في النوادى لليلة وفي المكاتب . وكل واحد من الآخرين
ينسى أن أكون وحدى حتى يستمل صياقنى في السهر بعيداً عن روحته ولكن هذا
لأسلوب يعطل العملية ويفتح محلات كثيرة غير محترمة . وأنت تعرفين كل ذلك
وأنا أعرف أنك تسمين لى النجاح . . ولئى ألتجع بعيرك
وكنت فعلاً أعرف كل ذلك . ورغم أنى حاولت كثيراً أن أقنعه بإعاضنى
من صحبته إلا أنه أصر واضطرت أن أقبل ولكنى قلت :

- في شرط واحد . . ألا تركني وحدي . . غير مسموح لك بأجازة زوجية . .

وقال مستريماً :

- موافق . . ولا دقيقة وحده .

وسافرت . .

وتحت العملية . .

ول نفس اليوم بدأ عبد اللطيف يقتنع بأنه مضطر أن يسافر إلى لندن وحده .

وصرخت :

- خذني معك . .

قال :

- ليس هنا في صالغ العملية . . إنني سألتقي هناك بشخصيات عربية والعرب لا يصحبون زوجاتهم . . العمليات معهم تتم في النوادي الليلية والكباريات كما تعلمين .

وكنت أعلم ، ولكنني أعلم أيضاً أن ما يسعى إليه عبد اللطيف ليس لقاء الشخصيات العربية ولكن الارتباط في حياته الخاصة ، وقد أصر على السفر وحده ، وقلت له إنني سأعود إلى القاهرة غداً أو بعد غد . .

وسافر زوجي . .

وكنت وحيدة في غرقى الفندق ، ووجدت نفسي أبحث عن البطاقة التي تحمل اسم ألبرتو ، وكنت أحصلها بها كنوع من التحدي لنفسي . . من إقناع نفسي بأن لا أهرب ولكنني أقاوم . . وقلت البطاقة في يدي وانتمت إلى سامة ساخرة . . أسخر من نفسي . .

وطلبت روما بالتليفون ، وردت صوت سائى ناعم ، سألت عن ألبرتو ، وقالت :

إنه في اسابيا . مايوركا . . احتفظي بالحط سأحول لك المكانة . . وجمعت صوت ألبرتو . .

وقلت إن هدوء :

ألبرتو قابلي في ساد موزيز . غداً

❖ یا أنت . . دغنی لغوری ❖

أنت ..

لعلك تسألني لماذا انقطعت عنك طوال هذه الشهور .. والواقع أني لم
أقطع عنك وحدك ولكنني انقطعت عن كل أصدقائي خارج لبنان ، ربما لأنني
مقدت ثقتي بنفسى إلى حد أنى لم أعد أستطيع أن أواجه أحداً حتى ولو بمجرد
تبادل المخطابات أو التحدث في التليفون .

وأنت تعلم كم كنت محرومة بنفسى خصوصاً عندما أكون خارج لبنان ..
كنت أقوم من نفسى أستاذة على كل مجتمع أحد نفسى فيه ، وأعطى لنفسى
الحق فى توزيع الدرجات على طلبة علم التقدم الحضارى .. وأنا - أستاذة
علم التقدم الحضارى - لم أكن أقل من مستوى أى طالب فى أى بلد عربى
كثير من صفر .. وأنت وحدك كنت أمتحك درجتين من عشر درجات
ربما لأننى التقيت بك وأنا مازلت طفلة لم أتمكن بعد كل عناصر الغرور ..
الحمال .. والدكاه ، والثراء المكتسب بالعمل لاثراء الصدقة الذى تحققه
نار البترول ، ثم قوة الجذب فى كل المجتمعات العالمية التى حققت فى نجاحها
لا تحلم به أى فتاة أخرى .. كل هذا خلق لى الشخصية التى كنت أعتر بها .
شخصية الأستاذة .. شخصية العبقريّة .. الشخصية التى كانت تمنحني

الحق في أن أودع نصائحي على كل من أفاضه ، وأنصوّر كل يد تمتد إلى
كأنها تستغيث بي لأنقذها أو لأسد حاجتها . .

وقد ضاع كل شيء

ضاع غروري . .

* أصبحت كلما التقيت بأحد ينجّل إلى أنه ينظر إلى نظرة إشفاف لا نظرة
الإعجاب التي تعودتها . . وكلما مددت يدي لمجرد المصافحة أحس بأنه
يستقبلها كأنها يد تستغيث به وتستجديه . . فإذا تحدثت كان حديثه كله دروس
ونصائح كأنه هو الذي أصبح أستاذاً وأنا التلميذة الفاشلة العيبة التي لا تساوي
أكثر من صعر

وقاوت . .

قاومت نفسي حتى أظّل محتفظة بشخصيتي المروعة

ولكن . .

لا أمل . . لم تعد هناك وسيلة للاحتفاظ بهذه الشخصية إلا أن أعزلها
انعزلت عن كل الناس العرباء وقد أصبح كل من ليس لسانياً عربياً عني
لا يعيش إحساسى ولا يتكلم لفتى ولا يفهمى حتى أنت وكانت خطاباتك
تصلني فأقذف بها بعيداً وأنا أحاول أن أفتح نفسي بأني أنتعالى عليك . وعندما
تتحدث في التليفون أنكر نفسي عنك كأنى أرفضك ، لعل هذا التعالى والرفض
أستطيع أن أحس بأني مازلت محتفظة بشخصيتي المروعة ، وإن كان الواقع
هو أنى كنت أخاف هذه الخطابات وهذه المحادثات التليفونية لأنى أعلم أب
لا تحمل إلا مجموعة من النصائح النافهة والاقتراحات الفارغة التي تشع
إحساسك بأستاذيتك وترضى بها شهوة الشماعة . .

الشماعة . .

في أعيش في إحساس بأن العالم كله شامت فينا . كل فرد من بين الشر يتلذذ
بما يحدث لنا . . يتلذذ بدمائنا التي تفرق الشوارع ، وبكائناتنا الذي يتلذذ
بصرنا الذي يشق قلوبنا . . وقد يذرف العالم دموعاً شفقة علينا ، ويدف كرات
سود حديداً على قتلانا ولكن وراء هذه الدموع وهذا الكرات فرحة في القلب
فرحة الشماعة . . فرحة سوداء . . وربما كانت شماعة الإنتقام من سنوات العرور
بدي عشنا نصه على العالم . . شماعة التخلص من السيطرة اللبنانية التي لم نكن
نعمد على شيء إلا على الذكاء الغروري . شماعة إنتصار الشيء على اللاشيء
وقد كنا لا شيء ، ورغم ذلك كنا سيطر على كل العالم العربي إلى أن انتصر
علينا شيء . . شيء مجهول . . وربما لأنه مجهول فقد انتصر . . فالمجهول
هو الله . .

ولعل الشماعة التي أحسست بها يوماً كأنها سكين تذبحني هي شماعة هذه
المرأة التي تدعى ايميت . أنت تعرفها بل أنت الذي قدمتها إلى دون أن تدري . .
فايميت مصرية مسيحية يسرى في عروقتها دم أجنبي لا أدري أهو دم أرمني أم جريكى
أم فرنسى ، المهم أنها قدمت إلى نفسها عندما جاءت إلى بيروت على أنها مصرية . .
وأنت الذي عودتني على أن أحس بمسؤوليتي عن كل فتاة مصرية تصادفني .
أحبها لمجرد أنها مصرية ، وأعطيتها لمجرد أنها مصرية . . ربما لأنك يوماً ما كنت
مسؤولاً عنى . . مسئولاً عن تكوين عقليتي وفكري . كان عقلك المصرى هو
الذى هذب عقلى اللبناني . . ولهذا تعودت أن أرد لك الجميل في كل ما هو مصرى .
وكانت « ايميت » تبدو مسكينة ، غيبانة ، رغم أنها جميلة . وعرفت أنها من عائلة
كانت غنية في مصر وكان أبوها يمتلك مصنعاً للرخام ، ثم هضت عليه الحراسة ،

وضاعت كل أمواله، ورغم ذلك بقي في مصر وبقيت «إيفيت» معه، تحاول أن تعطي حرمانها بأن تكتسب صداقة بنات وولاد الطبقة المصرية الجديدة كما حاول أن تكتسب صداقتي عندما جاءت إلى بيروت مصحبة بعض صديقاتي المصريات .
 «ولا تدري ماذا فعلت لايفيت . إني منذ اليوم الأول أقمت من نفسي أستاذة عليها بحكم غروري بنفسى . وبدأت أقدمها لمجتمعات بيروت الراقية . وحتى تشرفني في هذه المجتمعات كنت أشتري لها الفساتين ، وأعطيهن من عتلى الجوارب وأدوات المكياج . وأرسلها إلى حلاقى الخاص ليسانى شعره ويرسل لى بقاتورة الحساب . وكانت هى تقدر كل ذلك وكانت حريصة على أن تحتفظ لى بغرورى . وضعت نفسها كسكرتيرة لى . دائماً تتأخر عني بخطوة إلى الورا ونحن ندخل أى مجتمع . وقد تدهش لإحساسى بقيمة هذه المظاهر رغم أنى فتاة مازلت في الثانية والعشرين من عمري ولا يهمنى أن أظهار بسكرتيرة أو بدلولة تسير خلفي . ولكن هكذا أنا . أو ربما هكذا لسند البرور الحضارى . أو ربما كانت هذه هى عقدة اللاشئ . فإن اللاشئ يظهر بأنه شئ . . ونحن لا شئ .

ولا شك أن إيفيت حققت نجاحاً في مجتمع بيروت . ولأنها مسيحية فقد تخاطلها الشبان المسلمون . فهذه هى أيضاً عقدة لى لسند الشاب لسير يهيمه أن يستولى على فتاة مسيحية ، والشاب المسيحي يهيمه أن يستولى على فتاة مسلمة . . مجرد شهوة طائفة . .

وكانت إيفيت حريصة على أن تقدم لى كل يوم تقريراً عن كل علاقاتها مع المجتمع أو مع أى شاب . كأنها تستأذننى ، أو كأنها تقضى بأنها لا يمكنها أن أتستغنى عني . وكانت دائماً تأخذ بنصائحي . . كنت أطلب منها أن تعتذر

دعوة ، فتعتذر ، أو أنصحها بأن تقاطع شيئاً من الشبان فتقاطعه . . وكان لى ذلك يجرى في إطار من الصداقة الحارة وإن كان فيه ما يرضى غرورى به أيضاً ما يدفعنى إلى الاستمرار في تحمل مسئوليتها . .

إلى أن تعرفت إيفيت شاب من أثرياء الصداقة - أقصد أثرياء التروى - استمرت لى هذه الصداقة مع موافقى لى أن عرض عليها أن يأخذها معه إلى شواطئ الريفيرا ونصحها أن تقبل بعد أن قضيت ليالى أشرح لها كيف يمكن تحتفظ به . . إنها لن تحتفظ به إلا إذا احتضنت شئى لم يأخذه منها . . أعرف هذا . . أنا أستاذة التقدم الحضارى . . أنا المغرورة .

وصافرت إيفيت وبقيت حريصة على أن تكتب لى . . إلى أن بدأت الأحداث في لبنان . . حدث كل هذا الذى حدث . . وبدأت ثورة الصياح وفقدان ثقة في نفسى تزحف على صدرى ، وفكرت أن أسافر إلى أثينا في اليونان لأزرح . . ست أعلم أن إيفيت هناك . لم أقرر السفر إلى أثينا لأنها هناك بل لأى تمودت . . أزرح هناك . . أى أنى لم أكن في حاجة إلى إيفيت . . لا يمكن أن أحتاج . . أبداً . . ولكن لأنها فقد شرقها ناد أرسلت لها بريقة بمود وصول .

ووصلت أثينا ، ولم أجد إيفيت في انتظارى ، ولكنى وجدت سائق سيارة يحمل لافتة مكتوباً عليها اسمى ويطوف بها بين الناس . . إن إيفيت لم تأت لاستقبالى ، لكنها أرسلت لى سيارتها . . ما شاء الله . . والله عال يا ست إيفيت . . ورغم ذلك كنت السيارة وأنا أقول لسائق في لهجة أحاول أن أعبر بها عن كل غرورى :
 - أو تيل هينتون . .

وقال السائق في برود :

- السيدة تنتظرك في البيت . .

يا سلام سلم .. جناب السيدة إيفيت تنتظرنى فى بيتنا .. ولا أدرى لماذا
سكتت وقبلت .. ربما نقلبت على عقلية الدبلوماسية اللبنانية .. عقلية إدارة
الأعمال .. أن تأخذ كل زبون وفقاً لشخصيته ..
واستقبلتنى إيفيت وفى عينيها نظرة كأنها تستقبل بها فتاة مسكينة فقيرة مشردة ..
خيلت إليها أنها نفس النظرة التى استقبلتها بها أنا عندما جاءت من مصر وهى
مسكينة فقيرة مشردة ..
وبلتنى إيفيت كأنها تقبل صديقة مريضة واعدة على سرير فى المستشفى
أو ربما كانت قبلة أشبه بالقشيش تحس به على فتاة شحاذا .. وقالت وهى
تبسم لى ابتسامة ضعيفة خيل لى أنها محاولة فاشلة للمدانة شهادتها لى :
- كنت أنتظرك من مدة .. وقد خصصت لك غرفة فى البيت .. قد لا
تكون على قدر غرفتك فى بيروت ولكنها على الأقل غرفة فى بيت ..
قلت وأنا أنظر إليها فى دهشة :
- لقد حجزت فى الميلتون ..
قالت كأنها أصبحت مسؤولة عنى :
- لماذا الميلتون .. كوفى واقعية .. وأقوى معى هنا .. وقد دبرت لك
كل شئ ..
قلت وقد بدأت أواجهها فى سطح وتحد
- أفضل الميلتون ..
قالت وهى تنظر لى فى تعجب :
- لا تكونى عنيدة ..
وابتسمت كأنى أخضع من نفسى ألم الجرح وقلت محاولة أن أحدثها بنص

الأسلوب الذى تعودت أن أحدثها به فى بيروت :
- المهم .. كيف حالك مع صديقك .. احكى لى بالتفصيل ..
وقالت وهى لا تزال واقفة أمامى كأنها أستاذتى :
- ليس هذا مهماً .. المهم هو أنت .. إننا سقيم فى أثنائها مدة طويلة .. و ..
واقفعتها فى حدة :
- لن أقم هنا إلا بضعة أيام ..
قالت فى دهشة :
- ثم إلى أين ؟
قلت :
- العودة إلى بيروت طبعاً ..
قالت كأنها تصرخ :
- هل أنت مجنونة .. بيروت انتهت .. صديقى .. دبرى أمرك من
اليوم وانركى لبنان ..
قلت وأنا أنتفض أمامها :
- أنت المجنونة .. لم ينته شئ .. وأنا لست هنا كمهاجرة .. عاذاً
تصورين .. هل أصبحتنا كالفلسطينيين كتبت عليها الهجرة من بلادنا ..
إن فلسطين أخذها اليهود أما لبنان فلا تزال لنا حتى لو عشتا فيها يقتل بعضنا
عضواً .. واسمى .. كوفى معى كما تعودت أن تكونى .. لا شئ تغير ..
ونظرت لى وبين شفيتها ابتسامة ساخرة تفضح شهادتها :
- أعتقد أن كل شئ تغير ..
وخطوت نحو الباب كأنى أجرى منها قائلة :

- سأذهب إلى الفندق .. اتصل بي هناك ..

قالت وهي تجرى ورأى :

- انتظري ..

وجدت إلى يدها بكية من النقود اليونانية ، وهي تقول :

- كنت قد دبرت كل شيء على أن تقيمي معي .. بل إلى اشتريت لك ثوبين وحذاءين وأنا أعرف مقاسك .. ولكن ما دمت عتيقة وتريدين الإقامة في فندق فقد تكونين محتاجة ..

وأمسكت النقود بين أصابعي كأنني أتحسس مجموعة من الدبداب السامة ، ثم ألقيت بها في وجهها بحنف وأنا أصرخ :

- قلت لك أن لا شيء تغير ..

ونزلت أجري على السلم وأنا أغل بالثورة في داخلي ..

إن الناس تظن أننا وصلنا إلى حد الإفلاس .. إهم لا يعلمون أن سر ثراء بيروت أنها لا تحتفظ بأموالها في داخلها .. إن ما في بيروت هي أموال العرب وأموال الأجانب وكل أموال اللبانيين خارج بيروت .. لا يحتفظ لبناني في بيروت إلا ما يكفي حياته اليومية .. ولكن ثروته .. كثره .. دائماً خارج بيروت .. ولذلك ، رغم كل هذا الدمار ، فنحن أقوىاء .. أغنياء .. أقوى من شاة الناس فينا ..

واعترضت لإيفيت عندما حاولت أن تلتقي في المساء .. قلت إلى متعة وفي اليوم التالي سافرت إلى جزيرة كورفو .. قضيت أياماً .. وحيدة .. أمتص حيرتي وهذائي .. لم عدت إلى بيروت .. العودة دائماً إليها .. إلى بيروت ..

يا أنت ..

إني لا أكتب لك لأني في انتظار رأيك ولا استجداء لمواساتك ، ولكن لاني فقط نعدت أن أرتاح وأنا أكتب لك ، وأحس وأنا أطلعك على أسروى كأنني ألقى بها في بحر لا قرار لها .. ولكن .. هل يمكن أن يكون في لبنان كله ما يسمى سرّاً لا أظن .. إن المجتمع اللبناني عندما قرر التعامل مع الواقع مهما كان مصون هذا الواقع ، أراح نفسه من نقل الأسرار .. ولكن الأسرار ما طعمها ولذتها وكنت أتمنى دائماً أن يكون لي سر .. ولأني لا أجد لي سرّاً في لبنان فقد كنت أكتب إليك لمجرد إقناع نفسي بأنني أبوح بسر لرجل غريب يعيش بعيداً عني ..

وحكايتي مع طولي منذ بدأت لم تكن سرّاً في لبنان حتى لو تظاهرت أمامك بأنها سر خطي سأطعمك عليه ..

أنا مسلمة .. وهو مسيحي .. ماروني ..

وعائلتي تقيم كما تعلم أو كانت تقيم - في حي الأشرية .. حي الأغلبية المسيحية .. ثلاث عائلات إسلامية فقط تقيم في شارعنا والباقي عائلات مسيحية معظمها ماروني .. ولم يكن لذلك أي أثر في مجتمع حي الأشرية .. أو على الأقل بين العائلات الكثيرة الثنية في الأشرية .. كانت أعز صديقاتي هي عابدة وهي مسيحية من الروم الارثوذكس وسريين وهي مارونية وهاتيما وهي بروتستانت .. و .. كما دائماً معاً وسهرات البيوت نجتمعنا كلها .. نرقص معاً .. ونضحك معاً .. وقد تنافس مسلمة ومسيحية على رجل واحد ..

ولم أعرف طولي وأنا صغيرة ، ولم يكن من أبناء الجبران ، ولكنني إنفيت به مد عامين فقط خلال حفل ساهر أقامته إحدى عائلات الحي .. وفي خلال

أسابيع أحسن كل منا كأنه مرتبط بالآخر إلى الأبد .. ولم تخفى شهوة إلا وكنت قد قرأت ألى أن أتزوج إلا طوي .. كان المجتمع قد بدأ يستسلم لحبنا ولم يبق إلا الزواج .. وليس هذا جرماً في المجتمع اللبناني .. مسلمة تتزوج مسيحياً .. حتى لو تزوجت السنة بالمارون .. وابنة زعيم لبناني مسلم متزوجة من مسيحي سوري .. وابنة زعيم إسلامي آخر متزوجة من مسيحي فرنسي .. وكبير قضاة لبنان المسلم متزوج من مسيحية لبنانية .. وأحد أصدقائك مسلم متزوج من عائلة مسيحية مملوكة ، وصديق آخر مسيحي ماروني تزوج من مسلمة ، وابنة مؤسس دولة لبنان المسلم اعترف المجتمع اللبناني بحبها المسيحي وأصبح يستقبلهما على أنهما خطيبان رغم أنهما لم يعلما خطبتهما ولا قررا الزواج ليس غريباً في المجتمع اللبناني أن يتزوج المسلمون والمسيحيون .. ولم يكن غريباً أن أقرر الزواج من طوي .. ولكن التقاليد في لبنان ترفض أن توافق العائلتان على هذا الزواج .. ثم يتركان لثلاثين حرية التصرف .. فإذا أحس المسيحي إسلامه ليتزوج من مسلمة فرحت العائلة المسلمة وأقامت حفلاً صاحباً كأنها تعلن انتصارها بالاستيلاء على مسيحي وصمه إلى حظيرة الإسلام .. أما إذا راعى الاثنان عدم جرح عائلتهما فإنهما يسافران إلى قبرص وبتروحات هناك زواجاً مدنياً ، ويعودان زوجين لا يثبت المجتمع كله بما فيه عائلتهما أن يعترف بزواجهما ..

وكان فكري يتجه إلى أن أتزوج طوي زواجاً مدنياً لا لأنه رفض اعت الإسلام حتى يتزوجني ، ولا لأني رفضت اعتناق المسيحية لأتزوجها .. لا كان تفكيري قائماً على اقتناع .. قائم على الارتفاع فوق الطائفية الدينية والإسلام - في اقتناعي - حرم على المسلمة الزواج من غير المسلم كما

لنشر الدعوة .. نشر الإسلام .. من يريد مسلمة فليسلم .. والإسلام في لبنان لم يعد في حاجة إلى دعوة ، فقد أصبحت أغلبية الشعب اللبناني مسلمة ، والمسيحيون يدخلون في الإسلام أفواجا على الأقل حتى يحصلوا على حق الطلاق من زوجاتهم المسيحيات .. ثم إنني أستطيع تقرباً إلى الله وتكفيراً عن أنايتي أن أجعل من أولادي وأولاد طوي مسيحين .. أفراداً في طائفة الإسلام .. إلى واثقة ألى أستطيع ..

ولم يكن كل ذلك يعني أننا ستزوج اليوم أو غداً .. فطوي لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره ورغم أنه من عائلة مارونية ثرية إلا أنه لا يزال في حاجة إلى وقت حتى يقيم لنفسه شخصية مستقلة ويستطيع أن يتزوج حتى لو تحدى أهله .. ليس قبل أن يصل إلى الثلاثين .. ورغم ذلك لم يكن التخطيط للزواج يتوقف بيني وبين طوي .. إلى أن بدأت الأحداث ..

وقد بدأت وكأن لا شيء يمكن أن يحدث .. مجرد تعبير عن الرأي بطلقات الرصاص .. وفي كل يوم كنا نؤكد عن إيمان بأن كل هذا سيبتلى غداً .. إن من طبيعة الشعب اللبناني التفاؤل ، وكان تفاؤلي كل طائفة يحيطها تصور أنها ستنتصر غداً .. ولكن لا شيء يبتلى .. وشوارع الأشرفية تردم بالشبان المسلمين ، وكنت أعرف أنهم من أفراد الكتائب أو من أفراد حزب شمعون، ولكنني عندما كنت أعهم في الطريق كان يغيب إلى أنهم غرباء .. رجال آخرون غير رجال لبنان .. هذه النظرة التي يتعلمون بها إلى لم أصادمها أبداً من قبل .. وهذه الشفاه القلوبة التي تكاد تطلق بصقة على وجهي لا يمكن أن تكون شفاهاً لبنانية .. وبدأ إحساس جديد يسيطر عليّ كلما خرجت إلى

الشارع . . إحساس الخوف . . إننا لم نعد الخوف في بيروت . .

والأحداث تزداد بشاعة . . القتل يسقطون في حين . . حتى الأشرفية . .
ورغم ذلك لم أكن أريد أن أعترف أو حتى أنصوّر أنها معركة بين المسيحيين
والمسلمين . . إلى ما زلت أتأزور وأتحدث في التلفزيون طويلاً والليل مع
صديقاتي المسيحيات . . وعندما يسقط أحد المسلمين قتيلًا نبكي عليه كلنا
وعندما يسقط مسيحي فرجاً يشتد البكاء أكثر لجرد أنه يمثل أغلبية الحي . .
ثم طوني . . إنه لا يزال حبيبي وسيبقى حبيبي . . بل إن أمي بدأت تتعلق به
وتكتف عن رفضها له ، ربما لأنها أرادت أن تتخذ منه حماية لنا داخل الحي . .
مسيحي في بيتنا فلا يمكن أن يعتدي علينا المسيحيون . . ولكننا لم نكن نستطيع
أن نشتري خضار أنفسنا أو التعلق بارتباط السنين الطويلة مع حيراننا المسيحيين . .
والمارون بالذات . . وصمم والدي على أن تترك الأشرفية . . أن نهجر إلى حي
آخر نحمي فيه ونعيش فيه كمسلمين مع مسلمين . . وربما كان ما يدفع والدي
أكثر إلى الهجرة من الأشرفية هو خوفه على أخي ياسر . . إن أبي نفسه هادئ عاقل
يستطيع أن يتصرف بحكمة مع الأحداث . . وأنا وأختي وأمي لا نخوف علينا .
لا يمكن أن يصل الاعتداء إلى النساء . . ولكن أخي ياسر ، رغم عدم اتئانه إلى
أي تنظيم من التنظيمات المتقاتلة إلا أنه شاب . . وهو حري . . يهوى أن يعرف ويعرب
كل شيء بنفسه . . ومن يدري . . لعله في خطوة بضيع . .
واستسلمت للهجرة بعيداً عن الأشرفية وبعيداً عن حبيبي طوني من أجل
أخي ياسر . .

وكانت هذه هي الأيام التي سافرت فيها إلى اليونان لأستريح كما رويت لك . .
وقد عدت بعد أسبوعين . . وم أصدق أذني بما سمعته . . لا يمكن أن يحدث

كل هذا . . ويحدث في لبنان . . إهم لا يكتفون بالقتل . . إهم يشوهون
قتلهم . . يمزقونهم قطعاً . . وهم يعتدون على البيوت . . يسرقون ويدمرن .
كلهم . . كلهم . . ليسوا مسيحيين ولا مسلمين . . كلهم . . كلهم
وصدقني أن الإحساس الذي كنت أعيش فيه هو أن كلهم ليسوا لبنانيين . .
ولا حتى سنة ولا شعبة ولا دروزاً ، ولا مارون ، ولا روم أرثوذكس ، ولا كاثوليك ،
ولا روتسنت . . ولا . . ولا . . إهم ناس غريباء لا نعرفهم . . جيوش جاءت
من الخارج واحتلوا مناطق محددة بتجاربون فيها ، بدليل أن خارج هذه المناطق
كل شيء هادئ . . إن أبي يدرس عمله . . وأخي يطير من بيروت إلى الكويت
ليباشر عمليته هناك ثم يعود في اليوم التالي . . وأمي لا تزال مهتمة بالمشغل
في أم نعيمه حتى يجيد تقديم اللبن والكبة . . وأختي تنتق ثوبها الذي سترور به
صديقتها . . أنا وحدي التي ستنح . . لقد اعتدى الغرباء على بيتنا في الأشرفية
وكنا قد تركنا فيه أئمن ما يملكه بيت . . تركنا الكثير لأننا كنا نتصور أننا لن
نعيب إلا أياماً . . السجاجيد العجمي ، وقطع الأوبالين ، وقطع من مجوهراتنا ،
وكل قطع ذكريات صباي وشبابي بما فيها السلصلة المرصعة بالقبروز التي كانت
أول ما أهداه لي طوني . . وكل العائلة استسلمت لهذا الاعتداء . . استسلموا
لفقدان بيتنا . . أبي يحمد الله على أنه لا يزال يحتفظ بحياته . . وأخي يبعث
على الأرض ويؤكد أنه سيشتري لنا أكثر مما ضاع منا ، وأمي بكثت أياماً ثم
استطاعت أن تتناسى . . أنا وحدي المجنونة . . أعيش كأنه لن يكون
لنا أبداً بيت بعد بيت الأشرفية . . إن طوني يستطيع أن يعيد لي بيتي . . إنه
هناك في الأشرفية . . ويستطيع أن يعيد لي البيت . .
ومند وصلت وأنا أبحث عن طوني ولا أستطيع أن أجده . .

لم يعد أمامي إلا أن أذهب بنفسى إلى الأشرفة . . إلى بيتنا . . إنهم يعرفونى هناك ولن يعتدوا على . . ثم إنى فتاة . . من يعتدى على فتاة عزلاء حتى لو كان من هؤلاء الغرباء الذين يتقاتلون . .

ولم أقل إلا لأمى . .

وصرخت أمى . . يا مجنونة . . إنهم سيقتلونك . .

ولكنى مصممة . .

سأذهب إلى الأشرفة . . إلى بيتنا . . إن طوى هناك سأكون فى حمايته . . وخوفاً من أن تنجأ أمى إلى أبى ليحول بينى وبين الأشرفة ، جريت من أمامها إلى الشارع ، وإذا بها تجرى ورائى وتلتحق بى ، ثم تمسك بيدي وتسير بجانبى وتقول وهى تقاوم دموعها :

- سأذهب معك . . ربنا يستر . .

وركبنا سيارة أجرة . . وأمى لا تسكت عن ترديد آيات القرآن التى تحفظها . . ووقفت السيارة عند محطة رفض السائق أن يعدها . . وركب إلى الشارع . . وأمى قد توقفت عن ترديد القرآن ، ولبت عباها لمعاً عربياً كأنها مقلدة على معركة تتحدى بها القدر . . وبدأت تحطو بجانبى كأنها أقوى منى منصوبة القامة تدق بقدميها على الأرض . .

إننا نجتاز عرض الشارع الذى يفصل بين المطفئين المتقاتلين . . احتزنا أكثر من نصف الشارع . .

وفجأة . .

انطلقت رصاصة . .

ونظرت حولى فى دهشة كأنى أتعجب ثم صرخت . . إنها أمى . . تترعب .

وتسقط . . وسقطت فوقها . . ماتت . . قتلوا أمى . . وفوق رأى رجلان . . لا أستطيع أن أميز وجهيهما . . ربما كانا من أبناء الأشرفة ، ولكن و هذه اللحظة كنت أراهما من خلال عمامة كثيفة تعبى . . وسمعت صوت أحدهما يسألنى صائراً :

- هل هى أمك ؟

وتركت جسد أمى ووقفت أمامهما صامتة نائمة وكل خلجة منى قد غشيت . . وعاد الرجل يقول وكأنه يضحك :

« خساره . . كان المفروض أن تكفى أنت .

وقال الرجل الثانى :

- أتركها . . سأخذها معنا . .

وقال الأول :

- انتظر حتى نعطيا ذكرى أمها . .

وانحنى على جثمان أمى « وأخرج سكياً قطع به أذناً من أديها ثم اعتدل ووضع أذن أمى فى يدي وهو يصيح متهقها :

- هدية من أمك . . حتى لا تنسى . .

وأطلقت يدي على ما وضعه فيها وقطرات من الدم تسرى بين أصابعى . دم أمى

وفجأة ظهر رجل ثالث يجرى نحونا وهو يصيح . .

مستحيل . .

إن الضامة تتزاح من أمام عيني وأستطيع أن أراه . .

إنه طوى . . حببى طوى .

وفوق كتفه سلاح . .

إنه واحد منهم ..

وصرخ :

- سميرة

ولف ذراعه حول كتفي وأخذ بصرخ في وجه الرجلين .. كلاماً لا يهمني أن أحبه أو أكرهه .

ثم صرخت .. وصرحت .. وصرخت .. وجذبت نفسي من تحت ذراع طولي وجريت عاتلة إلى الناحية التي جثت منها .. وطولي يجري ورائي وهو يصرخ - سميرة .. يا مجنونة .. انتظري .. سأقول لك .. و ..

ولحق بي .. أحست بيده وقد أمسكت بكتفي وفجأة أيضاً ..

انطلقت رصاصة ..

وسقط طولي .. وسقطت بجانبه .. توقفت أنفاسه .. لقد قتل .. كأمي .

ولكني لا أحس شيئاً .. لم يعد في ما أحس به .. راقدة بجانب جثة حبيبي الذي قتل أمي .. والطلقات تشتد بين ناحيتي الطريق وكلها تمر فوق رأسي .. كم مضى .. ساعة .. ساعتان .. لا أدري .. وتوقف إطلاق النار .. ورأيت رجلاً يزحف ناحيتنا ثم يعود وهو يشد وراءه جثة طولي .. وإنسان آخر اقرب وحملني إلى نهاية الشارع .. ثم وضعني بين زملائه .. إنهم يسألونني ويطمنون إلى أمي منهم . وعندما تعجبوا لأنني حازلت بعبور هذا الشارع بصحبة أمي ، قلت - كنا عائدتين إلى بيتنا في الأشرقية .

ونظروا إلى كأنهم يشفقون على مجنونة . ولح أحدهم أذن أمي التي كنت لا أزال مطبقة عليها بأصابعي وصرخ :

- الكلاب ..

ثم ألقى فوق جثة طولي وقطع إحدى ذبيه وألقاها بعيداً ثم أحد بمرق في يديه

حسده ..

واسحبت والتقطت أذن طولي ..

وضعتها مع أذن أمي في يد واحد ..

• • •

يا أنت ..

لا تحاول أن تكتب لي كأنك تعقدني أسألك رأيت رأيت لا يساوي شيئاً .. أنا لبنانية وكل لبناني ليس في حاجة إلى رأي أحد .. وقد كتبت لك لجرد أن أستريح ثم ألقى بما أكره في سلة المهملات آسفة .. لا أقصد أبك سلة مهملاتي ..

وعلى كل حال قلن أعطيك عنواني لتكتب لي فقد تركت بيروت .. في صمم على أن يقذف بي بعيداً عن بيروت .. وإلى أعيش هنا كما تعودت أن أعيش .. معروفة .. أستاذة علم التقدم الحضاري وفوق صدرى عنى قالباً صعباً من الذهب المرصع بالماس ، وفي داخله أحطط بأذن أمي وأذن صوفي . إن القالب صنع لي الجواهرى الفرنسى المعروف كارتيه .. إنه نسخة مينة تثير حسد كل البنات .. ولا تدرى كم كلفني .. لا ييم .. إننا دائماً نستطيع أن ندفع .. لم يتغير شيء .. وعندما أعود إلى بيروت سأدعوك تلمس بنفسك أنه لم يتغير شيء .

وسأعود ..

ولن أنسى

❧ العذراء والشعر الأبيض ❧



إن صرختها لا تزال تملأ أذنيه :

- أنت لست أبي .. كن صريحاً مع نفسك وعدني كما أنا .. وأنا لست

عك

إب صرخة تتردد كأنها صدى صوت القدر يزهه إلى مصيره كل ليلة قبل

أن ينام ..

قبل أن ينام معها ..

ويصحو كل صباح وينظر إلى عينيها المغمضتين فوق وجهها الصغير ويتشم

انتسامة تحمل كل أحاسيسه المتناقضة . تحمل السعادة بنفسه والخلج

من نفسه ، والسخط على نفسه .

وتعود الصرخة تدوى في خياله :

- أنت لست أبي .

وقد حاول كثيراً أن يقنع نفسه وأن يحس بأنه أبوها .. إنها تحمل اسمه ..

شبة محمد عبد الله .. وهو الذي أعطاها هذا الاسم .. هو محمد عبد الله ..

إذن فهي ابنته . وقد قضى من عمره أكثر من ثمانية عشر عاماً وهو يحاول أن

يقنع نفسه وأن يحضر إحساسه بأنها ابنته ..

ولكن . .

واتسعت ابتسامته وقد امتلأت بالسخرية من نفسه حتى كادت تنقبض إلى فمها مرة ، وعاد فيلم الذكريات يطوف بخياله . . الفيلم الذى يعود ويتردد كلما خلا إلى خياله ، دفين أن يستطيع أن يقاوم الاستسلام له .

كان لا يزال فى بداية شبابه . . فى السادسة والعشرين من عمره . . وكان قد انقضى على زواجه من (دولت) أربع سنوات . . إن دولت تكبره سناً بثلاث سنوات وقد أحبا وهى زوجة رجل آخر ، وربما كان أقوى ما فى هذا الحب هو نشوة الاستيلاء عليها . . النشوة التى ترعى غرور كل رجل يصل إلى روجة رجل آخر . . ولكن دولت لم تتركه طويلاً يتمتع بهذه النشوة فقد استطاعت بعد عام واحد من لقائهما أن تطلق من زوجها وأصبح من الطبيعى أن يتزوجها . وقد دفعه إلى الاستسلام للزواج الجانب الآخر من حبه لدولت . . جانب الاعتماد عليها ، فمئذ أن التقى بها وهو يعتمد عليها ، وهى من الشخصيات التى تعبر عن الحب بالعطاء . . كانت تعطيه كثيراً وهو لم يكر قد بد فى ساء نفسه بعد ، كان قد تخرج فى نفس العام من كلية التجارة . وكان يقيم وهو طالب فى غرفة من بسينون فى أطراف الجزيرة ، وكان يعيش على ما ترسله له عائلته المقيمة فى طوط . . ليس غنياً ولكنه أيضاً ليس محتاحاً فى حدود المستوى المتواضع الذى يعيش فيه . . ولكن دولت بدأت تعطيه ونقلته من عرته إلى الجزيرة إلى غرفة فى بسينون بشارع متفرع من شارع قصر النيل . . وقد حاول أن يرفض . . إن ينجارها خمسة عشر حنياً لا يستطيع أن يدفعها . . وحاولت دولت تقنعه بأنها ستتحمل عنه دفع الإنجبار . . إنها غنية ورثت عن أبيها . وزوجها يعصب

كثيراً ولا بدقق فى الحساب . . ولكنه رفض . . إنه يرفض التنازل عن اعترازه بنفسه وإحساسه بأن الرجل هو المسئول عن المرأة لئى يملكها . . ولكن دولت تمنح وهى فى حاجة إلى هذه العفة الجديدة أكثر من حاجته هو إليها فإنها تستطيع أن تصل إليه بها دون أن يكشف سرها أحد . فالعمارة كبيرة فى منطقة تجارية وس يراها ذاهبة إليه يمكن بسهولة إقناعه بأنها فى طريقها لأن تشتري بعض المشتريات أو فى طريقها إلى الدكتور أو لخياطة اللذين تضمهما نفس العمارة ، أما الغرفة التى يقيم فيها فى الجزيرة وهى فضيحة ، لا أحد يراها ذاهبة إليه إلا ويصب عليها نظرات اللعنة ، وأصحاب الشقة أنفسهم رغم أنهم سكتوا نظير الهدايا التى تحملها إليهم كل مرة ، ورغم أنه قدمها إليهم على أنها انة عمه إلا أنهم يستقبلونها كل مرة كأنهم يشلمون عنها ثوباً ليروا من تحته ما يراه محمد . . وقد اقتنع محمد بهذا المطلق ورضى أن ينتقل إلى العفة الجديدة على أن يظل يدفع الثأية الجنيات التى تعود أن يدفعها وتدفع هى الباقى . .

وضمكت دولت قائلة . .

— لا . . النصف بالنصف . . كل منا يدفع سبعة جنيهات ونصفاً . .

ولكنها كانت تدفع كثيراً واستسلم بلنة وغرور إلى ما تدفعه . . نصف ثيابه أصبحت هدايا تقدمها له ، والساعة التى يتباهى بها أمام أصدقائه . والقلم الذى يكتب به ، بل إنها تحملت مسئولية حياته الخاصة كأنها أصححت زوجته . رغم أن فكرة الزواج لم تكن تخطر له على بال ولم يكن يعتقد أنها هى نفسها يمكن أن تمكر فى أن تتزوجه . . فهى روجة رجل محترم باجع يوفر لها اجتماعاً ومادياً كل ما تحلم به أى امرأة . وكان يعتقد أن كل ما بينهما هو ذلك النوع من الحب الذى لا يشمل كل شئ ولكنه يغطى جانباً من النقص

الذى يشعر به كل من الطرفين... شيء ينقصها يعطيه لها ، وشيء ينقصه تعطيه له .
إلى أن وصي بأنها طلقت... ولم يسبق طلاقها أية مقدمات أو حديث عنه
بينهما... مفاجأة صارخة بالنسبة له خصوصاً وأنه لم يكن قد مضى على
رواحها أكثر من أربعة أعوام ، ولم يكن قد مضى أكثر من عام واحد على لقاءهما ،
وخصوصاً أنه تأكد من أنها هي التي طالبت بالطلاق... وكل ما قاله له أن
أبلغته بطلاقها :

- إلى لا أستطيع أن أعيش لرجلين ..

وكان من الطبيعي أن يفكر في مصيره معها... هل يتزوجها ؟ وقبل أن
يقرر كانت هي قد بدأت تشير بأسلوبها المادئ الناعم إلى الزواج... هل
كانت تنتظر أن يتخرج في الجامعة ويبدأ حياته العامة حتى تطلق وتطالبه بالزواج...
لا يدري... بل لا يدري ماذا نجد فيه مما يغريها بالزواج منه حتى لو كان فيه
ما يغريها بحبه ، فهو لا يستطيع أن يوفر لها الحياة التي كان يوفرها لها زوجها
الأول... لا الحياة الاجتماعية ولا الحياة المادية... إنها تتزوج به وهي تعلم أنها
ستعطيه أكثر مما تأخذ... لا يهم... هذا ما تريده...

واستسلم للزواج بلا حماس وبلا اقتناع تام ، وتركها هي لتحمل مهمة
اتخاذ كل الإجراءات... هي التي قدمت لأهلها ، وهي التي اختارت بينهما ،
وهي التي قامت بتأنيثه وهي التي اختارت المأذون وهي التي تولت دعوة أقاربها
واكتفى هو بأن يتولى دعوة أبيه وعائلته... كل هذا لم يأخذ شيئاً من فكره ،
فقد كان قد بدأ يفكر في بناء نفسه... في أن يعمل... وكان يكره أن يكون
موظفاً في الحكومة فبدأ يسعى بين شركات المقاولات ويحاول أن يكسب علاقات
وصداقات مع رجال الأعمال وأهمهم رجال وكالة البيع... وحتى بعد أن أصبحها

زوجين فعلاً لم يحس أن هناك شيئاً جديداً يجمعه بها ، فهي ليست غريبة
عنه ، وليس فيها شيء جديد ، وما تقدمه له بعد الرواج هو نفسه ما كانت
تقدمه له قبل الزواج... الاهتمام بكل شيء ومسئولية كل شيء ، كل ما أضافته
هو أنها بدأت تفتح أمامه أبواباً جنسية جديدة كان في حاجة إليها وساعدته
كثيراً في بناء نفسه...

ومثل الليالي الأولى من الزوج أحس بأن هناك شيئاً تريده وتسى إليه
دون أن يبدو ما هو ، إلى أن انقضى أكثر من شهر عندما قالت له يوماً :
- كل ما يتقصنا اليوم يا محمد هو أن نخلف... أن أكون أما وأن تكون أباً...

نفسى في يفت يا محمد .
ولم يتم بما تريد فهو نفسه لا يحس بأنه يريد أن يكون أباً ، بل يكره أن
يكون أباً لبنت أو ولد... إنه لا يزال في مقتبل شبابه... كل ما يريد هو نفسه .
ومرت الشهور... وبدأ يلاحظ أن دولت تتردد كثيراً على الأطباء وتتبع
إجراءات غريبة عليه في علاج نفسها إلى أن صارحته بأنها تذهب إلى الأطباء
لتحمل وتلد ، ثم فاجأته يوماً بأن طالبت بأن يذهب إلى طبيب ليتأكد هو الآخر
بأنه يستطيع أن يتجنب ، وصرخ في وجهها .

- لا يهوى إذا كنت أستطيع أولاً أستطيع إنني لم أتزوج لأكون أباً...
تزوجت لأكون معك أنت تكفينى وتغنيى عن دوشة العيال... دوشتك تكفينى...
ولكنها تلح عليه أن يذهب إلى طبيب ، وإلحاحها يدفعه إلى التساؤل .
هل تزوجته فقط لتجنب مه وهل طلقت زوجها الأول لأنها فقط لم تنجب منه
رغم أنها عاشت معه أربع سنوات... ولكنها كانت تستطيع أن تترك نفسها
للإحجاب قبل الطلاق والزواج ، فقد كانت تعطيه كل شيء ، وكانت تستطيع

أن تنسب خلفتها إلى زوجها الأول أو تتع أي أسدوب آخر مما نسمع ونقرأ عنه من أساليب . وتذكر أنها قبل أن يتزوجا كانت حريصة كلما جاءت إليه على اتباع كل إحصاءات منع الحمل ، ربما لأنها لم تكن تريد أن يكون لها مولود حرام ، أو ربما لأنها لم تكن تريد أن تعترف بأن النقص فيها هي امرأة ناقصة . . امرأة لا تنجب . . امرأة عاقرة . . ولم يكن هناك ما يمكن أن يغطي عقبتها إلا أن تتظاهر بتعاطي وسائل منع الحمل . . أو تهم زوجها الأول بأنه هو الناقص . ثم تلج على زوجها الثاني بأن يذهب إلى طبيب .

وذهب إلى الطبيب مرضاة لها وتحت ثقل إحاسنها . .

وكان يتمنى أن يثبت عليه الطبيب أنه عاقر لا ينجب ، فهو فعلا لا يتمنى ولا يحب أن يكون أباً . . قد تكون هذه أنانية منه ، ولكنه مقتنع بأنه لا هو ولا العالم كله في حاجة إلى مولود آخر . وقد أكد له الطبيب أن رجولته طبيعية وأنه لا شك قادر على الإنجاب ورغم ذلك فقد ألح عليه أن يكتب له أي نوع من الدواء حتى يعود إلى دولت وكأنه هو الذي في حاجة إلى العلاج ، لعلها تهدأ .

وقد فرحت دولت فعلاً عندما عاد إليها وفي يده زحاجة دواء . وأصبح هذا الدواء أهم وأعلى ما في البيت بالسبب ها ، وتناوله في كل اهتمام مبالغ فيه كأنها تنفذ به حياته وحياتها . . ومع ذلك فلا شك أن دولت كانت تحس أنها تدارى عقدة في داخلها . . عقدة المرأة العاقر . . هي تعلم منذ سنوات زواجها الأول أنها لا تنجب ولكنها لا تريد أن تعترف بنفسها ولا تريد أن تحت عن حياة تعنيها عن أن يكون لها أولاد وبنات ، وكانت تعتمد أن تذهب إلى الطبيب سرّ دون أن تخبر حتى زوجها ، وقد عرض عيباً أخذ الأطباء أن يجري لها عملية جراحية ولكنها رفضت حتى لا تفضح أمرها ، وكانت تعطي كل ذلك بالتحدث باستمرار عن عجز

وحها عن الإنجاب ثم كبرت الكذبة في خيالها حتى بدأت تفكر في أن تطلق زوجها فعلاً بحجة عجزه . . وقبل أن تبدأ في الطلاق من زوجها الأول عرفت محمد . إنه زميل لابن عمها في كلية التجارة وأصبح صديقاً لأحبا . وقد شعرت منذ رآته بأحاسيس كثيرة تشدها إليه . وقد كانت تستطيع أن تقاوم هذه الأحاسيس . . إنه لا يزال في نضارة شبابه وهو يبدو كأنه ربي لا يزال بخيره وكل قوته لم تستنزف بعد حياة المدينة . . من يدري ربما كانت تستطيع أن تحب منه . هذه المفدة هي التي دفعها إليه وإلى محاولة الاستيلاء عليه . ورغم ذلك فعندما استولت عليه كله . وأعطته كل شيء . كانت حريصة على أن يمرض عليه وعلى نفسها إحصاءات منع الحمل لأنها لم تكن تريد أن تعترف حتى أمام نفسها أنها لا تحمل ، أو لأنها لا تريد أن تشعر بعجزها عن الحمل . و ربما لأنها كانت لا تزال متمسكة بالأمل . وكانت حريصة ألا تحرب هذا الأمل إلا في الحلال .

هذه المشكلة التي تعيشها دولت بكل فكرها وأعصابها وبكل وجودها . لم يكن محمد يعيشها أبداً رغم أنها كانت تذكرها بحرصها على تقديم الدواء بحادع له . كان كل فكره وإحساسه وشاظه يحصر في بناء عمله . . وقد بدأ يسبح بسرعة وبدأت أزماعه ترتفع إلى أن قارب أن يكون في مستوى ثراء زوجته . وكان قد مر عثمان على زواجه عندما قرر أن يسافر إلى لندن للدخول في صفقة جديدة . ووصي بأن دولت تصر على أن تسافر معه . . يا حبيبتي إنني أسافر إلى لندن لأول مرة ، فدعيني أنوه هناك وحدتي إلى أن أكتشفها لك ثم سافروا معاً في المرة القادمة . . ولكنها تصر . . لماذا . . هل تفار عليه . . هل تخشى أن يتزوج فتاة إنجليزية . . ولماذا تصر على تهريب كل هذه المبالغ

من الجنينات الإسرائيلية . إنه لم يعرف إلا وهو جالس بجانبها في الطائرة التي حملتهما إلى لندن . . إن كل ما تريده هو أن تعرض نفسك على طبيب هناك لعلها تحمل ، وتلج عليه أن يعدها هو أيضاً بأن يعرض نفسه على طبيب . لابد أن هناك شيئاً جديداً . . علماً جديداً . . دواء جديداً . . شيئاً لم يصل إليه أطباء مصر . . فلنجرب . . وثار عليها . . لم يخطر على باله أنها لا تزال تحاول وأن تتكف كل هذا المشوار وكل هذه المصاريف حتى تستمر في محاولتها . وأقسم في ثورته أنه لن يعرض نفسه على طبيب وأعلن تدمه لأنه استسلم لها وصحبها معه . . ولم تتحد ثورته بل ظلت هادئة مبتسمة كأنها تعذر . . وفي لندن اكتشف أنها كانت قد حدثت موعداً مع الطبيب الإخصائي . وذهبت إليه وحدها وتركته يتفرغ لعمله . .

ومرت أيام قاجاته بعدها بأنها قررت أن تقل إجراء عملية جراحية ينصحها الطبيب - ووافقها دون أن يهتم حتى تنقضي تفاصيل العملية كل ما عره أنها عملية تتطلب أن تبقى في المستشفى أكثر من أسبوع ، وهو مضطر أن يعود إلى مصر بعد يومين . وبقى معها إلى أن خرجت من عرق العمليات ثم سافر في نفس اليوم عائداً إلى القاهرة . . ولم تعترض . . كانت تعرف أنه لا يهتم بأن يكون أمماً فأعفته من أن يتحمل عبء محاولتها أن تكون أمماً . إلى هذا الحد كانت تعطيه وهادت إليه بعد شهر ووجهها يضحك بنضارة الأمل . . إن الأطباء أكدوا لها أنها حتماً ستكون أمماً . . وعندما أخذها محمد بين ذراعيه وهما في الفراش بدأ يحس بإحساس لم يحسه من قبل . . إحساس ثقيل . . لم يكن إحساس المتمتع التي تعودها معها . ولكنه إحساس أقرب إلى الإحساس بالمسئولية . . إنه مشوب الآن على أن يجعل منها أمماً . . أن يقوم بعملية حمل . . وأحس فعلاً كأنه عبي

وشك أن يقوم بإجراء عملية جراحية لها يكمل بها العملية التي أجرتها في لندن . . كأنه طبيب . حتى أن شفتها لم يعد لها نفس طعم القبلات . . وضغط أصابعه على جسدها لم يعد يثيره كما كان . . إنه مكلف الآن بإجراء صلبة جراحية . . يجب أن تكف عن هذه الابتسامة التي كان يحبها حتى تساعد على التحرك كأنه طبيب . . وأن تمنح عينيها حتى لا ترجعها رؤية الشرط . .

وقد أثر كل ذلك في إحساسه الطبيعي بالجنس ، وأحس أنه يضغط على كل رجولته حتى يستكمل هذا الإحساس . . وقد أطلع في أن يقوم بالعملية وأن يؤدي واجبه ، ولكنه من يومها وهو لا يستطيع أبداً أن يعود إلى تمتعه التي تعودها معها وهما في فراش . . في كل مرة يسيطر عليه الإحساس بإجراء عملية . . آداء الواجب . . فقط آداء الواجب . .

ومر عام كامل دون أن يتغير شيء في دولته . لم تحمل . . وبدأت تفكر في أن تعود إلى الأطباء في لندن ولكنه صرخ رافضاً . . أحمدي الله على ما كتبه لك . . دعي حيك لي يفتيك عن حرامك . . كان يقول هذا الكلام وعقله يأخذه إلى مشروع الطلاق . . ربما طالبت بالطلاق كما طالبت زوجها الأول حتى تعطى عقدتها أمام نفسها وأمام الناس . ولكن لماذا لا يطلقها هو . . ولكن لا . . لا يستطيع . . إنه لا يستطيع أن ينسى كل ما أعطته . . إنها سر بحاحه . . وسر كل هذه الحياة الفخمة التي يعيشها . . وقد تعود عليها وعلى الحياة معها وتعود أيضاً على نقصها وهجرها عن أن تكون أمماً إلى حد أنه لا يستطيع أن يعيش كاملاً بغيرها .

والذي حدث أنها عرفت أن زوجها الأول الذي كان قد تزوج غيرها قد أنجب وأحست أن عورتها قد انكشفت . . لم تعد تستطيع أن تضلل نفسها

وتفضل الناس ويقول إن الزوج هو السبب . وبدأت تعاني من ثقل الإحساس بأن مالا تستطيع أن تعطيه لزوجها تستطيع غيرها أن تعطيه ، وزاد ثقل هذا الإحساس حتى وصل بها إلى حالة اليأس . . اليأس من أن تستمر في محاولة أن تحمل وتنجب ، وقررت أنه لم يعد أمامها إلا وسيلة واحدة حتى تعوضها وتعوض زوجها عن عجزها وهي أن تتبنى . .

وفكرت طويلاً في مشروع التبنى قبل أن تعرضه على محمد ، وقررت بينه وبين نفسها أن تتبنى بنتاً . . إن البنت يمكن أن تكون أقرب إليها من الولد . . وتستطيع بطبيعتها كأنثى أن تفهمها وتربها أسهل مما تستطيع أن تفهم وتربي الولد . وبدأت فعلاً تبحث عن الملاهي ودور رعاية الأحداث التي تعطى حق التبنى . . وفي القاهرة أكثر من دار لرعاية الأحداث ، تضم الأطفال الذين يجمعون من الشوارع وأغلبهم قبض عليهم في جرائم صغيرة ليس لهم ذنب فيها . . وليس في القاهرة إلا ملجأ واحد في المطرية يضم الأطفال اللقطاء بعضهم احتواه الملجأ وهو لا يزال في أيامه الأولى من الحياة . . ولم يجد في دور رعاية الأحداث طفلاً يشد إحساساً ، واقتنعها . . كانت تقف أمام كل طلة وتردد طويلاً ثم تبعد دون أن تستطيع أن تتحد قراراً . . ثم ذهبت إلى الملجأ في المطرية وما كادت عيناها تلتقي بشيء حتى قررت أن تكون ابنتها . . طفلة في الرابعة من عمرها كل ما في وجهها يتسم . . عيناها تبتسمان ، ووجنتاه تبتسمان ، وشفتاها ، حتى أصابع يديها . . ابتسامة دائمة هادئة فيها حلاوة ولها دكاء ولون شرتها أقرب إلى البياض كلونها ، وشعرها أقرب إلى اللون الفاتح يضعف فيه الأسود مع التمرير مع الأصفر كلوك شعرها . . إن من السهل أن يعتقد الناس أنها ابتها فعلاً ، وخاصة أن تصرفاتها وحركاتها حتى وهي طفلة وفي مدجاً لقطاء

فيها كثير من الرقة الأرستقراطية ، ومن يدرى ربما أنجبتها في خطيئة امرأة من عائلة لها قيمتها ثم وضعها أمام جامع أو أمام مركز بوليس هرباً من المضيحة . . سألت في الملجأ أسئلة كثيرة عن شئته . . أين وجدوها ؟ . وهل يذكر اللفافة التي كانت تلفت بها . . ولم يكن وجدوها أمام جامع ولا أمام مركز بوليس ، لقد وجدوها قريباً من سور السفارة الأمريكية في جاردن سيتي ، وكانت ملتفة بأغطية غالية مطرزة ولم يكن قد مضى على ولادتها أكثر من أسبوعين ، وكان من بحثها أن الذي عثر عليها رجل محترم استدعى عسكري البوليس وأرشده إلى شئته وهي لا تزال ملقاة على الرصيف بجانب السور ، وحملها العسكري إلى قسم البوليس ، وسلمها البوليس إلى الملجأ . . والحمد لله . . فقد كان يمكن أن يعثر عليها أحد لشردين ويسلمها إلى عصابه إحرمة ليشوها بينهم وهو ما يحدث كثيراً . . ودولت تسمع القصة وتجري بعينها بحثاً عن شئته وتضمها من بعيد في فرحة . .

وهرعت إلى محمد لتسعه قررها . إنها ستبني طفلة ، وقد وحدثها في الملجأ . . ونظر إليها محمد كأنه ينظر إلى مجنونة ، ثم قلب شعبيته قرعاً ومتعاضاً ، ووافق . . إنه لا يريد ابنة ولا ابناً ، وكل ما يريد هو أن تبدأ زوجته وتريحه من عقدها . . وذهب محمد معها إلى الملجأ ليتحدث إجراءات التبنى ، ولم يعتمد هناك أن ينظر إلى شئته وبدأ في توقيع الأوراق بلا أية عاطفة كأنه يوقع على شيك يبرع لإحدى الجمعيات الخيرية ، أو كأنه يوقع عقداً في صفقة لا يهمه أن يخسرها ، ولكنه عندما رأى شئته ابتسم كأنها شفت إليه استامات تقاطيع وجهها الطفل . . ابتسم ابتسامة كاملة شملت أحاسيسه كلها . . وكان يمكن أن يكون التبنى جزئياً أي أن يتولى أمرها دون أن ينسبها إلى نفسه ،

ولكن دولت أصرت على أن يكون التبنى كاملاً . . أى أن تكون ابنته وتحمل اسمه . . ولم يهتم محمد أيامها . . لم يكن يهمه أن تكون ربيته أو ابنته . . إنها شيء سيوجد في البيت كعلاج لعقدة القصر التي تعاني منها زوجته هي التي اختارت لها اسم بشينة ، إنه الاسم الذي كان يمكن أن تسمى به ابنتها لو أنجبت لأنه اسم أمها . . وانتهى توقيع الأوراق . .

وأصرع محمد خارجاً ، وترك زوجته تصحب بشينة إلى البيت دون أن يلتفت إليها . . ولم ير عيني بشينة وهما متعلقتان به تهماه في تعلق عجيب . .



إنه بذكر الأيام الأولى التي أصبحت فيها شينة شيئاً في البيت . . لم يكن يحس بهذا الشيء ، ولم يكن يعتمد أن يعطي شيئاً من الحنان ولا حتى من الاهتمام ، بل إنه لم يعود نفسه تقبلها كطفلة صغيرة إنما كان يكتفي كلما دخل أو خرج من البيت أن يمسح بيده على شعر رأسها مسحة سريعة وهو يبتسم لها نصف ابتسامة . وكان أحياناً يلحظ في لحظات أنها فعلاً طفلة جميلة . . عيناها ، شفاتها ، لون بشرتها ، شعرها . . وأحياناً كان يضحك ضحكة كبيرة عندما تلفت نظره بحركة من حركات الطمولة . . إنه لم يلحظ أبدأ تسعها له كلما كان في البيت . . إنها تسير وراءه في كل تحركاته ، ويجلس فيجدها جالسة أمامه ، وحتى عندما يخرج من حمام الصباح يجدها واقفة في انتظاره ، لم يكن شيء يبعدها عنه إلا دولت لتأخذها وتؤدي لها ما تتطلبه طموحتها . . ولم يلحظ أيضاً أنها كانت تكرر كثيراً كلمة « بابا » كأنها الكلمة الصالحة التي كانت تبحث عنها . . بابا ، بابا ، بابا . . وكانت في البداية تنطقها في حياء وتردد ثم أصبحت تنطقها وترددها بكل إحساس كأنها تزغرد بها . . كأنها الكلمة التي تثبت بها شخصيتها وتستكمل بها كل وجودها . . لم يكن يلحظ أو يحس بأى شيء تجاه بشينة أو « بوبى » وهو اسم التذليل الذي اختارته لها دولت ، كل ما كان يحس به معها أنها تحفة جميلة اشتراها هدية لزوجه كباق التحف التي تملأ البيت ، وإن كان يحس بهذه التحفة أكثر لأنها شملت زوجته عنه وأراسته من عقدتها .

وقد كانت العلاقة بينه وبين زوجته دولت تأخذ مع الزمن في التناقص .
تباعد في إحساسه بها كأمراة . . بدأ يشعر بفارق السن بينهما . . إنها أكبر منه
بثلاث سنوات . . وبدأ يشعر كلما هم أن يحتضنها في الفراش أنه يؤدي واجبا
مضروفاً عليه . . واحياً أصبح ثقيلاً ليس فيه إغراء كأنه ينفذ أوامر الطبيب . .
وبدأ ييهما ما يمكن أن ينتى إلى ما يسمى الانفصال الجسدى . . ولم تكن
دولت تحاول أن تصد هذا الانفصال بل كانت مستسلمة له كأن بثينة قد
أغتها عما كانت تريد من محمد . . أو ربما كان التحليل النفسى يصل إلى
حد تصور أن دولت لم تحب محمد منذ البداية إلا بعريضة وإحساس الأمومة
التي لم تستطع أن تصل إليها بالإيجاب . . وربما كان هذا هو سر عطائها
الكثير له . . كانت تعطيه كأم لا كعشيقة ولا كزوجة . . وقد وجدت في بثينة
ما أشبع فيها عريضة الأمومة فلم تعد في حاجة إلى محمد . . بل إن فرحتها بثينة
دفعها بعد عام واحد إلى أن تفكر في تبنى طفل ثان . . ولد . . حتى يكون عندها
ولد وبنت ، وصرخ محمد في وجهها :

— لا يمكن . . إن بنتاً غريبة تحمل اسمى أرحم من أن بحمله ولد .
ولد لا أدري كيف جاء إلى الدنيا ولا ماذا ورث عن أبيه وأمه . . إن الوراثة
تشمل الشخصية والأخلاق . . فإذا كان أبوه لصاً أو مصاباً أو صعلوكاً فيمكن أن
يرث عن أبيه اللصوصية أو النصب أو الصعلكة ، ويفصحى عندما يكبر ويغرب
يقى . . لا . . لا يمكن . .

وردت عليه دولت بهدوئها الناعم :

— ليست الوراثة التي تحدد الشخصية والأخلاق . . إنها البيئة . . تقاليد
البيئة واحتياجات البيئة . . إنهم يقولون أن لا أحد يسرق إلا إذا كان في حاجة

إلى السرقة . . ونحس في بيتنا . . في بيتنا لا يمكن أن يشأ لص أو صعلوك . .
وعاد يصرخ في وجهها :
— اسمعى . . إني لن أعطى اسمى ولن يدخل بيتى طفل آخر . . غاشمة . .
ويكفينا بوسى . .

ولم تلح عليه كثيراً فقد كانت بثينة تكفيها صلاً وتمنياعن كل ما كانت
تشر به من نقص ، بل إنها أيضاً تغنيها عن الإحساس بهذا الانفصال الجسدى
الذى بدأ يدب بينها وبين زوجها . .

وكان محمد قد بدأ يسافر كثيراً إلى الخارج . . وربما أكثر من نصف العام
يقضيه في الخارج وهو ما كان يفرضه عليه عمله ومشروعاته الواسعة . . وأيضاً لأنه كان
يجد في الخارج حرية ممارسة حياة خاصة تتواءم عن إحساسه بالانفصال الجسدى
بينه وبين زوجته . . مجرد نساء غابات لم تستطع واحدة منهن أن يكون لها
تأثير له قيمة في تغيير استمرار حياته مع دولت . . وربما كانت هذه العيبة
الطويلة في الخارج هي السبب في أنه لم يعود أو لم يكتب إحساس الأب
بحو بثينة . . وهناك فرق بين الأمومة بالأبوة ، فالأمومة غريزة أما الأبوة فاكسساب .
أى أن الأم تحب وليدها قبل أن تنجبه ، أما الأب فإنه في حاجة إلى وقت يمر
بعد أن يولد ابنه حتى يكتسب ويستكمل الإحساس بالأبوة . . وهو في حاجة
إلى وقت أطول إذا كانت ابنة متبناة كبثينة . . وكان يسافر إلى الخارج وينساها . .
وكان لا شيء يذكرها بها إلا أن يراها بعينيته . . وكان يعود من الخارج حاملاً هدية
إلى دولت وينسى أن يحمل شيئاً لبثينة . . ونصرخ دولت في وجهه وبجري لتشتري
شيئاً أو تخرج من دولابها شيئاً لتقدمه إلى بثينة كأنها هدية من محمد اشتراها لها
من الخارج . . ولكن بثينة نفسها لم تكن تحس بأنه نسيها . . كانت فرحتها

بعودته تغطي كل شيء ، وتعود تتبعه وتلتصق به في كل تحركاته وتمتلئ الحنجرة
لتردد : بابا .. بابا .. بابا ..

وبشينة تكبر ..

ومحمد يكبر ..

وبدا إحساس محمد بشئته يتطور تطوراً عجيبياً .. إنه كلما عاد من الخارج
والثقى بها أحس كأنه يراها لأول مرة . جسدها ينمو في روعة .. عنقها ،
لديها ، قوامها ، رفاها ، ساقها .. جمال يتناسق ويستكمل كل عناصره
كأن الفنان الأكبر قد تفرغ ليرسم هدية له .. ونظرتها تبدأ في عينيها .. ويلقى
بهاتين العينين فيحس فيها نداء عجيبياً .. إنها تنظر إليه كأنها معجبة به ..
كأنها تتمناه .. أو هكذا يجيل إليه .. ثم أنها لم تعد تردد كلمة بابا كثيراً ..
وأصبحت ملاحظتها له داخل البيت ملاحظة عاقلة كأنها أكبر من سنها .. فقد
توجد في البيت وهي واثقة أنه هو الذي سيبحث عنها ..

ولم يعد ينساها عندما يسافر إلى الخارج ، بل بدأ يحس أن يختصر في
رحلته ليعود إلى البيت .. لم يكن يصارع نفسه بأنه يعود لأن بشئته أوحشته .
إن البيت هو الذي أوحشته . البيت ودولت وبشئته .. رعا وصل إلى السن التي
يستسلم فيها الرجل إلى وحشة البيت .. هكذا كان يقول لنفسه . ولم يعد يتسنى
هديتها .. الواقع أن هديتها أصبحت تأخذ من اهتمامه أكثر مما تأخذ هدية
دولت ..

وبشئته وصلت إلى الرابعة عشرة من عمرها ..

وهو في الأربعين ..

وبدا يستسلم لأحاسيس كثيرة تجذبه إليها .. لاشت أناس أحاسيس الأبوة .

بدأ بعد وقت طويل يصبح أباً .. لا ، إنه يخدع نفسه .. إنه لا يزال يحس بأنها
فتاة جميلة .. ويحد حرجاً كبيراً إذا سقطت حينها على ساقها ، أو إذا ركر نظرتها
على شفتيها . وحدث أن دخل الغرفة مرة فوجدتها شبه عارية مع دولت تقفز
بسرعة كأنه ارتكب فضيحة ، كأنه اعتدى عليها . لا يمكن أن يكون هذا هو
إحساس أب .. لا يمكن أن يحس أب بسيفان ابنته أو بحسدها كله كما يحس
بجسد فتاة غريبة .. لا .. قد تكون بشئته ابنة دولت ولكنها ليست ابنته ..
وبشئته في السابعة عشرة .

وهو في الثالثة والأربعين ..

إنه يجد فيها نواحي جديدة .. إنها تقرأ كثيراً وتستطيع أن تجلس إليه ساعات
طويلة تحكي له عما قرأته .. صحيح أن معظم قراءاتها في القصص ، والتاريخ ،
والفن ، وأكثر المجالات التي يجذبها هي المجالات التي تنشر أخبار الفنانين
والفنانات ، وهو لم يكن يهتم يوماً بالأدب ولا بالفن ، ولكنه يحس وهي تروي له
كأنه ينتقل إلى عالم حديد مثير مثل ، بل إنه كان أحياناً يروي لها بعض مشاكل
عالمه .. عالم رجال الأعمال .. فتبدى له آراء تدشده كأن لها ذكاء بنات الأعمال .
ودون أن يعتمد بدأ نظام حياته يتغير .. بدأ يقضي ليالي كثيرة في البيت جالساً
في غرفة مكتبه المخصصة له ومعها دولت وبشئته ، والرايو والتليفزيون ، وزجاجة
الويسكي الذي تعود أن يشرب منه كل مساء دون إفراط ، وكانت السهرة تنحصر
عادة في مناقشة تثيرها بشئته ، أو في قصة ترونها ، أو في رقصة تقوم بعرضها عليهما
لنظنهما على آخر تطورات الرقص .. وهو سعيد .. مرح .. يضحك ويناقش ..
وأحياناً يحتد .. ودائماً يعتمد الحلوى من أن يركز عينيها على ساق بشئته ،
و على صدرها . أو على عنقها .. لقد أصبح أصعب عليه أن يتصل أحاسيس الأب

وبما في صعوبة أكبر إذا تركته دولت وحده معها . وفي مرات كثيرة كانت دولت تعلن أنها ستتركهما لتنام فيلحق بها محمد فوراً . (خديجي معالي) .
لا لأنه يريد أن ينام ولكن لأنه يخاف نفسه . يخاف هذه الأحاسيس التي تعصف به .

وهي . . بثينة . . إنها تعتمد أن تبنى بجانبه كلما كان في البيت وتعتمد أن تنصق به كلما صحبتها هي ودولت إلى دعوة أو إلى سيرة في الخارج .
وتضع ذراعها في ذراعه كأنها تتباهى به وتنسب إلى نفسها . وفي كل مناسبة تقول كلاماً كأنها تمحرضه على نفسها :

— تعرف صاحبي ميرفت . . ستعجب عليك . . تقول إنك أجمل وأرق رجل وإني ستحاول أن أعطفك من ماما دولت . .
إنها صغيرة مجنونة . .

— ليست صغيرة ولا مجنونة إنها في سن وفي عقل .

وأحياناً تمد يدها وتلمع في شعره الأبيض وتصبح ضاحكة :

— شعرك يا بابا . . يهوسي

إنه شعر عجوز . . سأصيفه أسود حتى أسترده شابي

— إياك . . أنتحر لو صيفته . .

وقد كانت تردد إعجابها بشعره الأبيض إلى حد أنه كان يهددها ضاحكاً :

« انتي حانسكي والا أقوم أصبغ شعري أسود » . .

وقد كان دائماً واقفاً بنفسه كرجل يجذب ويشد النساء ولكن بجواره كلها كانت مع نساء من نفس حيله لم يجرب البنات المراهقات . . ربما وصل إلى السن التي بقل إن الرجل فيها يصبح مراهقاً عجوزاً . من الأربعين .

وتشد إحساسه البنات المراهقات الصغيرات . . وربما كان صحيحاً أن لبث في سن المراهقة بضع من أكثر أمام الشعر الأبيض أمام سن الأربعين . . لكنه . . إن أول حب في حياة البنت هو حب الأب وعادة يقلقها هذا الحب إلى مجربتها الأول مع رجل في سن أبيها . .

وحدث أن دعي إلى حفلة ساهرة في فندق هيلتون مع زوجته وابنتي . . أي نية . . وليلتها شرب كثيراً من كؤوس الويسكي . ثم قام مفاجأة وشد بثينة من يدها وجدها إلى حلة الرقص ليراقصها . . كانت رقصة هادئة . . سلووكس . . وقد بدأ يراقصها وهو يتكلم كثيراً ويضحك كثيراً . ولكن بعد بضعة خطوات

قصة تركز إحساسه كله على صدرها الذي يلاصق صدره . وأصابعه المحلقة على طهرها . ساقيه الملتصقتين ساقها . . ولم يستطع مع ثقل كؤوس الويسكي التي شربها أن يقاوم وكف عن الكلام وعن الفسحك . . وضغطها إليه بكل ذراعه . . ولصق شفتيه فوق عنقها . . وتحركت فيه كل عناصر رجولته . . وهي

بـ مستسلمة . إنها تضغط نفسها هي الأخرى إليه وتزداد التصاقاً به . وتعتمد ن تضع ساقها بحيث تطلق بينها ساقه . وكلاهما محتئ في زحام الراقصين .

وسكنت الموسيقى .

وأفاق . .

أفاق من كل شيء . .

أفاق حتى من كؤوس الويسكي التي كانت تملأ رأسه . .

ونظر إليها في دهشة كأنه لا يصدق ما حدث ثم أسرع مبتعداً عن حلبة رقص وهي تجري خلفه . وجلس إلى المائدة وصب لنفسه كأساً ثقيلة وأخذ يشرب

فيها دون أن ينظر إلى بشينة . ثم قام مستأذاً وخرج بزوجته وابنته بشينة . . وركب
سيارته عائداً إلى بيته ، ودولت تسأله :

- هل أنت مصب ؟

.. لا . .

- إنك لست طبيعياً . .

- ربما أنقلت من الويسكى . .

ولم يحاول أن ينظر إلى بشينة حتى عندما هم أن يدخل إلى غرفة نومه ،
ولكن بشينة جوت وراءه صائحة :

- تصبح على خير يا بابا . .

ثم انحنى وقبلته فوق خده . .

ولم يرفع عينيه إليها ولم يرد تحيتها . .

وذهب إلى مكتبه في الصباح وقد تمتد ألا يلتقي بشينة أو يقبلها كما تعود قبل
خروجه واكتفى بأن قبل زوجته في المساء أعلى أنه سيخرج من البيت وحده ولكنه قبل أن
يخرج جلس في غرفة مكتبه وحده مدة طويلة ثم نادى بشينة وجاءته ووقع عينيه إليها بعد
أن تجاهلها طول هذه الفترة ، وراها كأنها ازدادت نضارة وإبتسامتها أكثر حيوية وشباباً .
وتخيل إليه أنها هالمة في إحساس حديد ، وقال وهو يحاول جهده أن يسلو هادئاً

- أنا آسف لما حدث ليلة أمس . .

وقالت في برادة :

- ماذا حدث ؟

- أقصد عندما نسيت نفسي وأنا أراقبك .

- إنك لم تنس نفسك . .

لم أكن طبيعياً . . كنت قد شربت أكثر مما يجب . .

- كنت طبيعياً جداً . .

ونظر إليها في دهشة كأنه لا يصدق أنها لم تحس بكل ما جرى وهو يراقبها .
واقتربت منه أكثر وقالت :

- صدقني . . لقد كنت طبيعياً وأنا أيضاً كنت طبيعية .

ثم انحنى لتقبل خده وجرت من أمامه . .

وتركته حائراً . .

ماذا تقصد . . هل ما جرى يمكن أن يكون طبيعياً بين أب وابنته .

لم تقصد أنه طبيعي بين رجل وامرأة . . أم لم تخص فعلاً بما جرى . .

وفي اليوم التالي قال إنه مسافر إلى الإسكندرية ، وقالت بشينة بسرعة وفرحة :

- خذني معك . .

وصرخ في حدة :

- لا . . إلى ذاهب في عمل . .

ومالت بشينة على فمها وترجوها :

- والى ياماما . . دعيه يأخذني معه . . إلى لم أرى الإسكندرية منذ الصيف .

ريد أن أطمئن على الكابينة وبيتنا هناك . وأقابل صديقي نحية . وغداً

حارة . .

وقالت دولت في إلحاح :

- محمد .. دع يوسف تسافر معك .. إن من حقها أن تقضى يوماً بعيداً عن البيت ..

لم ضحكك دولت قائلا :

٩ - أتعهد لك بأنها ستترك لك حريتك .. يوسف .. احبني أنك لن تصيبني بطلبائك ..

وقالت بثينة في دلال :

- أنا ناضابك يا بابا ؟

وكان الإلحاح عليه كأنه إغراء له ، وضعف أمام الإغراء . وأخذها معه .

وفي طريق الإسكندرية كان يقود السيارة وهو يحاول أن يبقى صامتاً وأن

يكتفي بالنظر أمامه ، ولكن بثينة لا تكف عن الكلام . تروي له قصصاً قرأتها

وقصصاً سمعتها ، وأخبار العنانات والفنابير ، وأخبار صديقاتها في الحاممة والنادى .

ثم تدبر راديو السيارة وتهتز على الأنغام وتغنى .. وهو يحاول أن يقاوم . ويكسر

مقاومته تحف .. وتحف أكثر إلى أن نسي ما جرى وبدأ يملأ عينيه منها ويضحك

لضحكاتها ويغنى معها ..

ووصلوا الإسكندرية في المساء .. ووقف في فندق فلسطين يسجل اسمه

واسمها .. محمد عبد الله وابنته بثينة محمد عبد الله .. وقال لموظف الفندق :

نريد حجرتين من فضلك ..

وصرخت وهي بجانبه :

- يا خير يا بابا .. إلى أخاف موت إذا نمت في حجرة وحدي .. من أجل

خاطري يا بابا لا تتركني وحدي ..

ولم يستطع أن يجادلها طويلاً أمام موظف الفندق ..

وجمعتهما غرفة واحدة

وعندما بدأت تخلخ ثيابها وتنس ثوب النوم احتار أين يهرب بعينه ، ثم

قال بحدة :

- بللى ثيابك في الحمام ..

وقالت في دهشة :

- لماذا ؟

ولم يرد عليها ولكنه جمع ثياب نومه قائلاً :

- أنا سأدخل الحمام .

وبدل ثيابه بعيداً عنها بينما فتحت بثينة الراديو الذي تحمله على ثغمات

راقصة ، وعندما خرج من الحمام وحدها في قميص النوم .. وقد تعود أن يراها

في ثياب النوم ولكنه أحس أنه لم يرها أنداء عارية كما يراها في هذا القميص .

وقالت وهي تهتز راقصة على ثغمات الراديو :

- طليت لك الويسكى ..

وهو حائر أين يضع عينيه منها .. وجاء الويسكى ، وأخذ يشرب كأنه

يهرب بنفسه داخل الكوب ، أو كأنه يلقى نفسه في بحر الويسكى ليتحرر

ثم شدته من يده قائلة :

- قم راقصى ..

٩ - لا تكوني مجنونة ..

- من أجل خاطري .. لا تحرقني قبل أن أنام ..

وقام يراقصها بجانب الفراش .. وحاول أن يحتفظ بها بعيدة عن جسده .

وقالت ضاحكة :

- لا .. كما راقصنى آخر مرة ..

وألقت بنفسها فوق صدره .. وأحس بشديها . وساقها . وظهرها العارى
وضيها بكل ذراعه كأنه يريد أن يدخلها بين صلوعه .. وتحركت كل حيوية
رجولته .. ثم دفعها عنه بقسوة حتى وقعت فوق السرير ، وقال وأنفاسه تتهدج
- إذا كنت مجنونة فلن أجن معك .

وابتعد وجلس على المقعد المواجه للسرير .. يحاول أن يشعل سيجارة
وقامت من رقدتها واقتربت منه ولقى عينيها نظرات جادة كأنها على وشك أن تصدر
حكماً نهائياً وقالت فى صوت حاسم كأنها قررت أن تتحرر من كل حذاء
ومن كل خجل :

- اسمع .. أنت لست أبى .. خذنى كما أنا .. وأنا لست ابتك .
ونظر إليها بعينين ثائرتين خطيرتين كأنه قرر أن يتنى من كل شيء .
يتنى من هذه المقاومة التى أنهكته خلال سنوات . ويتنى من هذا الصياح
بين ابنة وعشيقه فى جسد واحد ، وأب ورجل يتصارعان داخل جسد آخر
وشدها إليه وقضى على شفتيها بشفتيه ، وأصابعه تمزق عنها قميص النوم ، ثم قام
وحملها عارية وألقى بها وألقى نفسه معها .
وحدث كل شيء .



قالت له إنها هى أيضاً حاولت العمر كله أن تحس به كأنه كان
هناك دائماً إحساس يعلب إحساسها بأثوته .. رما منذ اليوم الأول الذى وعته فيه وهى
لا تستطيع أن تنمى كتاب . كان إسماً بطلاً حيالها وحلامها ولا يمثل واقعها
إنها تستطيع أن تتحلى بطلاً للقصاص التى تقرأها ولأفلام التى تشاهدها وتحلم به
كمستقبل وهى .. كأن يحبها ويحفظها على حصان ، ولكنها لم تكن تحس به
كواقع . والإحساس بالألم هو الإحساس بالواقع . وهو لم يكن أبداً واقعاً .
كان خيلاً وحلماً . وكما تقدم به العمر اقترب بها حيالها وحلامها من الحب .
أصبحت تريد . تشبه . وتتمنى أن تتباهى به أمام صديقاتها كرجل لا كاتيبا .
إنها تعلم أنه ليس أياها ولم يكن يجلى الإحشاء عنها فقد خرجت من الملجأ
وهى فى الرابعة وهو عمر يستطيع أن يحفظ الدكريت . ولأنها تعلم فقد كان
يجب عليها أن الناس كلها تعلم . وأنها تعيش فى كذبة مستمرة ، ويجعل إليها أن كل
من يقرأ اسمها منسوب إليه يصيح .. كذابة .. وهى تتمنى أن تجعل هذه الكذبة
بلى حقيقة .. والحقيقة لوحيدة التى تستطيع أن تصل إليها هى أن تكون حبيته
لاسته . وكانت تعلم أن لا أمر . كانت تحاول أن تياأس بل إنها حاولت
أن تحب حباً يشعلها عنه . تحب شيئاً من الجامعة أو من لنادى يحملها إلى
المستوى الطبيعى للحياة . ولكنها لا تستطيع أن تياأس . وعندما تقدم به العمر
كثير دأبت تكتشف أنه هو الآخر يقاوم .. هو الآخر لا يحس بها كأنه
بل كمائة يريد . وكانت تحس بكل ما يعانيه وتكتشف كل الكذبات التى

بضحكها على نفسه . بدأت تشجعه . إنها تتعرف له بأنها كانت تشجعه .
تحاول أن تسهل له الطريق إليها . . إلى أن التقي كما تخيلا أن يلتقيا . .
ولم يكن كلامها يكفي ليخلصه مما يعانيه من حيرة في الحكم على نفسه
هل هي من حقه أم أنه اعتدى عليها بعد أن إثمته المجتمع عليها ، وسجل في
أوراق رسمية أنها ابنته . . وكان يستريح مما يعانيه عندما يلتقي بها وحدهما
إبه ينتقل معها إلى الحب كله . إنه يجها برغم فارق السن . . يحب حباً أوسع
بكثير من مجرد الاحتياج الجنسي . . أصبح يحب شخصيتها وعقلها . . بل
أصبح يمثل المستقبل كله معها . ولكنه ما يكاد يتركها حتى تعود إليه الحيرة
والثائب ، والخوف . . والإحساس بالحيرة والكذب . . إنها ابنته كيف أباح
لنفسه كل هذا مع ابنته . .
ولكن دولت . .

لا يدري . . إنه أيضاً لا يستطيع أن يعيش بلا دولت . . كلتاها لا تضييه
عن الأخرى . . كل منهما تكمل ما ينقصه من الأخرى . . كل منهما لها من
أحاسيس حب مختلف عن أحاسيسه بالأخرى . .
وبعد ما حدث في الإسكندرية كف عن المقاومة ، وسسلم لحيه لشيبة
مع كل المعاناة التي يعيش فيها وكما يحرم أمام دولت في البيت على تأكيد
أن لا شيء حد عبيها . وربما أصبحا يتابعان أحدهما عن الآخر أكثر وهما
في البيت ، ويقال هو من سهرات المساء التي كانت يجتمع مع الاثنين في
غرفة مكتبة ربما لأنه أصبح يتعذب وهو يرى شيبة أمامه وهو محروم من الانطلاق
معهما وإليها . . وكان يلتقي بشيبة لقاءهما الخاص في شقته التي استأجرها منذ
سنوات وتخصصها لحياته الخاصة . ثم تعود إلى البيت ويعود بعدها وهما

واقنان أن أحداً لا يلاحظ عليهما شيئاً أو بدأ يشك في أمرهما . .
ولكن محمداً بدأ يلتقط لمحات جديدة من على وجه دولت . . لقد عاش
معهما العمر كله ويستطيع أن يلتقط أي لغة جديدة . . إنها لغة في نظره عجيبة
تصبحها ابتسامة . . كأنها اكتشفت السر . . ورغم ذلك فهي لا تقول شيئاً
وتبالغ أكثر مما عودته في تدليله وفي تدليل بشي . .
ربما لم تكتشف شيئاً .

إلى أن كان يوم . . وكان في لقائه الحاص مع بشيبة عندما قالت له ضاحكة
ضحكتها الحلوة ؟ .

- هل أقول أو لا أقول ؟ .

- تقولين ماذا ؟

- أخبريني أولاً . . هل أقول أو لا أقول ؟

- قولي . .

- إذا أنت الذي تأمرني بأن أقول . . لست أنا التي قررت القول . .

- يا ستي قولي . . تكلمي . .

- عدلي أولاً أن تقبلني بعد أن تسمحني . . أو الأفضل أن تقبلني الآن

فلمست واثقة من وقع الخير عليك .

وقبلها قبلة سريعة وأمسك بها من ذراعيها كأنه ينوي أن يهزها وينخلها

حتى يسقط منها السر . . وصاح

- تكلمي . .

- إلى حامل . .

واتسعت عيناه من الدهشة ثم تحولت الدهشة إلى ألم كأنه طعنة وقال :

- ولكنك كنت حريصة دائماً ..
- لا لم أكن حريصة .. كنت أتعهد أن أحمل منك ..

- لماذا يا مجنونة ؟
- لأعطيك ما أخذته منك .. لقد أخذت منك ابنتك التي كانت أنا
فأردت أن أعطيك ابنة أخرى .. أو على الأصح أريد أن أعطيك شيئاً لم تعطك
إياه امرأة أخرى .. أن أجعل منك شيئاً لم تكنه وهو أن تكون أنا .

وصرخ :
- من قال لك أني أريد أن أكون أنا .. سندهين فوراً إلى طبيب لإسقاطك .
- لا يمكن ..
- كيف .. ماذا تعنين ؟

- إني الآن في الشهر السادس .. وطبعتي تساعدني على إخفاء حمل .
ولا يمكن الآن إجراء أى عملية .. إني متأكدة سألت الطبيب ..
- ستة أشهر .. كاذبة .. لا يمكن أن تعيشي سنا ستة أشهر وأنت حامل
وأنا لا أدري .. ثم دولت ؟

- إنك لا تدري ماذا كنت أفعل حتى أغرق كل شيء عن ماما دولت ..
- وماذا تصوري أن يكون مصير هذا الطفل ؟
- مصيره هو نفس المصير الذي عشته .. أتركه للملجأ .. ثم نذهب مع
ماما دولت ونبتاه .

- كيف يكون ابني وأتركه للملجأ ..
- كل من في الملاجئ لهم آباء .. وهم غالباً أغنياء .. لأن حياة
الفقراء لا تتسع لأولاد المحرام .. أمي لاشك كانت من عائلة كبيرة ولا لما خشيت

الفضيحة وكذلك أمي .. لو كانا نغيرين لتزوجا حتى لو كان أبي متزوجاً
عشر زوجات أو لقتلوا بدلاً من أن يضعوني في ملجأ ..
وقال لي سخط :

- إنك لا تسين أصلك ..
- أصل هو الذي أوصلني إلى أجمل وأحل ما في الدنيا .. إليث .
ونظر إليها كأنه يحتار عن إسقاطه وقال :

- بومي .. أرجوك .. دعيتا تفكر في هدوء .. لنبدأ أولاً باستشارة طبيب
أعرفه .
- لا أمل .

- سأخذك ونذهب إلى لندن ونحاول إجراء العملية هناك .
== لا يمكن ..

- لماذا ؟
- لأنني أريد .. أريد ابناً منك وأريدك أباً لابني .. أتمنى أن تكون بنتاً ..
ماذا نسحب يا محمد .

وصرخ بأعلى صوته :
- لا تشعري بي إلى هذا الحد .. قدرتي أني لم أخرج من ملجأ ولا أريد
لابني أن يخرج من ملجأ .. إني منذ وجدتكم وأنا أعيش في فضيحة مستمرة
لا أريد أن أجنى على طفل لا ذنب له بفضيحة أكبر .

ونظرت إليه في هدوء وقالت :
- محمد .. هل تحبني .. قل لي بصراحة .. إذا لم تكن تحبني فسأخرج
من هنا أنا ويطفي ولن ترى أى مشكلة في حياتك ولن تراهي ..

ونظر إليها طويلاً ، ثم أسقط رأسه بين كفيه كأنه يهم باليكاء ، وهمس :
 - أحبك .. لن تكون لك مشكلة وحلك أبداً .. فقط أتركني أفكر ..
 وتركته وعادت إلى البيت .. وسأول هو أن يجد حلاً .. ليس هناك حل إلا أن
 يترجها .. ولكنه لا يستطيع ليس من حقه .. إن عقد التني يجعل لها كل أوضاع
 الآلة ولا يستطيع قانوناً أن يترجها .. ياليت اكتفى أن يكفلها كما عرضوا عليه
 في المنجأ .. ولكن دولت أصرت على أن تتناها .. دولت .. كيف يترجها
 والناس كلها تعلم أنها ابنة دولة حتى لو أجاز القانون رواجها .. ومادام
 يكون رأى دولت ؟ أن رأى دولت هو الأهم .. وقام في عصبية مجنونة وذهب إلى
 البيت ودخل وهو بصرخ .. دولت .. دولت .. ودولت تهرع إليه في هلع ،
 وبشينة تخرج إليه من غرفتها فيصرخ فيها :
 - دعينا وحدنا ..

ويأخذ دولت إلى غرفتهما ويفلق وراءهما الباب ويلقى نفسه على مقعد ويتكلم
 بين أنفاسه المتهددة :

- سأرى لك كل شيء .. وأرجوك أن تحتمل .. إني أحبك ولولا حبك
 لما اضطرت أن أقول لك كل شيء .. ولا أستطيع أن أعيش بغيرك وإلا لما كانت
 هناك مشكلة .. انتهى ..

وابتسمت دولت في هدوء وحنان وقالت :

- انتظر ثانية واحدة ..

ثم قامت في عجلة وتخرجت من الغرفة وعادت بعد لحظة تحمل كوباً من
 شراب البرتقال :

- لا تتكلم قبل أن تشرب هذا الكوب .. واجلس مستريحاً .. أرج

ظهرك على مسند المقعد ..

وشرب العصير وأراح ظهره وهذا فعلاً .. وبدأ يروي القصة كلها .. من
 يوم أن تبنا بشينة إلى أن حملت منه .. وكانت دولت هادئة طول القصة لم
 تنفل ولم تقاطعه .. وكان هو الذي يقطع الكلام وينظر إليها في دهشة ويقول :
 - هل كنت تصورين أن يحدث هذا ؟ ..

وترد عليه بهدوء :

- أكمل الحكاية .. وبعد هذا ستعرف ما كنت أتصوره ..

وأنتم الحكاية .. وصل إلى أن اعترف لها بأن بشينة حامل منه .. ورغم ذلك
 لم تصاح ، ولم تصرخ ، ولم تثر ، ولكنها .. بدأت تتكلم في هدوء ..

- إني أعرف كل شيء .. وقد كنت فرحة عندما بدأت بوسى تجذرك إلى
 قضاء السيرة في البيت .. كنت أعرف أني أصبحت بالسبة لك مجرد إحساس
 بالوفاء والعشرة والمشاركة في الناء والاعتماد ، وكل ذلك ليس فيه إغراء لرحل
 في عز رجولته .. ولذلك فرحت بأن بوسى أصبحت هي الإغراء الذي يزيد
 من ارتباطك بالبيت ، وفي .. وكنت أحس بمدى المعاناة التي تبذلها حتى توقف
 هذا الإغراء عند حد معين .. ولكنك لم تستطع أن تستمر في المقاومة التي تسب
 لك هذه المعاناة .. وعاشرتها .. وأستطيع أن أؤكد لك متى بدأت .. إنها
 ليلة أن سمحت لها بالسفر معك إلى الإسكندرية .. كنت أعلم أنك ستجدي
 معها ولكني لم أكن أقدر أنك ستجدي إلى هذا الحد .. كنت أعتقد أنها ستبقى
 عذراء .. ولكني عرفت أنها لم تعد .. إن المسكينة تحاول دائماً أن تخفي عنى
 ولكنها لا تدرى أني صنعت كل قطعة منها بيدي حتى أصبح من السهل على
 أن أكتشف كل ما يرم بها .. وقد قاسيت أيامها .. إن انتي لم تعد عذراء ..

وزوجى هو المثلث . ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل . إنها تحبك لو كنت قد قاومت حباً فربما أثرت فيها إحساسها بأنها متناة وليست ابنتى . . . وتصورت أنى اضطهدتها أو أغار منها فتهرب منى . . . وأنت أيضاً تحبها ولو أثرت مشادة معك وحاولت أن أحرمك منها ، فربما زاد إحساسك بأنى لم أعد امرأة بالنسبة لك وإنى أحرمك من حقلك فى متعة رجولتك فتثور على وتهجرنى . . . كان كل ما يشغل بالى دائماً هو أن أحفظ بك وبها . . . وماذا يهم ، إنى أعلم أنك كنت تذهب إلى نساء أخريات قبل أن تذهب مع بوسى ، فما الفرق ؟ - بل إنى أحياناً كنت أتصورها كأنها زوجتك الثانية . . . إن حدى كان متزوجاً من أربع نساء يجمعهن الأروع فى بيت واحد . . . لأفترض أنى أعيش فى أيام حدى . . . ثم حصلت منك . . . إلى لم أكتشف فى الشهور الأولى . . . ولم تحاول طبعاً أن تستعين بى . . . وليس صحيحاً أنها احتفظت بالحمل متعددة كما أخبرتك . . . ولكنها اعتمدت على صديقاتها فى إسقاطه . . . ولم يكن لديها ابنة لتذهب إلى طبيب . . . وقد اكتشفت حالتها بعد مدة . . . وربما اضطرت أن تذهب إلى الطبيب بعد أن وصلت إلى حالة اليأس . . . إنها سادحة فى هذه المواضيع النسائية رغم ذكائها المعروف عنها . . .

وقاطعها وهو يستمع إليها فى دهشة :

- المهم . . . ما رأيك . . . ماذا تعمل ؟

وابتسمت كأنها وافقة بأنها أعدت كل شيء :

- أقول لك الحق . . . إنها ابنتى . . . رغم كل شيء إلى أحس بها ابنة لى . . .

ولا أريد لابنتى أن تنجب فى الحرام . . . ويجب أن تتزوجها . . . إنك لست تستطيع أن تتزوجها فى مصر لأن قانون التبنى يمنعك ولكنك تستطيع أن تتزوجها بعيداً

عن مصر . . . تسافر بحر الثلاثة إلى باريس أو إلى عاصمة أخرى وتتزوجها هناك . . .

وقاطعها :

- هل ستتزوجها أنا وأنت . . .

وقالت مبتسمة :

- آسفة . . . أقصد طبعاً أن تتزوجها أنت وبيلى الزواج سرا . . . ثم تضع مولودها هناك . . . وتبقى فى الخارج ستة شهور أو أكثر وتعود وأنا أحمل الطفل على أنى تبنيه من أحد الملاحى هناك ، وكل الناس هنا يعلمون أنى أريد أن أتبنى طفلاً آخر بعد أن كبرت بوسى . . . ومد شهور وأنا أديع بين كل الأصدقاء أنى أريد أن أتبنى مولوداً جديداً بل إن أم عطية الفضالة عرضت على من أيام تبى طفلة أن يجتبا شقيقتها . . . المهم ستعود وأنا أحمل طفلك على أنى تسيته وإن يغير ذلك شيئاً فى واقعته فأمه الحقيقية ستبقى معه وأبوه معه ويحمل اسمه .

أما بالنسبة لى فلا شيء تغير أيضاً ، فقد كنت أتبنى من الملاحى ، والآن يمكن أن أتصور أنه أصبح لى ملجأ خاص . . . وهو بوسى نفسها . . . بوسى أصبحت ملجأى الخاص . . . وحتى يكون أولاد هذا الملجأ أقرب إلى قلبى فأنى أتصور أنى أنا التى كللتك بأنعام لى . . . مجرد عملية تلقيح صاعى بشكل خاص . . . بما أن التلقيح لا يصلح لى فقد حررناه فى بوسى وبجح . . . ومن يدري . . . ربما بعد ستة أو سبعة نفق على إجراء تلقيح آخر وأتلقى من ملجأى الخاص . . . من بطن بوسى . . . طفلاً آخر . . . اعمل حسابك . . . إلى أريده ولداً . . .

وكان يستمع إليها فى دهشة . . . دهشة لا يدري كيف يفسرها . . . ولا كيف

بحكم عليها .. وكيف يحكم على دولت .. إنه لم يكن يتظر منها كل هذا ..
وقال في وجوم :

- إنك نسبت أن تقدرى ألى أحبا .. أنت تحيينا كائنه ولكنى أحبا
كأمرأة .. إلى أحبا فضلاً ..
فألت من خلال اهتمامها المادى :

- ما هو الحب .. إنه العطاء .. وقد أعطتك مالا أستطيع أن أعطيه لك
أعطتك متعة الجسد وقد انفصلت أنا عنك جسدياً منذ سنين .. وما هى تعطيك
الخلف الذى عجزت أن أعطيه لك .. ولهذا لا أغار منها ، بل أحس كأنها
تكمل ما ينقصنى .. لو كنت أعطيتك متعتك كرجل وأنجست لك لما دخلت
بوسى بيقى ولا تركتها تعطيك شيئاً ..

- إذا كان الحب عطاء .. فماذا أعطيا أنا .. ماذا أعطى بوسى ..
- تعطيا كل ما لا تستطيع أن تعطيه لى .. وأنت لا تستطيع أن تمارس
الجنس معى ولا أن تنجب منى ..

- مستحيل .. هذا لا يكفى .. إن الحب ليس صفقة تجارية وليس مجرد
عملية حسابية يقوم بها العقل وحده .. إن الحب عاطفة .. إحساس .. والعاطفة
تعطى أكثر مما يعطى العقل ، أو أن العقل يصح فى خدمة العاطفة ..

- إنك تجبى أنا أيضاً يا محمد .. وهم يقولون أن ليس من حق الإنسان
أن يحب اثنين ولكن هذا كلام فارغ .. فإن من حق الإنسان أن يستكمل
ما تحتاج إليه طبيعته .. ويأخذ من كل واحدة ما ينقصه من الأخرى .. ويجب
أن تعطيا ولكن ليس على حساب ما تعطيه لى ..

- إنك إنسانة محدودة من العاطفة .. ليس لك قلب ولكن لك عقلان ..

عش فى رأسك وعقل فى صدرك .. وأستطيع أن أكتشف الآن أنك منذ اليوم
الأول الذى التقينا فيه وأنت تأخذينى بعقلك .. أعدتني على أمل أن تحمل
وتنجى لأنك لم تنجى من زوجك الأول ولو كنت قد أنجبت منه لما التقينا أبداً ..
ثم بعد أن حربت منى ولم تنجى أيضاً بدأ عقلك الذى ينظم ويحدد احتياجاتك
يقنعك بأن تأخذينى كائناً بالتبى .. إن عواطفك نحوى هى نفس عواطفك
نحو بوسى .. عواطف التبنى التى تكفى بالإحساس بالملكية .. لذلك لم تغار أبداً
على رغم أنك كنت تعلمين بكل ما يجرى فى حياتى الخاصة .. كائى أم ،
لا تغار على ابنها من عشيقاته ومغامراته لأنه سيبقى دائماً ابنها .. ولم تغار من بوسى
والى الآن لا تغار منى بها حتى بعد أن حملت منى ، كل ما يملك هو الحرص
على ملكيتك لى ولما ..

وردت محتدة :

- إنك نظلمنى .. إنى أحبك إلى حد أنى أضحي بما يسعدنى لأحفظ لك
ما يسعدك .. ماذا كنت تريدنى أن أفعل وأنا أحس بحزنى وقصى ..

- كنت أريد أن يكون حبك أقوى من عجزك .. ألا تقبلى أى وضع يمس
حبك .. كنت أريدك أن تغارى دائماً وأن تنورى على .. أن تحفظى باحترام
حبك كاملاً حتى لو ضحيته بى .. كنت تستطيعين أن تنقذينى من حب بوسى ،
وتنقذينى بوسى من حبها لى منذ بدأت تلاحظين ضعف كل منا نحو الآخر ..
ولكنك لم تحاولى .. لأنك ضابطة ملكيتك لنا نحن الاثنين ..

- ماذا كنت تنتظر منى ؟

- لا أدرى .. إن كل ما يهمنى الآن هو مستقبل بوسى .. إن الحب عطاء
كما تقولين ، والعطاء الذى تحتاج إليه بوسى الآن هو أن تواجه المجتمع بصراحة

وَأَنْ يَكُونَ مَوْلُودَهَا لَهَا وَتَتَأَمَّى بِهِ أَعْمَامُ النَّاسِ لَا أُرِيدُ أَنْ أَظْلِمَهَا وَأَظْلِمَ ابْنِي
مَعَهَا .. كَيْفَ .. كَيْفَ .. لَا أَدْرِي .

وَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَوَدَّتْ يَدَهَا تَرَبُّثَ عَلَى كَتِفِهِ وَتَمَسَّحَ بِأَصَابِعِهَا عَلَى شَعْرِه
الْأَبْيَضِ ۖ وَقَالَتْ يَا حَنَّانُ :
دَعْنِي أَفَكِّرَ لَكَ .. أَطْمَئِنُّ .. كُلُّ شَيْءٍ لَهُ حَلٌّ ..

❖ إِنَّهُ يَرَى بِأَذْنِيهِ ❖

إن محمود شخصية معروفة مشهورة . . إنه مشهور شهرة التابعي بائع الفول ،
أو شهرة حامد محمود بائع الأحذية ، أو بنترومي بائع قطع الأثاث ، أو فلاملة
بائعة الطعمية ، أو الشوريجي بائع الملابس الداخلية ، أو شهرة زكي السماك . .
شهرة البائع المتخصص العنان الذي يستطيع أن يخدم الزبون حتى يكسبه ويحفظ
به . . ويستطيع أن يجمل من كل زبون طعماً يرميه في السوق ليصطاد به عشرة
زبائن آخرين . .

ومحمود متخصص في بيع الكأس . .

إنه بارمان . . أو ساق ، بلغة قاموس مختار الصحاح . .

وهو لم يرث هذا التخصص عن أحد من عائلته ، ولم تدفعه إليه هوايته
للكأس . فهو إلى الآن وبعد أن أصبح أشهر « بارمان » في مصر ، لا يشرب
الحمر إنما فقط يدوقها بطرف لسانه كلما أراد أن يتأكد من سلامة زجاجة منها ،
أو كلما أرد أن يختبر تركيباً جديداً من تراكيب كؤوس الكوكيتيل
التي تضم خليطاً من أنواع الحمر . . وند أن كان في بلدته كفر نعيمه مركز
طلحاً وهو يتخيل مستقبله مختلف الصور . . يتخيل نفسه ضابط بوليس ،
أو طبيباً ، أو مدرساً ، أو زعيماً سياسياً ، ولم يخطر على باله أبداً أن يتصور نفسه

ساقيا يقدم الخمر، ولم تكن كل دنيا خياله تسع لمجرد أن يرى نفسه فيها واقفاً في حانة
وحصل على الشهادة الابتدائية ثم بدأ رحلة كل يوم إلى السندر ليعمل
إلى المدرسة الثانوية . . ولا تزال أحلامه تصور له مستقبله كما كان يراه منذ
كان طفلاً . . ضابطاً . . طبيباً . . مدرساً . . زعيماً . . إلى أن وجد نفسه
يعيش المشكلة العادية التي عمر ملايين العائلات . . مات الوالد ولم يترك شيئاً
سوى أم وحيدة أخوة ومعاش قيمته خمسمائة وثمانون قرشاً في الشهر . . تسلم
منه العائلة خمسمائة قرش فقط والباقي يذهب إلى الدولة مثله في شخص الصراف .
وأصبح مضطراً أن يعمل ويكسب ثمن وجوده بعرق جبينه ، وكان له قريب لأمه
يعمل جرسوناً في فندق كبير من فنادق القاهرة ، فذهب إليه لا ليعمل معه في نفس
الفندق إنما ليجتهد له عن أي عمل في القاهرة التي كانت تمثل له ولكل أهل
قريته غاية في الجنة يكفي أن تمد يدك لأي شجرة منها لتقطف ما تشاء . .
وهو يريد أن يقطف عملاً يكمل له أن يستمر في الحياة إلى أن يصبح ضابطاً
أو طبيباً أو مدرساً أو زعيماً . . وكل ما كان يتنامى في هذا العمل ألا يستغرق كل
يومه حتى يترك له الفرصة ليستمر في دراسة الثانوية . .

ولكن قريبه أخذه معه في نفس العمل . . ووجد نفسه مفرجياً صغيراً .
أو مساعد سرجي . . ووجد نفسه يدمج بسرعة في هذا العالم الجديد . . ولعله
اكتشف نفسه أو اكتشف مواهبه . . وأخذ يفهم كل شيء بسرعة عجيبة ،
ويحفظ أسماء المأكولات والأدوات بسرعة أكبر ، ثم بدأ يفهم الزبائن .
إن أهم شيء في المهنة هو أن تفهم الزبون ، فكل زبون له عقلية خاصة ومزاج
خاص وبم حاص من نعمات الأوتار العصبية ، ولا يكفي أن تقدم لزبون ما يطلبه ،
بل المهم هو الأسلوب الذي تقدم به . . هذا زبون تتطلب معاملته ابتساماً وكلمة

.. هذا . . روى له قصة حياتك وأنت تقدم له طعام العشاء . . وهذا زبون تتطلب
.. ١٠٠ سوغاً من التعالى عليه بما يشبه الاحتقار لأنه تعود ألا يكون مهذباً إلا بالتعالى
.. هذا دلالة أو ضعف أمامه حاول أن يركبك وينش لحكم . . و . . و . .
.. أن تفهم الزبون وعلى قدر فهمك تستطيع أن تكسب سمعة بين الزبائن
.. مدح أيضاً أن تحصل على الحد الأقصى من المقيش . . فالمقيش لا يعطى
.. لمجرد مكافأة على عمل بل قد يعطى أيضاً كرشوة ، أو قد يعطى كنوع
.. لتطهر إذا كان الزبون في حالة يريد أن يعلن فيها أمام فتاة تصحبه أنه
.. هـ هارون الرشيد ، وأبغض وأحق أنواع المقيش هو الذي يدفعه الزبون
.. حراماً وبحكم النص عليه في فاتورة الحساب . .

واستطاع محمود أن يكسب نجاحاً كمساعد سرجي أو كسرجي صغير . .
.. حاجاً بين رؤساء النجاح بين الزبائن . . ولكنه وجد نفسه مشدوداً دائماً إلى
.. عالم السار الذي يتولى زعامته الرئيس مهداوي محمد . . الرجل التوي الذي
.. صبي عليه وهو يقيد البار أكثر من ثلاثين سنة . . منذ أيام الإنجليز . . كان
.. محمود ينظر إلى البار من بعيد كأنه ينظر إلى عام حارح مصر . . كأنه مجرد
.. خطو داخل صالون البار قد عبر البحر المتوسط وأصبح في أوروبا . . لا لأن
.. عدم ربات البار من الأجانب فهم نفس الزبائن في كل مكان من الفندق ،
.. لأن كل ما في البار ينقلك إلى عالم أجنبي . . الزجاجات المونة . . الأسماء
.. محبة . . أسلوب الخدمة . . كل شيء ليس فيه شيء من مصر ولا من الشرق .
.. سريرة كاملة من المجتمع الأوربي . . حتى التمثال العرعر . . الكبير الذي
.. سمع مهداوي في جانب من صالة البار ، واللوحات التي رسم عليها النخيل
.. جمال والصمغ المعلقة على الحائط ، كل ذلك ليس له أي أثر في نقل

حو البار إلى عالم الشرق ، إنها تبدو كتحف معلقة في بيت أجنبي . .

ومحمود يريد أن ينتقل إلى أوروبا . . يريد أن يتخطو فوق عتبة البار ليصل إلى هذا العالم الآخر . . واستطاع بذلك الريني الذي يخفيه وراء قناع من المداخلة البريئة وقبله في كل كأس من خفة الدم المهددة . . استطاع أن يلتفت نظر « لتر » مهدهي وأن يثير اهتمامه فأخذه معه مساعداً له في البار . لم يكن مساعداً إذاً كان مجرد سفرجي يغسل الكؤوس وينقل الزجاجات ويطبخ الأوامر . . ولكنه كان دائماً يحصر كل اهتمامه في اكتشاف أسرار « المتر » مهدهي . . اكتشاف سر المهنة . . وعرف أسرار الويسكي . . وأسرار الكونياك . . والشمبانيا . . والفودكا . . والجين . . ثم اكتشف أسرار علم الكوكبيل . . اكتشف سر « بلودي ماري » أي ماري الدامية ، وهو كوكبيل مكون من الفودكا وعصير الطماطم والشطة والفلفل والليمون . . سر « الأمريكانو » وهو كوكبيل آخر يجمع بين عصير الكيمباري والمارتيني والصودا . . و . . و . . وعشرات من أنواع الكوكبيل . . إنه عم كامل صدرت عنه عشرات من الكتب والفهارس ، والأبحاث . .

ومهداي يعتمد أكثر وأكثر على محمود ، ومحمود يكتشف أكثر وأكثر من أسرار البار ، إلى أن تعب مهدهي وذهب إلى رحمة الله وتولى إلى العهد - أي محمود - مملكة البار في الفندق الكبير ، وكان قد عرف أن مهمة البارمان ليست مجرد أن يملأ الكأس ويقدمها ، ولكن يجب أن يكتشف الزبون قبل أن يملأ له الكأس . . إن البارمان كسائق التاكسي الذي يركب معه كل ساعة ربون لا يعرفه ، وسائق التاكسي ينقل الزبون من مكان إلى مكان ، أما البارمان فينقل الزبون من حالة إلى حالة ، يجب أن يعرف الحالة التي هو فيها والحالة التي يريد أن ينقله إليها . .

وأكثر من ذلك . . لقد بدأ محمود مع الأيام يكتشف أن كل ما كان يحلم . . صرعه ليحققه كمنتهى له أصبح يحققه وهو يعمل بارمانا . . كان يحلم . . يكون صابطاً للبوليس ، أو طيباً ، أو زعيماً وقد وجد أن كل ذلك يجب أن . . في شخصية البارمان وأن يمارس فعلاً اختصاصات الضابط والطبيب والزعيم ذاته . .

وهو يذكر هذا الرجل الأمريكي الذي جلس أمامه وبدأ يطلب ويشرب ، . . أي أغنى بذئبة بصوت عال ، ثم قام ووقف أمام محمود وقال في تحد : . . لن أدفع . . إن خمرتك كلها مفضوشة . .

وكان من حق محمود أن يدعو فوراً رجال الأمن المتفرقين في الفندق ويقبض على الرجل ولكنه بذلك يسبق إلى بقية الزبائن ويقصد جو البار ، والأفضل أن . . من معه ضابط بوليس ويتصرف ، فابتسم استماته الجدانة التي تحق خبثه . . حال في مرح :

لا يهم . . غداً كأساً أخيرة على حسابي . . إنها ليست على حسابي ولكن . . دأط في ثمتها أصحاب الفندق . . لا أنا ولا أنت سندفع لهم شيئاً . .

وضحك الرجل السكران ورفع كأسه صائحاً :

يسقط أصحاب الفندق . .

وقال له محمود والرجل يهم بالانصراف بعد أن شرب الكأس :

هل معك سيارة . .

وقال الرجل ضاحكاً ضحكة مخمور :

نعم . . إنها قريبة . . تركتها في شارع برودواي . . ألسنا الآن في نيويورك . .

وقال محمود :

- انتظر . . ستخرج موبيا . . سأصحبك بسيارتى إلى نيويورك . . إنها قريبة من هنا .

وقال الرجل :

٩ - هيا يا صديقى . . ولكن على شرط أن نمر على مدير الفندق لنصحب حسابنا معه . . إلى أدفع باللكمات . .

وصحبك محمود قائلا :

- وأنا أدفع بالشلاليت .

وضع محمود ذراعه في ذراع السكران وخرج به من البار وظل يضاحكه حتى وصل به إلى قرب الباب الخارجى وأشار إلى اثنين من حرس الفندق فتقدموا وقبضا على الرجل قبل أن يقاوم ، وبقيا معه حتى أفاق ودفع الحساب واعتذر وهكذا كان محمود يمارس مهمة ضابط البوليس التى كان يحلم بها في صغره . .

ثم بدأ محمود يحس بنفسه كطبيب مسئول ، وهو ينقل الزبون بفعل الحمر من حالة إلى حالة . . سواء حالته الصحية أو حالته النفسية . فيجب أن يتحمل مسئولية الطبيب سواء كان طبيب الأمراض الحسدية أو الطبيب النفسانى . وكان يعتمد في علاج مرضاه على نوع وكمية الكحول الذى يقدمه في الكأس وهو لا يستطيع أن يرفض تقديم كأس يطلبها الزبون حتى لو وصل هذا الزبون إلى حالة أقرب إلى فقدان الوعي ، ومع ذلك يصر على طلب كأس أخرى . والمهم دائما هو تحديد ما في الكأس من نسبة الكحول . . ومعظم الرائيين لا يستطيعون خصوصا بعد الكأس الأولى تحديد نوع ما يشربونه ، إنما يصحح الأمر كله في يد محمود . ولذلك فهو يعتمد دراسة نسبة قدرة الزبون على تحمل تأثير الكحول

١٠ - لا يتحمل أكثر من كأسين ، وزبون يستطيع أن يتلع عشر كؤوس . . وبناء على هذه الدراسة قد تختلف الكأس الثالثة التى يقدمها محمود . . الكأس الأولى . . قد تحمل الكأس الأولى قيراطين من الويسكى ولا تحمل الكأس الثالثة سوى قيراط واحد ، ويعطى هذا الفرق بكمية الثلج أو الصودا التى يريدها على الويسكى دون أن يشعر الزبون بأى شئ . . ولم يكن محمود يهمل بذلك أنه غشاش أو أنه يسرق الويسكى من أفواه الزبائن ولكنه طلب حريص على حالة مرضاه الصحية . مرضى الحمر . . وكان يحس بقدرة الله على التحكم في حالة الزبائن عند تقديم كؤوس الكوكيتيل ، بل إنه أصبح يوزن إعداد الكوكيتيل . إنه يحس بنفسه كأنه صيدلى يعد الدواء المركب لكل مريض . كوكيتيل «جين فيس» أى «الآلة الصغيرة» المكون من خمسين الحين «صاف» إليه الليجون والسكر والصودا . . والكوكيتيل الفرنسي المزيج الغالى الذى لا يعدم إلا في المناسبات العزيرة . . كوكيتيل «روبال ماليشير» المكون من الكوبيك وعصير البرتقال وعصير المشمش ثم يخلط مع شباتيا من النوع القوى الطازج ويرى الكأس من حوله يقطع من فاكهة الموسم وصل محمود . . أن أصبح ملك البار إلى أن أصبح يتكرر أنواعا جديدة من الكوكيتيل تنسب له . . حمد أن يطلق عليها أسماء مصرية وكان أولا كوكيتيل نفرتيتى الذى يعتمد في إعدادها على الجين والكواترو والكيمباري وعصير الأناناس ، وأصبح نفرتيتى . . وبأ علما مسجلا في كل بارزات العالم ومنسوبا إلى اسم محمود . . وقد اصطر محمود أن يعتمد على نفرتيتى عندما وجد نفسه يوما مضطرا لأن يرب رائي البار مسئولية القاصي أو الرعيم الذى يصدر أحكامه تحقيقا للمعالة

كان مصطفى عبد العزيز من بين زبائنه الدائمين ، وهو رجل في حوالى الأربعين من عمره يبدو وسيماً ولكنه يعتبر نفسه أكثر وصامة من حقيقته ، ويهتم بشربه الربيع الملتصق فوق شفثيه اهتمامه باختيار رباط عنقه وتلميع حدائه . . . وقد يكون ذكياً ولكنه أيضاً يعتبر نفسه أكثر ذكاً من حقيقته ، ويلقى كلماته التافهة كأن كل كلمة تعبر عن حكمة أو اكتشاف جديد . . . كان إنساناً مفروراً بنفسه وكان يستمد وقود غروره من اصطیاد عجائز السالحات . فهو دائماً في البار مع سائحة عجوز قد تسافر بعد بضعة أيام فيظهر مصطفى في اليوم التالي مع سائحة عجوز أخرى يكرر معها نفس التمثيلية . . .

ولم يكن محمود يستريح له أو يستخف دمه وكان يعامله كزبون من الدرجة الثانية ، وقد عرف عنه الكثير . . . عرف أنه متزوج ويسكن في حي شبرا ، وأنه تنقل كموظف بين مجموعة من الشركات ، وأحياناً يعمل كمسافر أو كوسيط في عمليات تجارية تافهة ، وأنه يعتمد اعتماداً كاملاً في اكتساب دخله على اصطیاد السالحات العجائز واستزافهن . . . إنه محترف بيع التمتع للعجائز . . .

ولم يكن مصطفى عبد العزيز من مدمني الخمر . ربما اختار البار كمجال للعمل ، يسهل عليه فيه التأثير على صيده . . . وكان لا يطلب لنفسه عادة سوى كأس واحدة يتناولها في مدة طويلة وبأسلوب معين يتبع له أن يترك المرأة التي معه تشرب في نفس المدة عدة كؤوس حتى تسكر ويسهل عليه استزافها .

ورغم ذلك فإن محمود كعادته مع كل الزبائن تعتمد أن يختبر قوة مصطفى عبد العزيز على تحمل الخمر ، فقدم له ذات مرة ما يوازى كمية ثلاث كؤوس داخل الكأس الواحدة التي تعود عليها ، فلاحظ أنه بدأ يهتز وقدر بذلك مدى قوة تحمله .

وفي ليلة دخلت البار فتاة قد لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها . . . جمالها

هادئ . شعرها ينساب برقق حول وجهها كأنه وجد هكذا دون حاجة إلى من يصممه ، والألوان حق وجهها كلها ألوان نائمة في حلم سعيد لا يوقظها منه نوم دحيل كأنه وجه مفصول من كل الألوان المزينة . . . وقد خُطت إلى داخل البار بعد تردد طويل وأخذت تتلفت حوها في حيرة وارباك ، ومحمود يتطلع إليها طلعته إلى أي زبون جديد ، إلى أن اقتربت منه وقالت في صوت خجول يتكسر بين شعثها :

- من فضلك . . . هل تعرف مصطفى بيه عبد العزيز . . .

ونظر إليها محمود في دهشة . . . إنها ليست من النوع الذي يمكن أن يسأل هو مصطفى عبد العزيز . . . كان يمكن أن تسأل عن أي زبون إلا هذا الزبون . وأحباب وهو يقبسا بين عينيه ليكتشف من تكون لمصطفى عبد العزيز . ربما كانت أخته . . . لا يمكن أن تكون على علاقة عاطفية معه فهي تبدو أنظف من أن تكون على علاقة مع مثله . . . أجاب :

- نعم . . . أعرفه . . .

قالت وهي أكثر تردداً وحياء :

- هل يأتي هنا . . .

ولم يكن من طبيعة محمود أن يقل الإحالة على أي سؤال حاص بأحد من زبائنه . إنه يحترم دائماً سر المهنة . . . ولكنه أحاسها كأنه يضع يده في خدمتها :

- إنه دائماً هنا . . .

وعادت الفتاة تتلفت حوها في حيرة . . . وفي هذه اللحظة دخل مصطفى عبد العزيز وهو محمود من بعيد وهو يبدو مرتبكاً عندما وجد الفتاة في البار . . . استدار كأنه يحاول الهرب ، فأشار محمود إلى الفتاة بسرعة فلمحت رجلها

المحارب وجرت إليه . .

وعاد مصطفى عبد العزيز مع الفتاة إلى البار وجمعه محمود وهو يقول لها :

- لا شك أنك حنت . منذ متى تعودت دخول البارات . .

وقالت الفتاة بصوتها كأنه نأب للبكاء :

- جئت أبحت عنك . . يجب أن تنتهي إلى حل . .

وقال لها :

- لا يمكن أن نجد الحل هنا في البار . . إني في انتظار بعض الأصدقاء

الآن للتحديث في محل . . اذهبي الآن . . وتلتي غدا . .

ومحمود يستمع له وهو بعيد عنهما . . لقد عود أذنيه على الاستماع من بعيد

ويستطيع أن يوجهها في أي اتجاه لسمع ما يريد . . كأنهما عينا . . إنه يرى

بأذنيه . . ومنذ تفرغ للبار انقطع عن دراسته الثانوية وأخذ يتردد على المعاهد الخاصة

ليدرس الإنجليزية والفرنسية والألمانية أيضاً حتى يفهم كل ما يدور حوله من أحداث

الزبائن . . ومن خلال أذنيه رأى الكثير . . رأى صفقات تعقد ، ورأى حوادث

حب ، ورأى سرقات . . ورأى . . ورأى . . وهو يرى الآن بأذنيه هذا الرجل وهذه

الفتاة . . والرجل يكذب عليها . . إنه ليس هنا للقاء أصدقائه . . إنه هنا

ليزاول مهنة بيع المتعة لعجائز النساء . . وهو يستطيع أن يقدم لهذا الزبون الكاذب

كأساً تدفعه إلى الصدق . . لا تكذب على هذه الفتاة المسكينة . . لا تكذب . .

ودفع من كمية الويسكي التي تعود أن يقدمها لمصطفى ثم أضاف إليها قطعتين

من مشروب الجين وقدم الكأس والفتاة تقول :

- لم أعد أحتمل القدر . . لقد أعددت كل شيء . .

وشرب مصطفى الكأس وقال ساخراً :

ماذا أعددت . . أعددت فضيحة أم جريمة . .

وبكت وتساقط دموع صامتة على وجنتي الفتاة وقالت :

ارحمي يا مصطفى واسمعي لي .

وعدم محمود بسرعة بعد أن رأى دموع الفتاة قائلاً .

أستاذ مصطفى . . اسمحي لي أن أقدم لك نقرتي . . إني أحفل اليوم

صلاها . . في مثل هذا اليوم ولدتها وجمعت منها أجمل كوكبيل في العالم .

قل الربايش يجب أن يحتملوا بنقرتي . .

وقال مصطفى وقد بدأت كأس الويسكي تهز لسانه :

عجيب . . لم أرك أبداً كريماً إلى هذا الحد . .

وتعديه محمود والتفت إلى الفتاة قائلاً :

والآنسة أيضاً . . يجب أن تحمي معنا نقرتي

وطرت إليه الفتاة في ارتباك كأنها لا تفهم ماذا يقول وأطلق مصطفى ضحكة

صاحبة قائلاً :

اشرفي . . لقد أصبحت أنت أيضاً من زبائن البار . .

وعاب محمود لحظات وأعد الكؤوس كما أودها . . الصبيل الذي قرر

أن يكشف دواء للكذب . .

وشرب مصطفى . .

ثم مد يده وغضب الفتاة على أن تشرب . . لم تكن هذه هي عادة مصطفى

ولا كانت من عاداته أن يتصرف تصرفاً مقصوحاً . . ولكنه تأثير نقرتي . . وقالت

الفتاة وهي تبيع الكأس :

إسمعي . . لقد كنت تقول إنك تنتظر حتى يجمع من المال ما يكفيها .

لقد جمعته أنا . . أخذته من البيت وجئت به إليك . .

وقال مصطفى وقد التوى لسانه :

- إن كل ما في بيتكم لا يكفى خطوة واحدة نحو المأذون . . ولو كان مأذون كلاب . .

ثم شد حقيبتها وفتحها والتقط ما فيها ثم صرخ ضاحكاً ضحكة سكرى قائلا :

- خمسون جنياً . . ها . . ها . . ها . . هل تعرفين كم أخرج في الليلة الواحدة من أى سائحة . . مائة . . مائتين . . أكثر . .

وقامت الفتاة وقد بدأ لسانها هى الأخرى يرتج :

- لا أعلم يا مصطفى . . ماذا تقصد . . هذا كل ما وجدته في البيت .

وقال السكران :

- البيت الذى ليس فيه إلا خمسون جنياً . . غرابة . . وأنا لن أتزوج ولو كان في بيتك ألف . . كهاى زواج . . الولية في بيت شبرا مطلعة دينى . .

وصرخت الفتاة :

- هل أنت متزوج . . متزوج يا مصطفى . . جلدتى . . ماذا أفعل الآن . .

وقام مصطفى مترنحا من فوق مقعد البار ، ووضع الخمسين جنياً في جيبه وقال مترنحا :

- عودي إلى بيتك إلى أن تجدى شيئا آخر ثم تعود وتفكر . .

وانطلقت الفتاة وهى تصرخ :

- خدعتنى . . يا مجرم . . يا لص . .

ثم رفعت كفها وصمغته بكل قواها . .

واسم محمود وهو خلف البار لهذه الصفعة ، ثم قفز نحو الفتاة والرجل وأمسك بهما في رفق وقادهما إلى خارج البار ، وقال هامسا لمصطفى :

كن هادئا . . وجمال الأمن وراءنا . .

واحتزن وجه مصطفى بالذعر وانقاد إلى محمود وبمه الفتاة ، وفي زاوية بعيدة خارج البار استطاع أن يحقق العدالة . . وكانت العدالة التى أرادها عن طريق نفرتيقي هى أن تكشف الفتاة حقيقة مصطفى . . وقد اكتشفتها . .

هكذا كان محمود . البارمان المشهور . . ساقى الخمر . . عيناه في أذنيه .

إلى أن بدأت أذنا محمود تتجهان إلى زبونه رفعت عبد اللطيف . . المقدم رفعت عبد اللطيف . . وهو زبون قديم وإن كان يعتبر من زبائن الثورة ، أى الزبائن الذين لم يظهروا إلا بعد الثورة وتقاس قيمة كل منهم بقيمة مركزه بالنسبة للثورة . وهو زبون البار طالما ظل محتفظا بمنصبه ، فإذا ترك المنصب ترك البار . .

وقد لاحظ محمود أن المقدم رفعت أصبح يلتقى كل ليلة داخل البار مع صديق لم يكن أبدا من زبائن البار . . وعرف أن هذا الصديق هو أيضا ضابط . . ومع الوقت سمع اسمه . . سعيد المر . . وكانا يجتمعان مستندين على حافة البار ناحية الركن البعيد . . وكان حديثهما غالبا أقرب إلى الجنس حتى كان محمود يصطر أن يبذل مجهوداً كبيراً ليلفظه بأذنيه ، وبدأ يعتمد أن يرفع من سسة تكحول أو يضيف إليه عناصر أخرى حتى يرقعا صوتيهما فيسهل سماعهما . ولم يبدأ اهتمامه بتوجيه أذنيه إليهما لمجرد أهمهما من رجال الجيش ، ولكن لأنه سمع منهما بالمصدقة كلمتين أثارتا حيرته وأثارتا مع الحيرة شهوة الاستماع واكتشاف الأسرار . كان المقدم رفعت يقول :

- لازم نخلص .. ونخلص بسرعة ..

وأجاب الرائد سعيد المر :

- السرعة ليست في صالحتنا .. كل الدواهي سببها التصراع ..

وقى ليلة أخرى قال المقدم رفعت :

- الراجل بتاعنا اقتنع .. لم يبق إلا تحديد الموعد ..

وسمع الرائد سعيد يقول :

- الجماعة تنوع سوريا مستعدين .. كنت معهم منذ ساعات ..

وبدأ محمود يقتنع بأن هناك مؤامرة تدبر .. ربما انقلاب .. ربما عملية

اغتيال .. وليس غريباً أن تم لقاءات المتآمرين في بار .. بالعكس .. إن حوادث

خطيرة وهامة ترسم داخل البارات .. فهنا - في البار - يأمن المتآمرين من عدم

إثارة الشبهة .. لا أحد يمكن أن يتصور أن اجتماعاً خطيراً يمكن أن يعقد في بار ،

ولا حتى رجال البوليس .. فقط رجال المخابرات الذين يمكن أن يكتشفوا

أسرار البارات .. ومحمود ليس من رجال المخابرات .. ولا يدري إذا كان

بين زمائته مخابرات ، أم لا .. وإذا كان هناك رجال مخابرات فهل تهبوا

إلى هذه المؤامرة أم لا .. وأذناه لا تكمان عن نتيج المقدم رفعت عبدالمطيף والرائد

سعيد المر ولتلقطان تفاصيل كثيرة خطيرة لا يدري كيف يتصرف فيها .. إلى أن

سمع الرائد سعيد المر يقول ذات ليلة للمقدم رفعت عبد اللطيف :

- غدا سننشر في الصحف حكاية الجاسوس الإسرائيلي الذي اكتشفناه ..

من باب التغطية .. وسيستمر النشر .. وقد تم العملية يوم الرابع أو الخامس

من الشهر القادم ..

وأجاب المقدم رفعت :

التحركات كلها حدثت .. وعلى بركة الله ..

والدماء تلى في عروق محمود .. إنه لا يدري ماذا يفعل بكل هذا الذي

يسمعه .. بل إنه يراه .. إنه يرى ما يسمعه .. يرى بأذنيه .. يرى مصر تنقلب

أمام عييه .. ربما كان من الخير له أن يتجاهل كل هذا الذي يسمعه .. ماله

ومال الملاوى .. وأعد لنفسه كأساً من عصير: التيناع المركز حتى يهدئ أعصابه

بح أن يقتنع نفسه بأن كل هذا لا يهمه .. وليس من اختصاصه أن يهمه

إيه ليس مخابرات .. وهو يسمع أن البلد كلها غارقة في بحر من المخابرات

ويكتي الاتكال على المخابرات ..

ولكنه في صباح اليوم التالي فتح الصحف إنها كلها تنشر حكاية الجاسوس

الإسرائيلي .. إن الخطة تأكدت .. كل ما يسمعه يحدث .. لم يبق إلا أيام

ونتم العملية حساذاً يفعل .. كيف يتصرف .. إيه لا يريد أن يقوم انقلاب

في مصر .. إن مصيبة جديدة لن تحمل المصيبة القائمة .. والبلوى لا تحملها

الملاوى .. ونعرة العلاج الشهم تملأ كل إحساسه وتقرص كل أعصابه ..

ورغم ذلك كله لا يدري ماذا يفعل ..

إلى أن دخل إلى صالة البار بهجت شكرى .. إيه ليس من زمائس البار ولكنه

يردد عليه في قترات متباعدة كلما جاء إلى الفندق في إحدى المناسبات ..

وهو يعلم أنه يحتل مركزاً هاماً في مكتب الرئاسة .. ربما كان مدير مكتب ..

أو سكرتيراً خاصاً .. أو مستشاراً .. المهم أنه في أحد أركان الرئاسة العليا ..

وهيس محمود في أذنه وهو يقدم له الكأس :

- أرجو أن تسمح لي بلقاء .. إنه موضوع هام

ورد بهجت ضاحكاً ..

- إنك هكذا ملك الدنيا يا محمود .. فماذا تريد أكثر ..

وقال محمود وهو يتطلع حوله حتى يتأكد أن المقدم رفعت لم يصل بعد :

- إنه موضوع لا يتعلق بى .. يتعلق بالبلد .. بالمصير .. وأفضل أن أراك

في مكنتك ..

ونظر إليه بهجت شكرى نظرة جادة كأنه قدر أن يكون الأمر خطيراً فعلا .

ثم قال وهو يحتفظ باهتمامه :

- هل يهين عليك البار تتركه بعد نصف ساعة ..

وقال محمود كأنه فوجئ بسرعة تلبية طلبه :

- ألا يمكن أن أتوكة غداً صباحاً ..

وقال بهجت وقد اتسعت ابتسامته أكثر :

- إذا كان الموضوع متعلقاً بالمصير فلا يحتمل التأجيل إلى الغد .. سأكون

في انتظارك في مكنتى بعد نصف ساعة وسأترك تعليقات يادخالك فوراً ..

أمثالك ما محمود لا يؤجل لهم طلب ..

ثم قام بهجت شكرى وانصرف بسرعة خارجاً من البار ..

ووقف محمود متجهداً كأنه أصيب بالشلل .. ويقول لنفسه إنه مجنون .

ألقي نفسه في مصبه .. ماله ومال المصائب .. إنه ليس مسؤولاً عن إيقاد البلد

من المصائب .. إنه لن يذهب إلى بهجت شكرى .. ولكنه لا يستطيع .. قد يرسل

وراءه البوليس للقبض عليه . سيذهب ولكنه لن يقول شيئاً .. سيدعى أنه

كان يريد له في شراء سيارة نصر ، أو استجار شقة .. ولكنه قد

يكشف كذبه .. واستسلم محمود .. استسلم لقدره .. وذهب إلى مكتب

بهجت شكرى الذى يقع بين مكاتب الرئاسات ..

واستقبله حارس من جنود الجيش .. صحبه إلى مكتب ضابط من ضباط

الجيش . وصحبه الضابط إلى غرفة صغيرة ليس فيها أحد وليس فيها مكتب .

لها غرفة انتظار .. وتركه الضابط وحيداً وخرج وأغلق الباب وراءه .

ومست أكثر من نصف ساعة ومحمود لا يزال وحيداً ، وأعصاه تنمىز ، وأنفاسه

عسقى وأوهام كثيرة تملأ رأسه .. وبعجاة فتح الباب ودخل بهجت شكرى .

دخل مرحباً مبتسماً وهلل في مرح :

- آسف .. تأخرت عليك .. ألم يقدموا لك شيئاً .. هل تريد كأساً من

لويسكى .. إنك الآن الزبون وأنا البارون .. اطلب ما شئت .. وإن كنت

لن أستطيع أن أخدمك قدر خدماتك لنا .

وقال محمود وهو يتطلع توتر أعصاه ويحاول أن يتجاوب مع اتسامه بهجت :

ألف شكرى . أريد أن أقول ما عدى وأعود إلى البار .. تأخرت كثيراً .

وقال بهجت في تواضع :

- آسف يا مثر محمود لأنى أخرت عودتك .. احك لى .

وبدا محمود يحكى ، وربما كان قد قرر أن يكون حربصاً في كل كلمة

يقولها .. ألا يقول كل شيء .. وألا يتهم أحداً .. ولكنه ما كاد ينطق حتى

عله حماسه ، وسيطرت عليه فكرة محاولة إيقاد مصر من انقلاب آخر ، وانطلق

بروى كل شيء .. يصف كل ما رآه بأذنيه ..

وظل شكرى يستمع إليه صامتاً دون أن يرفع إليه عينيه .. ثم بدأ يسأله أسئلة

كثيرة قصيرة :

- منذ متى بدأت تسمع هذا الكلام .

ويجب محمود في حماس :

- منذ أكثر من شهرين

ويسأل بهجت :

- ألم تر أحدًا ينضم إليهما في هذه الأحاديث ؟

ويرد محمود :

- لا ولكن الرائد سعيد المر كان دائماً يبق قليلاً ثم ينصرف في خطوات سريعة كأنه على موعد آخر . وتوالى أسئلة بهجت شكرى وترفع درجة حماس محمود في إجاباته . . إلى أن استأذن بهجت :

- عن إذنك يا محمود . . سأعود إليك ..

وتركه وحيداً والباب مغلق عليه .

وبصت نصف ساعة . . وبدأ محمود يتململ . . ونصف ساعة أخرى وبدأ ينهار . . لعلهم سيتركونه هنا إلى الأبد . . لعلهم مسجون . . لعلهم نسوه . . وحاول أن يفتح الباب فاكشف أنه مغلق بمفتاح أو ترأس . . ودق يده على الباب . . وفتح . ضابط من ضباط الجيش . . لقد وضعوا عليه حارساً . . وقال الضابط في رفق :

- هل تريد شيئاً .

وقال محمود في رعدة .

- أريد أن أخرج من هنا . .

وقال الضابط في رفق :

- بعد قليل ياذن الله . . السيد بهجت مشغول قليلاً . .

ثم عاد وأغلق عليه الباب .

والساعة قد وصلت إلى الثالثة صباحاً . . ووصل محمود إلى حد الانهيار .

إبه حالس على المقعد ورأسه بين يديه كأنه يودعها قبل أن تقطع . . إبه يعلم

مطلبه إبهم يدعون كل من يعلم شيئاً عن ديارهم حتى لو كان

يعاطف إبعاد هذه الدنيا . . آخر حلقة العز علفة . . وهو الآن في انتظار العلفة

١٣٨

وحدة فتح الباب

ودخل بهجت شكرى . . وقفز محمود كأنما لسعته الناز عندما رأى اثني

بعضهم معه . المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد سعيد المر . . وارتعش . . لم يعد

يستطيع الوقوف على قدميه فسقط على مقعده كأنه اتنى

وقام بهجت شكرى في هدوء

أرحوك يا محمود أن تعيد ما سمعته منك . . لا تخف . . إنه فقط أسلوب

المواجهة في التحقيق

وقال محمود ولسانه يتلطمع مع تمزق أنفاسه :

أنا لم أتهم أحدا . . إني فقط قلت كلاماً سمعته . . لم أقصد شيئاً . .

لم أقصد شيئاً .

وبعد بهجت يكرر أمامه مض ما قاله وهو يبر رأسه حياً وحياً

بعد ويقسم أنه لا يتهم أحدا . وعيناه زائعتان . تنقلان في فرع بين المقدم

بعت والرائد سعيد .

ثم بدأ الرائد سعيد المر يتكلم ويسأل محمود :

ألا تذكر الرجل الأمريكي الذى كان يدخل البار كل مساء .

وقال محمود وهو يطوى نفسه في مقعده :

أى أمريكي . . إبهم كثيرون

وقال سعيد المر . .

- اسمه بيتر برسون .. لاشك أنك تعرف اسمه .

وقال محمود :

- نعم أعرفه .

وعك سعيد المر يقول :

متى سافر بيتر هذا ؟

وقال محمود :

- أول أمس على ما أعتقد ..

وقال سعيد المر :

- ألم تلتق معه في حديقة الفندق مساء الثلاثاء الماضي .

وقال محمود :

- إنه زبون صديق كتيبة الزنائن .

والفتت سعيد المر إلى بهجت قائلاً :

- كما قلت لك .. إنه تخطيط أمريكي .. والهدف واضح .. إثارة

الانقسام في الجيش ..

وهز بهجت رأسه موافقاً ، ثم خرج الثلاثة من الغرفة

وفي الصباح وجد محمود نفسه في السجن الحرى .

...

ومضت أربع سنوات ومحمود مختلف عن البار ، وكل الرهائن يتمتدون

أنه سافر للعمل في الخارج .. وتعدد القصص والحكايات .. إنه في باريس .

إنه في أنسابيا .. إنه في أستراليا . لقد تزوج من أمريكية . لقد أصبح مليونيراً

وافتح باراً في هونولولو .. ولم يخطر على بال أحد من الزنائن أنه ملق في السجن

الحرى .. هكذا محاكمة ، ولا حتى مجرد تحقيق داخل السجن . كلهم

يسمونه هناك

ودجأة ظهر محمود داخل البار ..

أعد عاد ..

وهو يقف على الزجاجات والكؤوس في خفة كأنه هناك يعود إلى فرشائه وألوانه

بعد عيبة طويلة ..

وسقته الرنائن بالتهليل ، ولكنه يتلقى تهليلهم بانتسامة ماردة كأنه لا يسمعهم

إنه لا يسمع فعلاً

إنه يضع في كل أذن من أذنيه قطعة ثقيلة من القطن فوق قطعة من الصمغ كأنه

كان يضع فوق عينيه غمامة سوداء ..

لم يعد يرى بأذنيه ..

وبدا يعود رباعته على أن يقدموا طلباتهم بالإشارة أو يفهم ما يطلبونه من حركات

الشاه .

وحاء بهجت شكرى ذات ليلة إلى البار وأخذ يحلق في محمود طويلاً ثم

أشار إليه ليقدّم نحوه وبدأ يتكلم .. قال له :

- أعترف أننا ظلمناك يا محمود . ولكن الرقاصات أحياناً تضطر إلى

الظلم .. وقد كانت المعلومات التي قدمتها لنا صحيحة . وكان يجب أن نكفلك

على شهادتك ووطنيتك ، ولكن الحطة لى وصعدا كانت تقرر أن ظلمتك وأن

تدفع بك في عملية انتحارية كأبطال الحروب . فلو أننا تحركنا للقضاء

على المتآمرين فربما وقعت مصيبة في الجيش لأهم كلهم من الشخصيات الهامة

التي كانت مسيطرة .. وفي الوقت نفسه كنا نريد أن نتركهم يعلمون أننا اكتشفنا

مؤامرتهم لأننا لا نصدق ما اكتشفناه . لذلك تركناهم يواجهونك ثم قصنا
عليك حتى نؤكد أننا لا نصدقك . وقد نجحت الخطة . فإنهم اضطروا أن
يؤجلوا المؤامرة وأن يبدأوا في وضع تخطيط جديد وهذا ترك لنا الوقت الكافي حتى
نصق المؤامرين واحداً بعد الآخر في هدوء دون أن نعرض للجيش لأى ضجة
أو انقسام . أتدري أين الرائد سعيد المر والمقدم عبد اللطيف . . إنهما حيث
كنت . . في السجن الحرق . .

وانتظر بهجت شكرى أن يتكلم محمود . .

ولكنه لم يتكلم . .

لم يلاحظ بهجت شكرى أن محمود يسد أذنيه . . لم يعد يسمع شيئاً . .
لم يعد يرى بأذنيه . . لقد اكتشف طريق السلامة . . ألا يسمع حتى لا يرى

❖ الصيد في بحر الأسرار ❖



هريزى الأستاذ . .

أنا أحد أعضاء السلك الدبلوماسى . . وفى صيغة أكثر تواضعاً ، أنا موظف
فى إحدى السفارات العربية . . ولا يهم أن أحدد لك الدولة التى تنتمى إليها
هذه السفارة ، ولا فى أى عاصمة من عواصم العالم تقع ، فأنا لا أكتب لك
لأدعيت إلى إثارة قضية عامة أو قضية سياسية ، كما أنى لا أكتب لأشهر سدى
أنا مأخذ من الناس . . إنما أكتب لأنى تعودت أن أقرأ لك منذ كنت طالباً عندكم
فى مصر ، وكنت أقدر أنك فيما تكتب تعرض الواقع كما هو دون أن تفرق بين
ما يمكن أن يقال ممساً وفى داخل المجتمعات المخلقة وما يمكن أن يقال علناً
وينشر على الناس . . وربما كنت تقصد ذلك أو لا تقصده . . أى ربما كنت
حرشاً وربما كنت ساذجاً . . المهم ، أنى أكتب لك لأعرض عليك صورة من
صحة الواقع أعتقد أنها لم تطرأ على بالك ولا مرت بحبالك لا لأستعين بك على
مؤلف معين ولا حتى لأستعين برأيك . . إنما أكتب لمجرد الكتابة . . أريد أن أسمى
بعضى فى أوقات الفراغ ، أو على الأصح - أريد أن أحقق عن بعضى بعض ما أحمله
من هذا الواقع ، أو لعلى أكتب لأجرب نفسى ككاتب قصة . .
اسمعى يا سيدى .

إن منصبى الرسمى فى السلك الدبلوماسى هو منصب وزير مقوض . .

في خلال عامين اثني الرقبت من سكرتير ثان إلى وزير موصى . ويمكن أن
تقدر ذلك على أنه اعتراف بتفاقي وكهاتى ، فإنني اعتبر واحداً من قسم الطبقة
المتقنة لضيقة التي يضمها مجتمع بلدى . كما أن لا شك أمتار بمستوى عال
من الكفاءة ، وأنا لست واحداً من أفراد الطبقة الحاكمة . وهي طبقة أترك
لك الخيال في أن تصوورها في شكل عائلة حاكمة ، أو في شكل مجلس قيادة
ثورة . ورغم أننى مجرد تاجر عادى يعيش حياته في دكان صغير داخل السوق ،
لا أنى منذ صباى استطعت أن أنت وحوذى بين أبناء الطبقة التي تحكم ،
ثم استطعت أن أستمع في تعميم نفسى حتى تخرجت في كلية الآداب ، قسم
الفلسفة ، جامعة القاهرة . فأنا أعتبر نفسى الفيلسوف الوحيد في بلدى . ورغم
ذلك وحتى أكون واقعياً لا أعتبر أن تفافى أو كهاتى كانت السبب الرئيسى
في هذه القفزات السريعة التي قفزتها فوق مناصب السلك الدبلوماسى
السبب في تقديرى هو الخدمات التي أؤديها . وحتى أكون أكثر صراحة معك
فيمكنك أن تسميها خدمات شخصية

إن مهمتى الرئيسة داخل السفارة بنجاح المهام الرسمية الأخرى هي ما يسمى
« العلاقات العامة » ولكنى تخصصت في جانب خاص من هذه العلاقات ،
وهي العلاقات النسائية . علاقات مع نوع معين من النساء

هل فوجئت ؟

هل دهشت ؟

يا صدينى إن العلاقات النسائية تمثل حساساً هاماً رئيسياً من شدة أى سفارة
من سفارات العالم . وهي - ولا شك أنك تعلم - علاقات تستغل إما لتجسد
بعض السوء لتجسس لحساب الدولة ، وإما لتوفير المنفعة لبعض الشخصيات

الكبيرة من أهل البلد الذين يزورون السفارة أثناء أداء مهامهم الرسمية في الخارج .
خط من باب إكرام الضيف . ومهمة العلاقات النسائية إما أن تتولاها مكاتب
محادثات الملحق بالسفارة ، وإما أن تتولاها السفارة بنفسه عندما لا يكون لها
مكتب محادثات ، كسفارتنا .

هل نذكر الضجة التي قامت في القاهرة عندما أعجب المرحوم الرئيس
سوكارنو بإحدى فتيات فندق هيتون ، وطلب أن تلحق به بعد سفره ، ورفضت
لحكومة المصرية السماح لها بالسفر . هذه القصة مد مدتها كانت لا يمكن
أن تتم إلا تحت إشراف اجهار لدبلوماسى الذى يشع الرئيس سوكارنو ، ولحظاً
لدى وقع فيه هذا الجهر هو أنه ترك القصة تعرف بين الناس . وهو نفس السب
الذى جعل الحكومة المصرية ترفض السماح للفتاة بالسفر ، ومداواة ونفطية
للضحية حتى لا تصبح قصة دولية ، وإلا فلا اعتقد أن أى دبلوماسية كانت تضحى
بصداقة زعيم عالمى كالمرحوم سوكارنو من أجل فتاة عاملة في فندق . وأن
سوكارنو كان مشهوراً عالمياً بأنه زير ساء . وأكثر من ذلك . ألا تذكر
القصاص الكبيرة التي عرفت وشرفت عديم عن النساء اللاتي كن يقدمن إلى
بعض الشخصيات العربية الزائرة ، وقيل إنه كان من بين بعض الفانات المشهورات
وكانت تعد لهن آلات تصوير سرية لتلتقط مواقف خاصة حارحة لهذه الشخصيات
وهم في حالات شاذة مع هاتيك النساء . إن ما أعرفه أن هذه العمليات لم تكن
مقصورة على الشخصيات العربية فحسب ، هناك شخصيات غير عربية
أيضاً . شخصيات عالمية تضم الغرب والشرق . المهم . إن ما يشغل فكري
كلما تذكرت هذه القصص هو أن أمثال « أين ذهبت الصور الموثغرافية
التي التقطت . إن صورة واحدة منها يمكن أن تكون أداة انتراز للملايين من

العملات الصعبة . . ولكنى أقدر أن هذه الصور إن لم تكن قد أهدمت فإنه يحتفظ بها في أعماق نثر الأسرار حرصاً على العلاقات الدبلوماسية . . المهم أن كل هذا كان يحدث نتيجة عجز السفارة التي تتبعها الشخصية العربية أو غير العربية ، فإن أى شخصية لها قيمتها عندما تسافر إلى الخارج تصبح في حماية السفارة . . ليست الحماية السياسية فحسب بل أيضاً الحماية الاجتماعية والحماية من الترواح الخاصة ، أى أن من حق السفارة أن تتدخل في اختيار الزائر لمحال ممارسة حياته الخاصة ، فإن الحياة الخاصة هي الباب السهل الذي تتدخل منه أجهزة التجسس والمخابرات الأجنبية . .

أريد أن أقول لك إن تخصصي في العلاقات العامة الخاصة بالتعامل مع النساء ، ليس عملاً مشيناً ولا ينطبق عليه اللقب الذي تسملونه في مصر وهو لقب « قواد » . . لا . . ابصتها من قمت . . فإنه تخصص تفرضه المصلحة الوطنية التي تتطلب حماية الشخصيات الهامة في بلدك رغم أن دواعي تصرفات هذه الشخصيات التي تتطلب الحماية كلها دوافع شخصية رخيصة لا علاقة لها بالوطن ولا بالوطنية . .

وسدقتى عندما أقول لك إنى لم أبدأ باختيار هذا التخصص ولا كان يحظر بيالى ولكنى وجدت نفسى فيه . . وعندما عيت في السفارة كسكرتير ثالث كنت أصغر أعضاء السفارة سناً ، ولا أبالغ إذا قلت إنى كنت الصورة الأكثر وسامة وإطلاقاً بينهم ، فإن حياتى الطويلة في مصر ورحلاتى إلى الخارج جعلت منى شاباً يتميز بقبول اجتماعى أكثر من أى شاب في بلدى أنا لست مغروراً ، وأنت لا تعرفينى ولم أقصص لك عن اسمى أو شخصيتى حتى أنبأهى أمامك بالغرور . ولكن هذا هو الواقع . . وقد فوجئت منذ وصلت إلى العاصمة التى تصم السفارة

الحياة الجنسية المفصوحة التى تعيشها هذه العاصمة . . وهى حياة مخصصة لمعيش السباح والأحباب . . إن أحد العناصر الرئيسية في عملية التنشيط والدعاية لساحة التى تتبعها كل بلاد العالم السياحية هو عنصر الجنس . . ولذلك فإنى أصبح وزارة السياحة في مصر أن تقوم الدعوة التى سمع عنها والتي تدعو إلى إعلاى ملاهى شارع الهرم . كما أصبح بوليس الآداب المصرى ألا يفرض تدخيه في هذا المجال وأن يتبع للوائح الخاصة بسواذى القمار . فالقمار في مصر وفي كثير من الدول السياحية لا يسمح بممارسته إلا للأحباب ، أى للسباح . فلماذا لا يطبق على ممارسة الجنس ما يطبق على ممارسة القمار ، وكلاهما حرام ، وكلاهما رجس من عمل الشيطان . أعرف أنك تلوى شعيتك امتعاضاً وأنت نمرٌ هذا للكلام ، ولكنى أعترك كاتباً واقعياً وأحاول أن أشدك إلى مزيد من الواقعية إلى منتهى الواقعية على كل حال فقد فوجئت بهذه الصراحة التى يعرضون بها الجنس في هذا البلد . في الحانة رأيت عشرات البنات يقفن عاريات فوق البار الذى يجلس حوله الزبائن ويرقصن رقصات أشبه بالدعوات البديية . . وعندما دخلت نادياً ليلاً أى « كباريه » وجدتهم يضعون النساء خلف باعة زحاجية كأنها « قترية » وكان لبيع الأحذية تقع في جانب وراء صالة العرض وكل زبون يدخل ويتنقى الحذاء الذى يعجبه أقصد المرأة التى تعجبه ليأخذها ويجلس معه على مائدته ، وفي الحمامات الساحة المخصصة للتدليك نفس الشئ . ساء حلف قترية زحاجية تنتقى من بينهن من تريد أن تدلك عضلاتك . محلات تجارية تعرض بضاعتها في قترينات زحاجية كما تعرض الأحذية والملحوم في دكاكين بلادنا . . وعلى قدر ما فوجئت إلا أنى اكتشفت فيما بعد أن هذه الوسيلة من وسائل العرض تتكرر في أكثر من بلد سياحى ، بل إنى رأيت الوسيلة نفسها تتكرر في ميناء هامبورج بألمانيا

الغريبة . . . وصدقني أنها وسيلة فزتني . ولم أترك نفسي أبداً تنجذب إليها . كنت أحس أني لو أخذت واحدة من هاتيك النساء فكأنني وقفت معها أمام الداس داخل القنينة . ولكنني كما قلت لك درست الفلسفة وهوايتي اكتشاف أعماق الشخصية الإنسانية وهو ما دفعني إلى التعرف إلى كثيرات من هذا الصنف من النساء . وهذا الصنف قادني إلى صنف أرقى لا يعرض في القنريات . . . وكنت قادراً على أن أجمع بيني وبين كل واحدة منهن بنوع من الصداقة أرقى من الجنس . بل إنني أعطيت نفسي حق الظهور معهن بعيداً عن مجال عملهم في دعوة إلى الفداء أو في رحلة خارج العاصمة .
المهم . . .

لم يكن قد انقضى أكثر من ثلاثة أو أربعة شهور على وصولي إلى السفارة . . . لم أكن قد عرفت بعد كل ما يعيشه المجتمع الدبلوماسي . وكان قد زارتنا شخصية رئيسية من الطبقة الحاكمة ، وكان السفير يقيم حفل عشاء خاصاً هذه الشخصية في داره . . . وكنت أنا وحدي في العارة عندما وصلت برقية هامة يجب أن أحملها فوراً إلى السفير في بيته . . . وذهبت إلى البيت ، وعندما وصلت إلى الباب وصلت معي سيارة السفارة وزلت منها واحدة من النساء اللاتي عرقهن يرقص عاريات في أحد البارات . . . وكانت تعرفني . . . وطلت أني أحد المدعوين إلى بيت السفير . . . وحاولت أن تهمل لرؤيتي وتفصح معرفتي بها . ولكنني صددتها لقاء رشي مبالغ فيه وأسكتها وكتمت تهليلها . ثم تركتها تدخل إلى البيت ووقفت أنا على الباب إلى أن استدعاني السفير واستقبلني في عرفة مكتبه بعيداً عن مجال الحفل حيث سلمته البرقية . . .

وكان هذا الحادث هو أول ما فتح ذهني إلى مجال تخصصي . . .

وبعدها بأيام استدعاني السفير وقال لي ضاحكاً :
- يبدو أن البلد أعجبك جداً . . .

قلت :

- جداً يا سيادة السفير ، ولكنني مازلت في مرحلة الاستكشاف .
وقال وضحكته تملو :

إنت على الأقل كتمت حتى الآن أحمل سائها ، لقد رأوك أنس مع فتاة قالوا إنها رائعة . . . حلوة . . . تجن . . .

قلت وأنا أورد على ضحكته بابتسامة :

عرقها مصداقة و . .

وقاطعتي قائلاً :

- وجه الصدف تشملتا . . ادعها الليلة . . ونسهر معاً .

قلها ببساطة كأنه يلقي على أمر إدارياً . . . وقد دعوت الفتاة بالفعل وحرص معي لمقائنها السفير وحده بعد أن كانت الشخصية الكبيرة الزائرة قد سافرت . . . وعرفت خلال هذه الليلة أن كل ما هنالك أن السفير يريد أن يرفع الكفة بيني وبينه ، وأنه يريد أن يشركني في هذا الحجاب من أعمال السفارة الذي كان هو نفسه يعاني منه من طول ما تحم من مسؤولياته ولعجز باقي موظفي السفارة عن مرولة العلاقات الساتية بمستوى راق . . . كان السفير يريد أن يمنحني فرصة التحرة ليحترقني . وهي ليست فرصة سبة ، إنما فرصة تعطيك الحق في أن تسوي وتحتفظ بكثير من الأسرار الشخصية الجارحة التي تشمل أكبر شخصيات الطبقة الحاكمة في بلدك .

ونجحت في التجربة . .

واكتسبت ثقة السفير واعتماده عليّ ، بل إن السفير أصبح في يدي لأنه هو الآخر له أسرار شخصية حارحة حصلت عليها من خلال العمليات التي كنت أقدمها له واحتفظت له بها في بئر الأسرار ، والذي يملك بئر الأسرار يملك كل من له سر . .

وكانت الشخصيات الرائدة التي تقدم من بلدي تنقسم إلى أنواع :

نوع سهل بسيط يعتبر دخيلاً أو مبتدئاً في حياة الليل ، ولا يزال جائعاً إلى كل امرأة دون أن يقدر قيمة الوصول إليها ، وهو نوع كنت أكنى بأن أصبح به إلى الحانات والكباريات والحمامات فيهر ويسيل لعابه بالأجساد العارية ويلقى نفسه فوقها بشراقة دون أن يطلب أي إعداد خاص . كالحرص على التستر ، أو إحاطته بجو ومزاج معين . . وهو نوع يشمل صغار وكبار الموظفين ، ويشمل هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم كباراً فجأة . ولم أكن أنذل اهتماماً كبيراً بهذا النوع من الزوار ، بل في الغالب كنت أترك الاهتمام به إلى سكرتيري الخاص . . وسكرتيري الخاص ليس من بلدي ولكنه من بند عربي آخر ، وقد اخترته غريباً حتى لا أترك لأحد من موظفي الوزارة فرصة التلمذ على يدي في علم العلاقات العامة ثم ينتهز الفرصة ليقضى عليّ ويحل محلّي كما يحدث غالباً . .

أما النوع الثاني من الشخصيات فهو النوع الأكثر تجربة والذي شيع من حياة الليل السهلة ، ولم تعد تغريه الحانات ولا الحمامات ، وهو ما يجعل الاهتمام به يتطلب إعداد جلسات خاصة في بيوت خاصة ، وهو ما يكلف ميزانية العلاقات العامة أكثر ، لأن هذه البيوت ، أو على الأصح البيوت التي كنت أختارها

ل هذه الشخصيات الهامة ليست بيوتاً مفتوحة لأي زائر . . إنها أقرب إلى بيوت الجيشا في اليابان ، عندما كان للجيشا تقاليد واحترام وقيل أن تنقلب إلى مجرد بيوت سباحية أقرب إلى دكاكين خان الحليل عندكم . وفي مثل هذا البيت تعد سهرة كاملة للزائر . . موسيقى ، رقص ، غناء ، عشاء . . وهو وحده أو بصحبة صديق من أصدقائه ، ويستطيع أن يطلب أي شيء وكأنه صاحب البيت . . يملكه ويملك من فيه . . ولذلك قلت إن الرائر من هذا النوع يكلف ميزانية العلاقات العامة كثيراً .

والنوع الثالث هو النوع الأخطر والأهم . النوع الذي يشمل الشخصيات الرئيسية في بلدنا . . وهو نوع يمتاز بأنه لا يسمح لنفسه أن يطلب ليلة من هذه الليالي . . لا يكلف السفارة بأن تحقق له منة خاصة ، احتراماً لمركزه وحرصاً على مظاهره وتقاليده الحكم . . كما أن أحداً لا يمكن أن يعرض عليه حتى على سبيل لكتبة أن يوفر له هذه المنحة . . ليس من حتى كمثول عن العلاقات العامة أن أغري شخصية من هذه الشخصيات بقضاء ليلة خاصة حتى لو كنت أعلم أنه يتبنى مثل هذه الليلة الخاصة ، بل حتى لو تأكدت أنه لم يأت إلينا زائراً إلا بعد أن سمع من أحد أصدقائه عن الخدمات الممتازة التي أقدمها . وعلم العلاقات العامة يتصحبك في مثل هذه الحالة أن لا تعرض شيئاً ولكنك فقط تحيط هذه الشخصية بالجو والمجال الاجتماعي الذي يتيح له فرصة الاختيار اختيار ما إذا كان يريد أو لا يريد . ونحقيق هذا البند من علم العلاقات العامة يعتمد على قدرتك في اكتساب صداقة نوع معين من العائلات . إنه نوع من العائلات المحترمة قد يمثلها رجال لهم مراكز لها قيمتها ، أو مراكز ليست رسمية ، ولكنها عائلات تعيش حياة التساهل الاجتماعي ، ونسأوها على استعداد للاشتراك

في كثير من العمليات التي تعود على العائلة بنفع كبير . كتحقيق عملية تجارية يقوم بها الزوج مثلاً ، أو المساهمة بالوساطة في صفقة ضخمة . وتدعى مثل هذه العائلة إلى حفل عائلي يقيمه البعير تكريماً للضيف الكبير . حل خاص لا يدعى إليه أحد بصفتة الرسمية ولكن المدعوين كلهم أصدقاء خصوصيون . وتتولى سيدات العائلة إحاطة الضيف بالحو الاجتماعي المرح المتفوح الذي يشجعه على أن يطلب . أن يطلب هذه السيدة أو الأخرى إذا أراد أن يظلمها . وغالباً ما ينشئ الحفل الخاص بتحديد موعد بين الضيف والسيدة المحترمة وهو معتقد أنه وصل إليها بسحره ووسامته ودكانه وأنه فتاك ساء ، وإن كان يضطر بعد ذلك إلى أن يستدعيني في لقاء خاص ويهجم في أذني بما وصل إليه وكأنه يظلمني على سر خطير لا علم لي به ، حتى أعد له المكان الخاص الذي سيلتقي فيه مع هذه السيدة . .

ومثل هذه العمليات التي تتم عن طريق صدقة العائلات تخفية لا تتحمل ميراثية العلاقات العامة تكاليفها . ولكن قد يتم مقابلها تحقيق صفقة تجارية أو عملية سمرة يقوم بها رجل العائلة ، وفي العال تتهي العملية هدية ثمينة تساوي آلاف الدولارات يقدمها الضيف إلى السيدة المحترمة

هذه هي الأنواع الثلاثة من الشخصيات التي كنت صبوراً معها .

وقد حققت لحسابي أرباحاً كثيرة عن طريق هذه الشخصيات بعد أن أسقطتها في شر الأسرار وأصبحت أقض نكل سر على عتر واحد منهم مما يضطره إلى أن يكسبني ويثقيني . . ولم يكن كل ما حققته هو هذه القفقات السريعة فوق السلك الدبلوماسي والتي وصلت بي في خلال عامين إلى رتبة الورير المقوض ، ولكنني استغذت كثيراً من الوساطة في تحقيق صفقات متعددة . . وأستطيع أن

أمر لان في وصلت إلى مستوى الطبقة الحاكمة حتى ولو كنت لا أعتبر سياسياً من بينها . .

وفي داخل السفارة كانت هناك شخصية مصت فترة طويلة وأنا حائر فيها . . وهي شخصية زوجة السفير . . إنها تعرف كل شيء . . وفي بيتها وفي حضورها كانت تتم كل هذه العمليات التي حدثت عها . وكانت تستغل أنواعاً من النساء تعلم أنهن من المحترفات بل كان من يبين أدنى أنواع المحترفات من فتيات لحانات والحمامات إلى أن تحملت أما المشوية ومنعت دعوة هذا النوع من المحترفات إلى داخل السفارة سواء في الحفلات العامة أو الخاصة والاقتصار على المحترفات الراقيات . . وقد قدرت أولاً أن الزوجة التي تقبل كل ذلك في بيتها لابد أنها راحة سهلة ، بل في قدرت أنها لا شك أن لديها الاستعداد لتزويج نفس ما تسمح به . . إن زوجها السفير له هذا النوع من حياة الليل فلماذا لا يكون من حقها هي الأخرى نفس الحياة . . وحاولت كثيراً أن أكتشف عن حياة خاصة تعيشها . . أن ألقى بها في بئر الأسرار مع باقي الرجال والنساء

ولكني لم أكتشف ولم أعرفها سراً . . وأكثر من ذلك ، حاولت أما بمعى أن أصل إليها . إلى كما قلت لك أتمتع بمجاذبية الوجود مجرد وجودي يشدني امرأة . . ومع هذه المجاذبية استعملت كل مواهي حتى أشد إلى السيدة زوجة السفير ، ولكنني فشلت . . وقد كانت متنبهة إلى محاولاتي وكانت تقابلها باتسامة هادئة صامدة تثير الاحترام لا التشجيع . وأخيراً خرجت من حيرتي إلى الاقتناع بأنها سيدة محترمة . . سيدة كاملة . وأن سكوتها على ما يجري في بيتها هو استسلام لحكم الطبيعة كزوجة سفير ، كما وأن سكوتها على تصرفات زوجها هو استسلام لعقد الزواج الذي ارتبط به أهلها . . وقد استطاعت هبوطها واستسلامها

للسواق أن تكتسب صداقة كل هؤلاء النساء المحترفات ونصف المحترفات والهاواة .
صداقة قائمة على مجرد الاحترام . . وكانت عندما يقام حفل في السمارة تعتمد
بجاهل نشاط وتحركات هؤلاء النساء ، ثم عندما تقدر أن الحفل وصل إلى مرحلة
يتغلب فيها تأثير الخمر تنسحب إلى الداخل في هدوء ، وتصحو في اليوم التالي
دون أن تسأل أحداً أو تحاسب أحداً عما تم . . وأصبحت هي الشخصية
الوحيدة التي أحترمها فعلا داخل السمارة بل ربما في البلد كله الذي أقيم فيه .
أصبحت صديقتي النطيفة . . أختي . . وكانت هي وحدها التي تعلم علاقتي
مع بهاناي . .

وصدقتني عندما أقول لك أنه رغم كل هذا الذي يحيط بي وأعيشه لم تكن لي
أي علاقة خاصة مع أي امرأة ، حتى ولا علاقة ليلة واحدة . . ربما لأني
أغار على حسدي وأجعل به تكملة لعروتي بنسبي وكأن هذا الجسد شيء
غالي لا يتبدل . . إلى أن قابلت بهاناي . . إنها امرأة من تايلاند . . فيها الجمال
الأسمر البودى الذي تشتهر به بنات جنوب شرق آسيا . . الشعر الأسود الناعم الذي
يسبب في عذارة كشلال الليل . . والقوام المشوق الصغير كأنه تحفة صاغها
فنان ليعلقها على صدره . . والأنسان البيضاء الناصعة التي تشرق مع ابتسامها
كأنها تضيئ لك الطريق إليها . . وبهاناي من عائلة كبيرة معروفة في تايلاند ،
وأما تتحدث أكثر محل أزياء هناك ، وأبوها يملك مصانع للحرير ، وقد سافرت
بهاناي إلى أمريكا لتتعلم إدارة الأعمال في جامعة بوسطن ، ولكنها كانت تقاوم منذ
صغرها إلحاح الفن عليها . . إنها هاتمة . تعني وتعزف على البيانو . . وهي تقاوم هذا الفن
حتى تستمر في الطريق الذي يجمع فيه أبوها وأماها . طريق إدارة المصانع وبيوت
الأزياء . . ووصل من مقاومتها لفنها أنها وهي في الجامعة ، في أمريكا ، تزوجت

رملة لها من نفس بلدها وأنجبت منه ولدتين ، حتى تجذبها المسئوليات العائلية بعيداً
عن مهنة تربطها أكثر بواقعها . . ولكنها عجزت عن الاستمرار . . وقبل أن تحصل
على الشهادة الجامعية في إدارة الأعمال قررت فجأة التوقف عن هذه الدراسة
وبدأت في دراسة الموسيقى . . فها . . ثم قررت أن تحترف الغناء والموسيقى ،
ورمى زوجها قتركه . . إنه لا يساوي شيئاً بجانب إحسانها بفنها . . وولدها
تركها في بيت العائلة . . وهي تجوب عواصم جنوب شرق آسيا وتعي ، وقد قابلتها
وهي تعني في صالة صغيرة في أحد الفنادق الكبرى وشدنتي إليها . . شعرها . .
واسمها التي تشرق في لونها الأسمر . . ورغم ذلك فعندها بدأت أتحدث إليها
كنت لا تزال تغلب مسئوليتي عن العلاقات العامة في السفارة فدعوتها إلى حفل
خاص كنت قد قررت إقامته لضيف كبير ممتاز :

وقالت بهاناي من خلال ابتسامتها :

- هل يفهم الضيف هذا النوع من الفناء الذي أغنيه ؟

وتعجبت للسؤال وقلت في وقاحة :

- لا أعتقد . . ولكن لا يهم الغناء . . يكفيك أنك جميلة ومن هذا النوع
من النساء ! ! .

وقالت بهاناي ضاحكة :

- إذن تستطيع أن تدعو صديقتي دانييل فهي تصلح أكثر لهذه
الدعوات . . إلى حتى لو اعتبرتي جميلة فأن مممة عندما أكون مع من لا يفهمي .
والشيء الجديد الذي طرأ على أني لم أحاول استعانة مرابي لإقناعها بقبول
الدعوة واكتفيت بأن دعوت صديقتي فعلا ، وبدأت من يومها أنزود كل ليلة
على الصالة التي تغني فيها وأحاول أن أهتمها . وفهمتها وفهمتي . . وارتبطنا بعلاقة

- طبعاً يمكن . .

ثم نظر إلى وقال كأنه يصدر أمراً سلطانياً :

- أذهب إلى المائدة . .

قلت كأتى أتوسل إليه :

- إنها ملة . وسيفرق منها سيادته .

وقال السفير كأنه يصرخ :

- إدعها . . لا تكن مجنوناً . .

وقلت في استسلام :

- حاضر . بعد أن انتهى من الغناء . .

وناديت المشرف على الصالة وهمت في أذنه . أن يذهب إلى بهاناي ويطلب منها ألا تكف عن الغناء ، ولم تكف فعلاً عن الغناء ، ولكن السفير بدأ يتصرف بالطريقة الساذجة المعروفة التي يتبعها أثرياء العرب في الكباريات فأمر بإرسال صندوق من زجاجات الشمبانيا إلى أعضاء الفرقة الموسيقية . . ثم قام وأخرج من جيبه ورقة نقدية تساوى ما قيمته مائة جنيه وحاول أن يلقفها على صدر بهاناي وعندما تراجعت عنه وهي تضحك أخرج ولاعة وأحرق الورقة النقدية تحية لها ثم أمر بإرسال أقفاص الورد لتوضع حولها ، وكل من في الصالة أصبح يتفرج علينا لا على بهاناي ، وانطلق حولنا كثير من الضحك والتصفيق لحركات السمر ، فأمر بدعوة كل من في الصالة على حساب . . كل ذلك وأنا حائر ماذا أفعل ، ثم قمت بسرعة وطلت من الجرسون أن يدعو دانييل صديقة بهاناي إلى المائدة لعلها تستطيع أن تجذب اهتمام الضيف الكبير وتتخذ بهاناي من هذا الاهتمام . . ولكن دانييل لم تكن في الصالة واستطاع الجرسون أن يجدها في مكان آخر وجاءت

إليها بينما بهاناي لا تزال تغنى وقد بدا عليها التعب من طول ما تغنى . وقلت للضيف الكبير وأنا أقدم له دانييل :

هذه ملكة جمال الدولة وقد جاءت خصيصاً عندما علمت أن سيادتكم هنا .

ولم يحول الضيف عينيه عن بهاناي وقال السفير ساخطاً :

- إننا لا نريد هذه . .

قلت في يأس :

- إنها فقط تؤنسنا إلى أن تنتهى بهاناي من الغناء . .

واضطرت بهاناي أن تنسى ، على الأقل لتستريح ، واضطرت إلى أن تنجس إلى ماكدلتا بعد كل هذا السخاء المجنون الذى أحاطها به السمر ، ونظرت إلى كأنها تسألني ماذا تفعل ، وأدوت عنها ناظري بسرعة حتى لا يتجسس السفير بشئ . أو يلحظ الضيف الكبير شيئاً . . ولم يكن هناك حديث يمكن أن يتم بين بهاناي والضيف الكبير فهو لا يعرف أى لغة يمكن أن يتحدث بها إليها ، وتولى الحديث كله السمر ، وقال لها إن الضيف الكبير يهمة أن يخفى بها لأمر هام . . وضحك .

وقالت بهاناي وهي تبتمس :

- هذا يشرقى . . ولكن الساعة الآن الثالثة صباحاً . . ويجب أن أحتمع

مع أفراد الأوركسترا لمراجعة الأغاني الجديدة . لنجعل لقاءاً غداً

وقال السفير وهو يبدو كمفاوض مبتدئ :

إنه يسامر غداً . تعالى . . وأفراد الفرقة يمكن أن ينتظروك . وستعوضك

ونعوضهم بما تريدون . .

ثم قام واقفاً وشد بهاناي من يدها ، واستسلمت له كمادة أفراد هذا الشعب ،

وحتى لا تثير أى مشكلة مع ضيف كبير من برلاء الفندق . وقال السمر للضيف الكبير .

- انفضل سيادتك .

ثم صحبا والضيف بجانبهما وأنا أنبههم سائراً خلفهم في صمت صغيـ
ر كآني قد انهرت وانتيت إلى أن وصلنا إلى المصعد ودخل الضيف ، ودفع السفير
بهاناي إلى جانبه . وقال ضاحكاً :

- الدور التاسع . . لانس سيادتك . . غرفت في الدور التاسع .
ووقفت أنا والسفير وبهاناي تبسم في من بعيد ابتسامة صديقة كأنها تشفق
بها علي ، وباب المصعد يعلق في وجهنا - أنا والسفير - ويرتفع بالضيف ومعه
بهاناي

ونظر إلى السفير في شماتة كأنه انتصر علي . . وسار خارجاً من الفندق وركب
سيارته دون أن يدعيني كمادته للركوب معه .

ولم أنم ليلتها ، لا لأني كنت أعاني أمراً عاطفياً من أجل بهاناي . . قلت
لك أنه لم يكن ما بيني وبينها حب . . ولكنني كنت أعاني الإحساس بأنني فقدت
مركزي . . فقدت سيطرتي على مثل هذه المواقف التي تدخل في صميم اختصاصي
لست أنا الذي حقق رعبات الضيف الكبير . . لست أنا الذي حمل بهاناي إليه . .
إنه السعير . . كان السفير طرفي من وظيفتي واستول على اختصاصي لنفسه .

معنى هذا أني حية . . أني فاشل لا أستطيع أن أقدر وأصرف وفقاً لتقدير صحيح . .
والواقع أني أخطأت في تقدير موقف بهاناي ، فقد كنت أعتقد أنها سترفض دعوة
الضيف الكبير فقد سبق أن رفضت كل الدعوات التي وجهتها إليها لحضور حفلات
السفارة ، أو لحضور الجلسات الخاصة ، بل رفضت حتى زيارة زوجة السعير .

وصحيح أني كنت أُنسلم ببساطة لهذا الرفض مفضلاً أن احتفظ بها لاستعمالي
الخاص ، ولكنني لم أكن أعتقد أنها يمكن أن تستجيب للإحاح أو محاولة أحد

د . . وقد استجابت للإحاح السفير . . أي أني في الواقع لم أكن أحاول أن
مهم الضيف من بهاناي ولكنني كنت أحاول أن أحميه من رفضها . . ولكن . .
م . . ولأني غني انتصر تقدير السفير للموقف على تقديري
إلى أن كان الصباح .

وعندما وصلت إلى السفارة أحسست بخوف غريب من التوتر ، وعرفت أن
سفير ورع سطحه ولعناته على كل الموظفين منذ وصل . . وعندما دخلت إليه
في مكتبه وحدته واقفاً يستعد للخروج ، ولم يمد يده لمصافحتي . بل لم يرد على
حقي ، وانتهى مباشرة إلى الباب ، وكنت أعلم أنه في طريقه إلى الفندق الذي
يمر فيه الضيف الكبير ، فقلت له :

هل ألتق بك ؟

وقال كأنه يصرخ في وجهي :

- لا . . انتظر هنا إلى أن أدعوك إلى هناك . .

وأُسرع خارجاً كأنه يرفض أن يتناقشني . . وانتظرت طويلاً وأنا حائر فلما يمكن
أن يكون قد حدث ، ثم لم أجد احتمال الانتظار وذهبت لألتقي بالضيف الكبير . .
وكاد في الحناج المخصص له مجتمعاً مع السفير ، ودخلت إليهما بلا استئذان
دون مركزي يعني من الاستئذان ، وعمرد أن دخلت رفيع إلى الضيف عنيته
كأنه دهش لوقاحتي ، وقال بسرعة :

- من فضلك . . انتظرا في الخارج . .

وانتظرت ولم يدعي أحد للدخول إلى أن خرج الضيف ومعه السعير في طريقهما
إلى المطار دون أن ينصت أحد منهما إلي . . ركبت سيارتي وليس معي إلا سكرتيري
الخاص جالساً بجانب السائق وذهبت إلى المطار . . وعندما اصطفعا بجانب

الطائرة مع المدعين الرسميين ومع بقية أعضاء السفارة ليرى بنا الضيف ويصافحنا قبل ركوبه ، لمس يدي المددولة لسة سريعة دون أن ينظر في وجهي . .

وسافر الضيف الكبير عائداً إلى بلدنا . .

وعرفت بعدها كل شيء . .

لقد هربت بهاناي من الضيف قبل أن يدخل بها إلى جناحه الخاص . .

وقد استقبلت الخبر بفرحة . فرحة استعادت ثقتي بنفسى ، وثقتى فى بهاناي . .

إن تقديري لم يكن خاطئاً ، وبهاناي لم تتحل عني . . ولكن هذه القرعة طارت

بسرعة وحل محلها الخوف . الخوف على مستقبل كله . . ترى ماذا قال السفير

للضيف الكبير حتى يبرر له ما حدث . وقد أسرع أولاً إلى بهاناي أسأفاً ،

فصاحت ضحكة كبيرة وقالت كأنها تروى بكته :

- لقد تركته يضغط على مفتاح الدور التاسع من مقايح المصعد ثم عافته

فى نفس اللحظة وضغط على مفتاح الدور الخامس . . وعندما وقف المصعد

حادثته باللفة التابلايدية وأنا أخرج وبقيت أحادثه وأنا واقفة أمامه خارج المصعد وأنا

واقفة أنه لا يفهم كلمة واحدة مما أقول إلى أن انعلق باب المصعد وصعد به وحده

إلى جناحه فى الدور التاسع . . ولم أنزل أنا فى المصعد الآخر ولا على السلم العمومى

خوفاً من أننى بك أو بالسفير فى هو المصدق ولكنى نزلت من سلم الحريق .

قلت :

- أنت مجنونة . .

قالت .

إلى لم أوافق أصلاً على الذهاب معه ولكن سفيركم هو الذى دفعنى دفعا

إلى المصعد . ثم ماذا بهم . . إن ما يريد منى يستطيع أن يناله من أى امرأة .

لم أشعر أى حرمته من شئ مهم . . هل تعرف ماذا كنت أقول له باللغة التى لا

يفهمها . . لم أكن أسبه أو أهينه أو أجرحه . . كنت أقول له إني أسفه لأنى

متعبة وأنا نستطيع أن نلتقى فى موعد آخر وأنى أعتز بإعجابه . . كنت أقول له

مثل هذه الكلام . . و . .

وقاطعتها :

الكلام الذى لا يفهمه . . إنك لا تقدرين ماذا يمكن أن يحدث لى لو

أطلق مثل هذا الرجل غضبه على . .

وقامت وجلست فوق ساق وأسقطت صدرها على صدرى وقالت وشفتاها

تقتربان من شفتى :

- لا تهتم . . أنا المسئولة عن كل ما يحدث .

وقد اجترعت فعلاً كيف أتصرف ، فقد عرفت أن السفير أبلغ الضيف الكبير

أنى أعتز هذه المرأة - بهاناي ملكاً خاصاً لى ، وأنى أرفض حتى دعوتها لإحياء

المحلات الرسمية فى السفارة لمجرد إلقاء أغانيها ، وأنه - أى السفير - واثق لى أنا

الذى حرصتها على أن تهرب منه . .

وكان معنى هذا أن أنتظر طردى من السلك الدبلوماسى أو على الأقل نقلى

إلى بلد مقطوع المصلات من بلدان أفريقيا مثلاً ، وقد تصب على لحة أكبر من ذلك .

وكررت أن أكسب تقريراً حصاً أرسله إلى الشخصية هامة التى عجزت عن

أوفها حقها من تقاليد السلك الدبلوماسى .

وفكرت أن أعود بنفسى إلى بلدى وأحاول أن ألتقى به وأشرح له كل الظروف

التي أحاطت بالموقف وأئت عدم تقصيرى فى ممارسة العلاقات العامة أو تدخلها

أى تدخل مضاد . .

إلى أن استشرت صديقتي روعة المير التي أحرمها وأعتز برصدها عني .
فقلت لي في بساطة :

- أرسلها إليه .

قلت :

- كيف ؟

قالت وهي تنظر إلي كأنني طفل صغير لم يتعلم بعد :

- لا أدري كيف . ولكن أقنعها بأن تذهب إلى بلدنا وحاول أن تجد وسيلة تقنع بها صاحبنا بأنها جاءت حصيصاً لبقائه بعد أن وقعت في غرامه .

وهرت بالفكرة ، وقلت يد السيدة المحترمة شكراً وامتناناً ، وأسهرت أجلي إلى بهائى ، وقلت لها وكأنى ألثت من ضغط حيرتى وخوفى :

لقد قلت لي أنك المسئولة . وإلى مهند بالطرد من وظيفتي بسببك .

قالت من خلال ابتسامتها :

- ماذا بهم . إن وظيفتك تحبطك بشيود ثقيلة الدم . إبحث عن عمل

آخر .

إنها لا تعلم أن وظيفتي ليست مجرد منصب في السلك الدبلوماسي ، إن هذه الوظيفة هي التي أحقق عن طريقها كل الصفقات الأخرى التي أصبحت بها واحداً من كبار الأثرياء . وهي لا تعلم أن طردى معناه أنني أصبحت مبعداً عن أصحاب الحكم واليعدون في بلادنا لا يستطيعون الحياة إلا اعتماداً على أموالهم المهرية ، فإذا لم تكن لهم أموال مهريه عاشوا على الاستجداء . إن المبدأ في بلادنا معناه أنه وصل إلى قيمة الصفر ، حتى أتى أحياناً تطلبني هوايتي للفلسفة الاجتماعية وأفكر في أن أطالب الدولة بافتتاح ملجأ للمبطلين كملاجئ الأيتام .

ود قلت كل ذلك لبهاى حتى أقنعتها بأن كل حياتي أصبحت في خطر إلى أن اقنعت قائلة :

ماذا تريدني أن أفعل . .

قلت في حماس :

- تسافرين إلى بلدي وتلتقيين به هناك . .

قالت في تردد :

- ولكن إن . .

واقطعنا :

- سندفع لك ضعف قيمة دخلك الذي تحصلين عليه من هنا . . ليس

فقط قيمة مرتك من إدارة الفندق ولكن قيمة دخلك من المعجيين وهناك

في بلادنا إذاً أصبحت في الوصول إلى صاحبنا فني أنك ستعودين مليونيرة

ووافقت بهائى ، وأقنعت نفسي أنها وافقت لا طمعاً فيها وعدتها به ولكن حباً

في شخصي الضعيف . وبدأت أضع معها تفاصيل الخطة . إنها سترسل خطاباً

إلى الشخصية الهامة الكبيرة - ولاحظ أني أتعمد عدم ذكر لقبها حتى لا أفصح

عني . نعتذر له فيه عما حدث ، ونرضيه كلمات الإعجاب والتأثر بشخصه ،

ونقول إنها حتى تؤكد إعتبارها فقد قررت أن تزوره في بلده . ولا يهم بعد ذلك

أن تنتظر رداً . يكفي أن تنتظر مدة كافية حتى تطمش إلى وصول الخطاب وبعددها

تسهر ، ويكون سكرتيري الخاص قد سافر قبلها لينجهد لوصولها ويدرس الموقف

ويتصل في لحدود هل تسافر بهائى وتقدم نفسها كفنانة أحسبه وتنفق

على إحياء بضع حفلات في الفنادق الكبير هناك ، أم تصل كمجرد سائحة

دون أن تنته أحد إلى وصولها بحيث يبقى اتصالها بالشخصية الكبيرة سراً . ثم بعد أن

تقرر كل ذلك وبعد أن تنجح في لقاء صاحبنا فقد إتفقت معها على تفاصيل الكلام الذي يجب أن نقوله له . . يجب أن تؤكد له أنها لم تأت إليه إلا عن طريق . طريق أنا . أنا التي أعددت كل شيء . أما السفير فهي ترفض دائماً الاتصال به لأنه حاول معها كثيراً وكانت تصده . . وكلام كثير قدرت أنه يخدمني ويبعد عني شر السفير . .

وسافرت بهاباى فعلا إلى بلدى . .

سافرت دون أن يعلم السفير وأعطيها « الفيزا » دون إيدنه ودون أن يعلم بهمه الفيزا أى واحد من السفارة . .

هل تعلم كم كلفتنا عملية سفر أو تسفير بهاباى ؟ كلفتنا حوالى ستين ألف دولار . . لا يهم . . وأنى أعلم أنها لو نجحت في مهمتها مع صاحبنا فستحصل منه - أى من أموال الدولة - على أكثر من ذلك بكثير . .

المهم أنى كنت أعيش منذ سفرها إلى انتظار الأخبار . .

أعيش كأنى في انتظار كلمة القدر . .

وعلاقتى مع السفير تتوتر يوماً بعد يوم ، ولولا أنه واحد ممن أحفظ بهم في بئر الأسرار لما حاول أن يراعى معى حتى مجرد مظاهر التقاليد الرسمية التى تجمع بين السفير والوزير المفوض . . إنه أيضاً في انتظار أخبار . . أخبار نقل أو إحالتى إلى ملجأ المبعدين . .

إنى في عذاب . .

عذاب الانتظار لتتأخر أدق خطوة دبلوماسية وضحتها في حياتى . .



يا عزى الأستاذ . .

لا أريد أن أطيل عليك فعندى ما هو أهم أو ما هو أمتع لأقوله لك ،

وقد بحثت الخطة التى وضعتها مع مهاباى ، واعتبرتها من أروع خطط العلاقات العامة التى حققتها . . وقد التقت مهاباى هناك - في بلدى بصاحب الشخصية الرسمية الكبيرة الهامة وأعطته كل ما أراد ، وأعطاها أكثر مما أرادت وهما كانت تحلم به ، واستطاعت أن تبيد كل شكوكه التى ثارت حولى ، وأن تحو الصورة التى رسمها لى السفير ، وعاد سكرتيرى الخاص وروى لى كل التفاصيل التى كانت تبلفها له مهاباى أولاً بأول ، وأصبحت مطمئناً إلى مستقبل ومطمئناً إلى أن الشخصية الكبيرة قد عادت وحدهأت داخل بئر الأسرار التى أمتلكها . . أما مهاباى نفسها فإنها لم تعد . . سافرت إلى أوروبا بعد أن انتهت زيارتها لبلدى ، وقطعت اتصالاتها بى . . لم أعد أعرف عنها شيئاً ولا أهتم بأن أعرف شيئاً . .

وكانت علاقتى بالسفير مستمرة في توترها إلى أن بدأ يئأس من صدور قرار بنقل من السفارة أو بإحالتى إلى ملجأ المبعدين ، فبدأ يلين معى ويعود إلى نعمة إزالة الكلفة بيننا وربما كان قد سمع عن سفر مهاباى إلى البلد ولقائها بالشخصية الكبيرة وقدر أنى دائماً أقوى منه وأذكرى منه في التخطيط الدبلوماسى ، ثم يحاول أن يسألنى أو يناقشنى أو يحاسبنى على إعطاء « فيزا » للدخول دون علمه أو علم أحد من موظفى السفارة ، حتى لا يثير بينى وبينه أزمة جديدة ، وعاد إلى أضعف مما كان ، وكنت أشفق عليه لأنى كنت واثقاً أنى أنا الذى أستطيع أن

أنقله أو أحيله إلى علاجاً للمعدين فإني أملك أسرارهم وأسرار الذين يملكون حتى الإطاحة بأى مؤلف فى البلد . . أنا صاحب بشر الأسرار . . ولم يعف السعير من غضبى إلا تقديري واحترامى للسيدة زوجته . . لولاها لأطلعت به . . ولكن . .

صلقتى أنى بدأت فى هذه الأيام أزهر وأزهر من نفسى ومن كل ما يحيط بى أزهر وأزهر من عملى . . بدأ إحساسى بأنه عمل قلدر يؤرقى ويعذبنى . . ومع اعتبار أنه عمل وطنى ، إلا أن كثيراً من الأعمال الوطنية تفرض الإلتجاء إلى القذارة . . كالجاسوسية مثلاً . . إن التجسس سواء فى المجال الخارجى أو المجال الداخلى لا شك أنه يعتبر عملاً وطنياً رئيسياً ولكنه لا شك أيضاً أنه عمل يعتمد على عمليات قلرة ، وأخطر ما يهدد الجاسوس فى عمله وفى مصيره هو إحساسه بأنه يقوم بعمل قلدر . . إن الجاسوس الناجح القوي هو الذى لا يتأثر بأى إحساس بالقذارة ، بل يؤدى أقدر مهمة وهو ملئ بالإحساس بأنه يقود مهمة وطنية ، كالمقاتل الذى لا يحس بأنه يقتل بل يحس بأنه يؤدى خدمة لبلده . . كذلك مهمة العلاقات العامة خصوصاً الجانب النسائى منها ، لا شك أنها عمليات وطنية كما سبق أن شرحت لك ، رغم كل ما فيها من قذارة ، المهم ألا نحس بهذه القذارة ، ولكنى بدأت أحس بها . . بدأت أقفد متعة الاهتمام بالعمليات التى أقوم بها . . وبدأت أهرب من كثير من هذه العمليات ، وأدعى المرض حتى لا أشارك فى استقبال كبار الوافدين من بلدنا وبدأت أتمنى الراحة . . الراحة النفسية والراحة الذهنية . . أريد أن أحاول تحقيق حلمى القديم عندما كنت لا أزال طالباً فى الجامعة عنديكم ، وهو أن أستمع فى دراسة الفلسفة إلى أن أحصل على الدكتوراة وأصدر عدة كتب ، لا تزال تفحصها تشمل فلسفة المجتمع العربى . . على الأقل أريد أن أرفع نفسى عن مستوى القذارة . .

ولم يكن هذا سهلاً . . إن الحياة التى تعودتها استولت على ، والنجاح الذى حققته وما جمعت من ورائه من أموال أصبح أقوى منى . . إن الإنسان الناجح لا يشبع أبداً من النجاح ، ولا يكتفى أبداً بترائه . . ليس هناك حد أعلى للنجاح ولا للثراء ، ولذلك لم أستطع أن أتخذ قراراً بتغيير شخصيتى الرسمية والبحث عن شخصية جديدة وعمل جديد بعيداً عن القذارة والقرقر ، كل ما استطعته هو أن أمتنع عنى أحاجة ، وحتى هذا لم يكن سهلاً ، فخلال السنوات الخمس منذ التحقت بالعمل الدبلوماسى لم أمتنع نفسى أحاجة بل أنى كنت أتنازل عن الأجازات الرسمية . .

وقررت أن أقضى الأحجازة فى اليابان . . أقرب بلد إلى مركز عملى . . وكنت قد ذهبت إلى اليابان قبل ذلك عدة مرات فى عمليات سريعة خاطفة ، ولكنى أذهب هذه المرة فى أحاجة . .

وقررت أن أخفى وجودى فى طوكيو عن كل أصدقائى من رجال السفارات العربية . . أريد أن أكون وحدى بعيداً عن جو الرسميات وبعيداً عن كل ما يذكرنى بعمل ، وفضيت الأيام الأولى وأنا أطوف بالمكتبات وأجمع الكتب التى أرى أنها يمكن أن تساعدنى على استعادة اهتمامى بدراسة الفلسفة ، ثم أتعهد أن أقضى الليل وأنا أحاول أن أقرأ . . وصدقنى . . لم أعد أستطيع القراءة . . ليس فقط لأن لغتى الإنجليزية إزدادت ضعفاً ، ولكن لأنى فقدت التعود على القراءة . . فقدت قدرتى على تركيز عقلى فيما أقرأ . . ورغم ذلك فقد كنت أقصر على نفسى القراءة كأن فى داخل طفل صغيراً يشده أبوه إلى المدرسة غضباً عنه . . وكنت خلال النهار أنزود أحياناً على دكان داخل الفنلق الكبير الذى أقيم فيه مختص ببيع آلات التصوير والأفلام . . كان من بين ما أحاوله بجانب القراءة هو محاولة اكتساب

هواية التصوير . وعرفني صاحب الدكان وعرفته من طول الوقت الذي كنت أقضيه معه وهو يطلعني على آخر الآلات وآخر تطورات فن التصوير . . . وكنت يوماً في دكان الصور الفوتوغرافية . . .

ودخلت فتاة رائعة ليست يابانية وقدرت فوراً من لهجة حديثها أنها أمريكية . . لم تكن مجرد فتاة جميلة ، ولكن كان فيها نوع من جلال الرفع والتعالى . . نظرات عينيها تحيط بكل ما حولها في ثقة وغرور كأنها موكب رسمي يتقدمها . . وأصابع يديها رفيعة طويلة تحمل بيننا خاتماً ماسياً لا يقل حجمه عن ثلاثة قواريط تحركها كأنها تعزف بها على رؤوس كل الذين يقفون أمامها اللحن الذي تريده . . وكان معها فتاة أخرى جميلة أيضاً وتسير خلفها وقدوت أنها لا شك سكرتيرتها أو وصيفتها . .

وتحدثت الفتاة الأمريكية الرائعة إلى صاحب الدكان في لهجة أمرة رغم نعومتها ، وكانت تلمحه على آلة سبق أن باعها لها ، وقالت في بساطة كأن من حقها أن تبين شعب اليابان كله :

- إنكم هنا تتقنون كل جديد يظهر في أي مكان من العالم ، ولكن عيبكم أنكم تنتظرون أكثر من أسرع حتى تصلوا إلى الحديد الذي يظهر بعده في حين أن ما بعده يظهر بعد يوم واحد . .

وقال صاحب الدكان في احترام كبير وهو يحنى برأسه وطهره عدة مرات على الطريقة اليابانية :

- هذه آخر آلة وصلتنا . . وصلتنا أمس . .

وبسرعة كان ذكائي كله قد يجمع وترتكز حول هذا الجمال المتعالي . فتدخلت وقلت وأنا أشير إلى الآلة التي أحملها وكان يعرضها على مند دقاتي :

ولكنك قلت لي إن هذه الآلة وصلت البيع لا أمس . . ثم التفت إلى الفتاة الرائعة قائلاً وأنا أقدم لها آلتى :

أعتقد أنها تختلف . .

وبطرت لي نظرة سريعة أحسست أنها طوفتني بها كلى كأنها التفتت كل مداسي . . ثم مدت يدها وأخذت مني الآلة وبدأت تفحصها كأنها عالمة متخصصة في علم التصوير ، ثم قالت :

- فضلاً إن فيها شيئاً جديداً مختلفاً .

واستمر بيننا الحديث . . أنا وهي وصاحب الدكان ، بينما الفتاة الأخرى صامتة لا تتكلم كأنها في انتظار أوامر سيدتها . . وفي خلال الحديث قال لها صاحب الدكان مشيراً إلى :

- إنه عربي . .

وتفتحت عيناها في وضعة سريعة واتسعت ابتسامتها قليلاً وقالت :

- هل صحيح . . أنت عربي ؟

قلت ضاحكاً :

- نعم . . ولكني من بلد ليس فيه بترول . .

قالت من خلال ابتسامتها كأنها لا تصدقني :

- هل هناك بلد عربي لا يملك البترول . .

قلت :

- كثير . .

ولا أدري ما الذي دفع ذكائي إلى الكذب عليها ، ربما لأني كنت أريد أن أقنعها بأنني أرق من أبناء دول البترول العربي ، أو أنني أردت أن أقدم لها نفسي

على أنى أتعهد على ثقافتى وصل لا على دخلى من البترول ، أو ربما أدوت أن أختبرها
لأكتشف ما إذا كانت إحدى النساء اللاتي يندفعن وراء إغراء رجال البترول ،
أقصد ، فلوس البترول ، أم أنها ليست من هذا النوع . . امرأة شيعانة . . ومن
يدرى ربما كانت هى نفسها ابنة أحد أصحاب شركات إنتاج البترول . .
وقلت متودداً :

— ألم تنهني إلى إحدى الدول المريبة . .

قالت :

— لا . .

قلت :

— يشرقتى أن أدعوك .

قالت ضاحكة وهى تهم بمطاردة الدكان :

— إنها دعوة تحتاج إلى تفكير طويل . .

قلت :

— هل أستطيع أن ألقاك حتى أساعدك على التفكير . .

ونظرت إلى نظرة احترت فيها ، هل هى نظرة فرحة أم نظرة ساخرة ، وقالت :

— إنك تقمى فى نفس الفندق . . أليس كذلك . . ما هو رقم غرفتك

لأحصل بك . . .

وأعطيتها رقم الغرفة ، وتركتنى بعد أن لفتنى بابتسامتها . . وأحسست فعلاً
أنى ملفوف فى هذه الابتسامة حتى خيالى لفته معها ، وبدأت أنحيل بها كل مستقبلى . .
إنها لا شك ابنة عائلة أمريكية غنية . . إنها مليونيرة أو ابنة مليونير . . وهى

فرصة لأفتح لنفسى مجتمعاً جديداً ومستقبلاً جديداً . . قد أتزوجها . . لماذا
لا أتزوج . . إن هذا النوع من النساء الذى كنت أتعامل معه كان ينفردى من
تصكيرى فى الزواج ، كان يدفعنى إلى تصور أن كل نساء الأرض من هذا النوع ،
ولكن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون من هذا النوع . . وحتى لو كان لها ماض
فلا يمكن أن تكون محترقة ، والنساء فى المجتمعات المتقدمة لا يحاسبن أحد على
الماضى ولكنن يحاسبن على المستقبل . . فلنفرص أن لها ماضياً . . لا يهم . .
أتزوجها . . وبعد أن أتزوجها يصبح من حقى بحكم القانون الأمريكى أن أحصل
على الجنسية الأمريكية . . أى أنى لا أتزوج هذه وحدها ولكنى أتزوج أمريكا
كدها . . وأحسست بفرحة تملأ صدرى كله وأنا أنحيل نفسى وقد أصبحت أمريكياً ،
وربما تلومنى على هذه الفرحة لأنى أعلم أنك متمز فى وطنيتك ، ولكن التجنس لم
يعدله اليوم علاقة بالوطنية ، أصبح أشه بعقد عمل . . تعطيك الدولة التى نحمل
جنسيتها كذا نظير أن تدفع لها كذا ، وتستطيع فى الوقت نفسه أن تحتفظ لوطنك
الأصلى بكل عواطفك وأن تبرع له بكل ما تريد التبرع به حتى لو تبرعت له
بروحك فى قتال . . هذا هو الآن واقع الإنسانية الدولية . .

وكل هذا الفكر يسيطر على خواطرى وأنا جالس فى غرفتى بالفندق و انتظار
دقات جرس التليفون لأسمع صوتها . لا أستطيع القراءة طبعاً . . ولا أستطيع أن
أشغل فكرى بأى شىء آخر . . إن كل فكرى مركز فى مشروعى الجديد . .
والساعة وصلت التاسعة مساء وجرس التليفون لم يبق . . وبدأت تقضى فى نفسى
تهتز . . تقضى فى وسامتى وقوة الجذب التى يفرضها دائماً وجودى . . ربما كانت
هذه الفتاة أقوى من قوة جلدى . . لا يمكن أن تطالبى بعد الساعة التاسعة . .
فالت الوقت الذى يمكن أن تنق فىه على لقاء سهرة . . وخرحت من غرفتى وذهبت

إلى « بار » الفندق وأنا أتلفت حولي في كل خطوة أبحث عنها وكأنه يمكن أن
تجمعتا المصادفة مرة ثانية .. ووجدت نفسي أستسلم لكوكوس الويسكي على
غير ما تعودت .. سكوت وعدت إلى فراشي وألقيت نفسي عليه كأنني أصبحت
جثة هامدة ..

وفي اليوم التالي ، وبعد أن تغلبت على الصداع الذي تركه في رأسي كوكوس
الويسكي ، عدت أفكر في هذه الفتاة الأمريكية .. هل اتصل بها .. إنني
" طبعاً أن أعرف رقم غرفتها لو أردت .. ولكن هل اتصل بها .. لا .. إن اتصالي بها
يضعني أمامها .. لأنتظر اليوم أيضاً ..
ويجحت بانتظاري ..

دق جرس التليفون في الساعة السابعة مساء وقالت كأننا أصدقائه قداماء :
- أنا جوانا .. أين كنت ليلة أمس .. اتصلت بك في الساعة العاشرة
ولم أجلك ..

قلت :
- انتظرتك حتى التاسعة ثم يشت ..

قالت :
- آسفة .. تأخرت عليك .. كنت مشغولة .

قلت :
- سأراك الليلة .. أين ؟

قالت :
- في جناحي الخاص .. ههنا متجد كل شيء .. ونستطيع أن نتعرف
أسرع ..

قلت :

- موافق .. وسعيد ..

قالت :

- ولكن .. هل أمرت السائق بأن يضع سيارتي في الجاراج ..
ولم أفهم شيئاً وقلت في سداجة :

- آسف .. ماذا تقولين ؟

وكمرت نفس الكلام :

- هل أمرت السائق بأن يضع سيارتي في الجاراج
وعدت أقول :

- لا أفهم .. أي سائق وأي سيارة ؟ !

وصحكت ضحكة خافتة وقالت في صوت هادي :

- سيبت أنك غريب وقد لا تفهم هذا التعبير .. إنني أريد أن أقول لك
إنني سأكلفك كثيراً ..

قلت وأنا أحاول أن أكرر ما سمعته :

- ماذا تقصدين ؟

قالت :

- الجناح الذي نلتقي فيه له ثمن .. والطلبات لها ثمن .. وأنا لي ثمن ..
وأحسست كأن زلزالاً ثار في داخلي وهدم كل حبالى وكل خواطري وقلت

والصدمة ترك في لساني طعم الخيبة والقرف :

- آسف .. وقد سبق أن قلت لك إنني رغم أنني عربي فإنني من دولة ليس فيها
بنزول .. لست غنياً .. وقد حثت إلى طوكيو مدعواً وأقيم على حساب الدعوة ..

وليس في جيبي إلا ما يكفي مصروفى الخاص . .

قالت والأسف يقطر فعلا من كلماتها :

- خصاصة . . . لقد أصعبت بك فعلاً منذ رأيتك . . امهم . . إن أقل ما أستطيع

أن أقل هو خمسمائة دولار . . هل تستطيع ؟

وقلت وأنا أكبت غيظي من خيبي :

- أرحوك ، دعبنى أفكر . .

قالت في بساطة :

- سأنتظر منك تليفوناً حتى الساعة الثامنة . وأنا آسفة . . ويجب أن تقدر

أن الحياة مكلفة . .

وتركني أقام آثار هذا الزلزال الذى أطلقته في صدرى . . ويبدو أن كل

نصيبى في الحياة هو هذا النوع من الساء . . يبدو أن قوة الوجود التى أدعياها

لنفسى لا تؤثر إلا في هذا النوع ، فلم تنحذب إلى أبداً فتاة ليست محترقة أو ليست

على استعداد للاحتراق . . ولكنى لم أكن أعقد أن هذا يمكن أن يكون نصيبى

حتى مع فتاة أمريكية ألتقى بها في طوكيو . . والحضارة الأمريكية مسيطرة

سيطرة كاملة على اليابان . . كل الحياة في اليابان تأمركت . . ولكنى لم أكن

أعقد أن الأمريكان استولوا على كل شيء حتى على أسواق الدعارة . .

وربما كانت حوايا ليست سوى إحدى الفتيات اللاتي يسمونهن في أمريكا

« فتيات التبعون » وقد مدت نشاطها ومعاملتها كما تفعل الشركات الأمريكية

حتى وصلت نفسها إلى اليابان وربما مدت سيطرتها هنا حتى تصل إلى بيوت الجيша

فتؤمركها هي الأخرى .

ولكن لماذا أقام نصيبى في الحياة . . لماذا أعود بنفسى إلى أيام الطفولة

الاجتماعية عندما كنا نؤمن أن الحياة كلها هي مجموعة من المبادئ العامة . .

الشرف . الأمانة . . الوطنية . . الحرية . . و . . و . . وأترك هذه

المبادئ العامة تشعرني بأن أقيم بأعمال قدرة . . إن الدعارة ليست أكثر قدارة

من القدرة السياسية أو القدرة الاقتصادية التى تعيشها المجتمعات الرسمية والراقية

في كل أنحاء العالم . . المرأة الداعر أنظف وأصرح لأنها لا تكذب على أحد

ولا تخدع أحداً ، إنها تمارس الخطيئة وهي متحملة كل مسؤولياتها حتى أمام الله ، أما

السياسى الداعر أو الاقتصادى الداعر فهو يكذب حتى على الله . . يكذب ،

ويؤذى . . وحتى بالنسبة لنفسى . . ما هو أشرف لي كعمل أتحمّل مسؤوليته . .

أن أعد ليلة يقضها أحد المسؤولين من ضيوفنا بصحبة امرأة حتى أحمله من امرأة

أخرى قد تكون حاسوسة أو عميلة مسلطة عليه أو على بلدى . . أم أشرت في عملية

اقتصادية لحصل منها على عمولة وأستنزف بها أموال ومصالح شعبي . . إن في

العملية الأولى يسموني « قواداً » وفي العملية الثانية أسمى « إقتصادى » أو رجل

أعمال . أينما أشرف لي لأكونه . . قواداً أم رجل أعمال إذن لماذا أفتزز من

جوانا بعد أن أكتشفت أنها تحترف الدعارة . . لماذا لا اعتبرها مجرد سيدة أعمال

وأصطادها لأتقي بها طمعاً في بحر الأسرار . . لقد كنت أريد أن أعتبر بنفسى

في أجازة . . لا لست في أجازة .

والثورة على نفسى تستبد لي إلى أن رفعت سماعة التبعون واتصلت بجوانا

وقلت في لهجة جادة سريعة كأني أصدر قراراً خاصاً بصفقة هامة :

- أعددت ما تطلين . . متى ألكاك ؟

قالت كأنها تزغرد :

- راجع . . أغفيتني من حيرة البحث عن آخر . . أنتظرك التاسعة . .

وذهبت إليها . .

إنها هي حتى بعد أن عرقها على حقيقتها . . الجمال الرائع المتعالى الراضع المتعصف . وكأن كل ما تحدثنا فيه ليس سوى صفة بحارية شريفة لا تؤثر في هذا المتعالى والتعفف . . وأصابعها الرقيقة الطويلة تمتد وتتحرك فوق يديها كأنها تعرف بها على رؤوس كل من يقف أمامها اللحن الذي تريده ، وكأنها رعم اجترافها لا تعرف إلا اللحن الذي تريده . . والجناح الذي تقيم فيه هو نفس الجناح الذي يمكن أن يقيم فيه حاكم من الحكام أو أميرة من الأميرات كأنها تعتمد أن تضع نفسها في نفس المستوى وهي واثقة دائماً بأنها تستطيع أن تحصل على تكاليف هذا المستوى . . إنها من نفس نوع نساء العائلات اللاتي سبق أن حدثت عنهن . نفس مستوى الحليظة العالية . .

وأخرجت من جيبي بمجرد أن جلست مظهرًا يحمل الدولارات وقالت :

— حتى أظمنتك . .

والضغطة المظروف بأطراف أصابعها الطويلة الرقيقة وقالت في تأفف متعال :

— شكرًا . .

ثم ألقت المظروف على مائدة بعيدة ، وقالت :

— أرحو أن نتعجب وتعدى ما فيه ، فقد أعطيت أكثر حتى تعطيني أكثر . .

وكننت قد وضعت في المظروف ألف دولار بدلا من الخمسمائة التي طلبتها ، ولكنها لم تفتح المظروف وتركته بعيداً وقالت وهي تقترب مني وحسدها العاري يبلو من خلف القرب الشفاف كشعاع من النور :

— لا يهم ما تعطيني وما أعطيت . . الذي يهم هو إحساسك وأنت تعطيني

إن الفنان يستطيع أن يرسم صورة فتبدو عادية ويرسم نفس الصورة فتبدو رائعة ،

لأنه رسم الأولى بناء على طلب زيون ورسم الثانية بناء على إلحاح إحساسه . . كل شيء في الحياة فن . . والفن إحساس لا يمكن أن تقدر له ثمنًا . .

واستدارت تعدى كأس الويسكي ، وقالت :

— وهل أنا زيون أم إحساس . .

قالت وهي تقدم لي الكأس ثم تجلس بعيداً على المقعد المقابل :

— أنت أعجبني وأترقي منذ وأنتك . . تركتني أحس كأنني أريد أن أكتشف

علاً جديداً . . ولا أدري إلى ماذا سيؤدي هذا الإحساس في الساعات التي يعيشها

الآن . . ربما اكتفيت بك كزبون تشرفت به وربما أترقي كإحساس يتعلق بك . .

هكذا كانت تتكلم . . فلسفة صريحة رائعة لا تعتمد على كلمات مزيفة

ولا آراء علمية . . إنها تقول في صدق كل ما تحس به فعلاً .

واستمر حديثها طويلاً وكأننا في حلقة عائلية تضم زوجاً وزوجة في إحدى

يدي شهر العسل ، إلى أن قالت خلال الحديث :

— هل تعرف فهمان البارجي .

وبهرت كأنني أقفز بصوت من فوق مقعدي :

— هل تعرفينه ؟

قالت في هدوء :

— عرفته بعض الوقت في بوسطن . . إنه ذكي وكريم . .

واستعدت صورة البارجي في خيالي . إن كل الناس تعرف فهمان البارجي ، إنه

نسخ رجل أعمال عربي بل إن نجاحه أصبح يقارن بنجاح رجال الأعمال العالميين

وقد بدأ نجاحه معتمداً على نفس العلم الذي اعتمدنا عليه ، عدم أو فن العلاقات

لجامعة ، والاتصالات الشخصية . . ورغم أنني لا أعرفه شخصياً إلا أنني كنت أعتبره من

بعيد أستاذي ، وأعتبره الأمل الذي أتمنى تحقيقه ، وكنت أغار منه وأحقد عليه أحياناً ولكنه كان أضخم وأكبر من أن تصل إليه عبرتي أو حقدى . وربما كان يمكن بالعمليات التي أقوم بها أن أصل إلى مستواه ، لولا أنه يقوم بعمليات لم أستطع أن أحقق مثلها حتى اليوم . . عمليات الأسلحة . . إنك لا تدري كم تستطيع أن تكسب من عملية واحدة للسلاح . . ربما أكثر من عشرة ملايين دولار . . إن هناك صحفياً شاباً في إحدى البلاد الغربية أستطاع أن يحقق بعملية سلاح واحدة أضعاف ما كسبه صحافة بلده - صحافة - في عشر سنوات . . وآه لو استطعت أن أصل إلى عملية سلاح واحدة . . تكفيني عملية واحدة وبمدها أتوب إلى الله . . وجوانا كانت تعرف فهمان البارجي ، ولابد أنه استخدمها في بعض عملياته . . أي أنها مرت بتجارب وأصبحت خبيرة في فن العلاقات العامة ، وفهمان البارجي لا يمكن أن يستخدم أحداً سواء كان رجلاً أو امرأة إلا وهو واثق أنه يستطيع أن يحقق ما يريد منه . .

وبسرعة انقلب تفكيري كله وانحصر في موضوع واحد حتى أتى لم أعد أرى جسد جوانا العاري من خلف ثوبها الشعاف إنما عيناى مركبتان فوق جبينها كأنى أحاول أن أقبس ذكائها وأحاول أن أقنع نفسي بالاطمئنان ، ثم قلت لها : - جوانا . . لقد كذبت عليك . . فأني لست هنا في طوكيو بناء على دعوة . . إلى في جولة حرة . . وأنا وزير مقوض في السلك الدبلوماسي في بلدى . . والأهم من ذلك إلى رجل أعمال . .

ولم تدهش جوانا وهي تسمع اسم بلدى رغم أتى كنت قد ادعيت أمامها أتى مصرى حتى لا تتبني من أبناء البترول ، وكأنها كانت تعرف الحقيقة ، وقالت وكأنها تربت على خدلى بإبسامتها الحلوة المترفة :

ولماذا كذبت ؟

قلت ضاحكاً :

كنت أريد أن تقى في حبي لا في ثرائى . .

قلت :

وهل الحب لا يكون إلا مع الفقر . .

قلت :

- لا . . ولكنه لا يشترى . . والرجل الغنى كالفتاة الغنية كل منهما يعاني من عقدة الإحساس بأن لا أحد يحبه ولكن كل الناس تحب أمواله . .

قالت :

- إن الحب يفرض أن يعيش الرجل والمرأة في مستوى واحد ، فإذا كان فقيراً جمعهما الفقر ، وإذا كان مليونيراً فيجب أن يرضعها إلى مستوى المليونيرات . . هل أنت مليونير ؟

قلت :

- على وشك أن أكون .

قالت :

- ولماذا قررت أن تصارحنى بالحقيقة . . حقيقتك ؟

قلت وأنا أنظر إليها كأنى أغريها :

- لأننى في حاجة إليك ، وقد استطعت بسرعة أن تقتنعني بنفسك . . وأنت تعلمين أن كل رجل أعمال في حاجة إلى من تساهم معه في مشكلاته الاجتماعية . . وأريد أن أعرض عليك أن تنضم إلى . . أقصد للعمل معى . وظننت إلى كأنها تحاول أن تعرفنى أكثر وقد نسبت هى الأخرى جسدها العارى

تحت ثوبها الشفاف ، وقالت :

- كيف .. كيف أتفرغ لك .. لعلك تقصد ألا أكون لرجل آخر ..

وأجبها كأني أنني تهمة :

لا .. قلت إني أريدك أن تتعرض لي في العمل لا أن تتعرض لي في الفراش .

وعادت تنظر إلى صامته نظرة طويلة ثم قالت :

- موافقة .. إنها فكرة تستحق التجربة ..

قلت فرحاً :

- والتجربة تبدأ بأن تعتبرى كل تكاليف إقامتك في طوكيو على حسابي

الخاص ، أقصد على حساب مكنتي ..

قالت وهي أيضاً فرحة :

- هذا يعني من البحث عن أى رجل آخر .. أستطيع أن أتفرغ لك فعلاً ..

فعلاً ..

قلت :

- وبعد يومين سأعود إلى مقر عملي ، وعمودين معي لتقبلي هناك ..

قالت :

- ولكنى كنت قد قررت أن أسافر إلى هونولولو ..

قلت :

- أسافر معك ..

قالت :

- لا .. إني مرتطة هناك بمواعيد سبق أن حددتها قبل أن نتعارف ..

قلت :

- المهم أن أكون معك في بلد واحد ..

قالت :

- الأفضل أن ألتحق بك في أى بلد تكون فيه .. وإن أغيب في هونولولو

أكثر من ثلاثة أيام ..

ونظرت إليها كأني أشك فيها حائراً في نواياها ثم قلت :

- موافق ..

وأقمت نفسي بأنه لا يهم أن تعيب وحدها بعيداً عني في هونولولو فالخطة

كلها لا تزال مجرد تجربة بالنسبة لي كما أنها تجربة بالنسبة لها ..

وقلت وأنا أترك مقعدي وأقرب منها وأشدها إلى صدري وأصل بكفي إلى جسدها

العاري من تحت ثوبها الشفاف :

- دعينا نوقع عقد الإلتحاق ..

وأخذت شعيتها .. أول شفاه أمريكية أذوقها .. إن الشفاه الأمريكية لها طعم

مفر حداث يتقلب على طعم الاحتراف .. وأعطيني حوانا ليلتها أضعاف

الأحاسيس التي كانت تعطيلي في مهاياي ..

إن ما تعطيه تابلاند شيء وما تعطيه أمريكا شيء آخر ..

وفي صباح اليوم التالي ونحن لا تزال في الفراش قالت لي حوانا :

- لقد تذكرت شيئاً ربما يهمك ، فقد كنت جالسة منذ أيام مع بعض

الرجال الأمريكيين وأعتقد أنهم يمثلون شركات لا أدري ما هي ، وكانوا يتحدثون

عن مشاكل يواجهونها في بلدك بخصوص إحدى العمليات .

قلت وأنا مازلت أعطى :

- أى نوع من العمليات ؟

قالت وقد اكتشفت أنها من النوع الذى يشتمل نشاطاً بمجرد أن يفتح عيبه :

- لا أدري . . ولكنى أستطيع أن أدعوم الليلة هنا على كأس شراب وأقدمهم لك ونفهم مشكلتهم .

إنها تبدأ العمل منذ اليوم الأول ، لا شك أنها تلميذة ناجحة من تلاميذ فهران الباراجى . .

وقد تركتها فى الصباح وعدت إليها بهدية عبارة عن طاقم كامل من اللؤلؤ . . عقد وسوار وحاتم وحلق . . كلفتى حوالى عشرة آلاف دولار . . كان يجب أن أجذبها بأقوى حيوط الإغراء . . وفى المساء عرفتني فى جناحها الخاص بالذين حدثتني عنهم من رجال الأعمال الأمريكان ، وقدمتني إليهم كأنى أملك كل مصير بلدى . وكانت مشكلتهم خاصة بعملية توريد مجموعة أنابيب ومعدات خاصة بآبار البترول تكاد شركة أخرى تفوز بها عليهم ، برغم أن شركتهم معروفة عالمياً بارتفاع مستوى إنتاجها ورغم أنهم قدموا عرضاً أقل تكلفة . . و . . إنها عملية تساوى ثلاثة ملايين دولار ، وعمولتها تصل على الأقل إلى مائتين وخمسين ألف دولار . .

وافقت معهم على أن أتحمّل مسئولية إتمام هذه العملية لحسابهم ، وأن يلتقوا بي بعد خمسة عشر يوماً فى مقر السفارة ، وقلت ضاحكاً كأنى ألقى مجرد بكتة .

- لقد ظلمت نفسى عندما قبلت منصب وزير مفوض ، فإن عملى فى الواقع هو تحقيق مثل هذه العمليات ولذلك فإنى اعتبر أن حقى يضيع عندما لا أحصل على العمولة كاملة . .

وقالوا فوراً :

- طبعاً . . طبعاً . . هذا حقك . .

وقد قلت هذا الكلام لأن العادة حوت على الاحتفاظ بالعمولة الكاملة بركلاء الشركة بينما يعتبر أصحاب المناصب من الوزراء وكبار رجال الدولة من العناصر المساعدة فلا يتناهم إلا جزء من العمولة .

وقد تهرغت لى حواماً فضلاً خلال الأيام التى قضيتها فى طوكيو ، وكنت فى كل يوم أكتشف أنها ليست مجرد امرأة تحترف ليلى الجسد ، إن فى داخل رأسها ثقافة كامنة ومعرفة واسعة بفن العلاقات العامة ، وبلغت فرحتي بها إلى حد أن أقنعت عسى بأنى لست بالنسبة لها بمجرد رجل بل إنها تحبى ، أو على الأقل تميزنى عن باقى لرجال الذين تستطيع أن تحصل منهم على أكثر مما تعطيم . . ولم يكن يبدو عليها أن لها اهتمام أى شئ . . إنها حتى وهى تحدثنى فى مجالات العمل لا تتباهى بمعلوماتها ولا تبدو كأنها تلقى على درسا بل تبدو كأنها مجرد امرأة عادية تقول رأياً عادياً . ثم وهى تعطينى . . إنها لا تفتعل . . إنى لا أحس بها أبداً كإمرأة مأجورة ، كما أنها لا تفتعل التظاهر بحبى . . ولكن الساعطة التى تعطى بها هى التى تجعلى أحس بأنها تريدنى كما أريدها . . إلى أن سافرت إلى هوبولولو فى هذه الرحلة المغامضة التى فطمت أن تقوم بها وحدها . ربما خطر على بالك أنها قد تكون حاسوسة أو إحدى بنات المخابرات الأمريكية . لا يهم ، فإنى لا أملك من أسرار بلدى السياسية أو الاقتصادية أكثر مما يملكه أى شخص فى الشارع ولا أكثر مما ينشر فى الصحف . لا يمكن أن يكون لبلد مثل بلدى أسرار ، إن الأسلوب الذى تتعامل به لا يترك مجالاً للأسرار . . لا أسرار داخلية إنما فقط الأسرار الشخصية . . أسرار الفرائس .

لذلك ، فإني لست مستعداً أن أنخل عن جواناتي حتى لو كانت جاسوسة .

وقد تركت طوكيو وعذت إلى السمارة وكان أول ما فعلته أن استأجرت شقة فاخرة في أفخر أحياء البلد لتقيم فيها جواناتي عندما تنصل وساهمت ميزانية العلاقات العامة في تحمل تكاليف إستئجار هذه الشقة . . وقد تلوى شفتيك إمتعاضاً وأنت تسمع مني أني أنفق أموال الدولة على مشاريع خاصة . . يا أستاذي العزيز إن ميزانية العلاقات العامة ليس لها مقاييس ولا يمكن أن تحدد فيها ما يجب وما لا يجب ، وهذا في كل بلاد العالم حتى عندكم . . قد يأتي إليكم زائر أجنبي صغير . . وكيل وزارة مثلاً

وتعصر الحكومة أن تقم له حفل عشاء ، فمن تدعو إلى هذا الحفل ؟ إنها تدعو على الأقل مائة من الموظفين والصحفيين لا علاقة لهم بالضيف ولا يهتم شيء من زيارته ، ولا يحد فيهم الضيف نفسه شيئاً يهمه ، إن كل ما يهمهم هو مظهر الدعوة وأنواع الأطعمة والمشروبات التي تقدم لهم مجاناً ، وكل ذلك تتحمل تكاليفه الدولة من أجل لا شيء . عملى سوى صورة فوتوغرافية تؤخذ لهذا الحفل وتشر في الصحف وترسل إلى حكومة الضيف كمجرد مظهر للتكريم وحسن العلاقة بين البلدين . . إن المظاهر لها تأثير كبير حتى لو كانت مظاهر كاذبة كمظاهر الاستقبالات الرسمية والشعبية التي تعد لرؤساء الدول . . المظهر له تأثيره وتكاليفه حتى في تصرفات الفرد بالنسبة لنفسه ، إنه قد يذهب إلى مطعم راق ليأكل طبق لحم يكلفه عشرة جنيهات في حين أن نفس الطبق ونفس اللحم يستطيع أن يأكله في مطعم آخر ويكلمه خمسين قرشاً . . المظاهر لها ثمن . . وميزانية العلاقات العامة هي كلها ميزانية المظاهر الكاذبة والتودد المفتعل . إنك لو ذهبت في زيارة رسمية إلى اليابان فإن الحكومة ستدعوك إلى بيت من بيوت الجيشا وستنجز عشرة على الأقل من رجال وزارة الخارجية اليابانية فرصة زيارتك ويدعون أنفسهم معك إلى هذا

المت . . ليست الحكومات فقط . . حتى الشركات الكبيرة تخصص ميزانيات لهذه المظاهر ، وأنا لا أحد شيئاً من مشروعات هامة تخص بلدي ولكي احد من ميزانية المظاهر لأشقه فيما أعتقد أنها مظاهر هامة .
وجاءت جوانا .

واقفنا على أن تعيش كسيدة أمريكية ثرية جاءت سائحة وتعد إقامتها بحرم أن البلد أعجبها . . وكانت أول عملية بدأنا الاهتمام بها هي عمية مشروع معدات آبار الترويل ، واستطعت بسرعة أن أغرى المسئول في بلدي عن هذه العملية إلى بادئ ريادة رسمية ، وفي خلال ليالي الزيارة الرسمية قدمته لجوانا على أنها السيدة الزرية التي التقيت بها مصادفة وأصبحت صديقة محترمة . . وأنت قد لا تدري . في الإسهار الذي يصيب مسئولاً عربياً عندما يجلس معه امرأة أمريكية حمية ويخجل إليه أنه يستطيع أن يصل إليها في الفراش . إنه يحس كأنه يحاول أن يتصر على أمريكا . كأنه يهتك عرص العم الأمريكي كأنه اعتلى على شرف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . إنه الإحساس الشرقي القديم الذي يعطى حسد المرأة قيمة وأهمية لا وجود لها . . كأن في هذا الجسد يتجمع كل من الأمة . وكأن الاستعمار هو مجرد أن تستولى على جسد امرأة من بلد آخر .

وربما كانت جوانا قد دوست هذا الإحساس للرجل العربي . . أو الرجل لدى يتنمى . . للدولة صغيرة بالنسبة لامرأة من دولة كبيرة ، فقد ظلت تبخل عليه مع الاحتفاظ له بأحلامه حتى اضطر أن يمد فترة زيارته أسبوعاً . وعندما عشته كست أبا قد حصلت على موافقة على مشروع معدات الآبار . . إن الشركات كما تعرف تعطى للمسئولين دائماً عمولات - أو سمها رشاي - في شكل هدايا قيمة عالية قد تشمل قصصاً من الماس ، وأنا أعطيت هذا المسئول رشوة من نوع

آخر . . أعطيته جسد حوانا .

وتسلمت فعلاً عمولة الصفقة . . . أى أحدث مائتين وخمسة وعشرين ألف دولار . واشترت جلود حوانا حاتم سولتير ، هصا واحداً من اللباس حجمه ثلاثة قرديط كلفى عشرين ألف دولار . وتعهدت ألا أعطيها هديتها بقداً بالدولارات حتى لا تعتبر نفسها شريكة معى فى الصفقة وتتعود أن تطالبى بنصيب محدد والدنيا تنفتح أمامى ومعى حوانا . والحديد أن شخصيات أمريكية كثيرة بدأت تسعى إلى وبدأت أكتسب صداقتها ، وكنت أجمعهم فى شقة حوانا كأنهم أصدقاؤها لا أصدقاى حتى لا أكتشف عسى أمام الصغير . روعة الصغير وحدها . لسيدة التى أقدرها وأحترمها هى التى تعرف كل شيء . إنها تعرف حتى قصة موظف السعارة الأمريكية الذى كما يعتبره موظفاً صغيراً إلى أن كشف لى عن حقيقته عندما اجتمعت به فى ليلة من ليالى حوانا . واعدنى لى أحكى لك هذه القصة .

المهم . .

إلى الآن لم أصل إلى تحقيق صفقة سلاح . . . وأعتقد أنه يجب أن أستقبل من وطيفتى حتى أستطيع أن أتمتع وتكون لى حرية أكبر للوصول إلى صفقة سلاح . ولو استطعت فرمما استطعت ونصوصاً وأنا معتمد على أصدقاى الأمريكان أن أكون وزيراً أو رئيس وزراء أو أن أقوم بانقلاب لصالحى ، ولكنى أفصل أن أصل إلى صفقة سلاح إذا وصلت فمأكتب لك مرة أخرى .

البحث عن الطريق الآخر

مقدمة القصة :

عندما يكون الأب ريساً . هل يظلم ابنه
أو يظلمه أبناؤه ؟

هذه القصة خطرت لي عندما كنت منذ شهور في زيارة الهند . فرجحت هناك بحملة عنيفة ضد سنجاي غاندي ابن السيدة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء وكان سنجاي متهماً بأنه يستغل مركز ونفوذ أمه في تحقيق مصالح خاصة ، منها إنشاء مصنع للسيارات ، كما أن الأم تفرض ابنها على المجتمع السياسي الهندي بذليل ، أنه أصبح رئيس وقائد حركة الشباب . . وقد كتبت أيامها في جريدة « الأهرام » تفاصيل كل ما يقال هناك كما نشرت حديثاً جرى مع سنجاي يدافع فيه عن نفسه ويعلن أنه ليس في حاجة لاستغلال مركز والدته بل إنه يعارضها في كثير من آرائها ، وإنما هو يعتمد على حريته وجهده الخاص كأي واحد من أبناء الشعب بذليل أنه أخ هو ابن أنديرا غاندي أيضاً ولكنه مبتعد ابتعاداً كاملاً عن المجتمع السياسي الهندي . . ورغم هذا فقد قيل إن سبب سقوط أنديرا غاندي وحزب المؤتمر في الانتخابات هو تصرفات ابنها سنجاي وإنه هو الذي دفعها إلى إعلان حالة الطوارئ التي أدت إلى سقوطها . .

ومشكلة أبناء الرؤساء أو أبناء أصحاب السلطة مشكلة في كل بلد من بلاد العالم ، وقد كان طوني فرنجية ابن الرئيس اللتاني السابق سليمان فرنجية

منهما بأنه يحكم لبنان باسم ابه ، وأنه هو - لا أبيه - سبب كل ما حدث
لبنان . . كما أن كارتر الرئيس المنتخب للولايات المتحدة الأمريكية كان قد
أعلن بعد انتخابه أنه سيعين باثني من أولاده في تحمل مسئوليات البيت الأبيض ،
فثار ضده حملة من معارضيه وكانت حملة خفيفة تعتمد على إطلاق النكات ،
ظل كارتر بعدها مستمراً في الاستعانة بأولاده في تحمل مسئولية الحكم . .

وفي مصر قامت حملة ضد المهندس سيد مرعي عندما وُجِّع نفسه لرياسة
محسب الشعب منهما بأنه اعتمد على أنه نائب الرئيس أنور السادات برواح ابنه من
ابنة الرئيس ، وأذكر أنه بعد أن أعلنت الحظية أن التفتيت مرة والصديق سيد مرعي
وقلت له :

- على قدر فرحتي بخطة حسن إلى نبي فاني أشفق عليك من هذا الرواح .
ولم أكن في حاجة إلى أن أسمع رد سيد مرعي فاني أعلم أن شخصيته السياسية
بدأت قبل الثورة واستمر بها بعد الثورة دون أن يعتمد على قرابة أو نسب ، ولكني
كنت أقدر أن مجرد ارتباطه برباط أسرى مع رئيس الدولة سيثير حوله مناعب كان
في غنى عنها ، وقد يتحمل رئيس الدولة نفس المناعب . . وهو ما حدث فعلاً .

وحتى في المستوى العادي لا مستوى الحكام . فإن رياسة الأب لأي عمل
تجعله محرجاً مع أولاده بالنسبة لهذا العمل . فاني رئيس مؤسسة يرفض غالباً
أن يعين أبنائه في نفس المؤسسة حتى لا يتهم بالمحاباة أو باستثناء ابنه عن باقي
المتقدمين إلى العمل ، فإذا عين الرئيس ابنه فعلاً فإنه يصح في حرج كلما استحق
هذا الأبن مكافأة أو كلما أراد أن يكل إليه القيام بمهمة ما ، حتى قيل إن بعض
رؤساء المؤسسات في مصر اتفقوا فيما بينهم على أن يتولى كل منهم استخدام أبنائه

الأحر حتى لا يتهم باستثناءهم أو بمحاباتهم .

وهو تعرضت أنا شخصياً لهذا الوضع لمنصب ، فاني بن صاحبة المجلة التي
بدأت العمل بها . ابن السيدة روزاليوسف . . ومضت فترة كنت لا أعرف
من الناس إلا باني ابن روزاليوسف وكان كل مجهود صحفي أبذله ينسب إلى
أمي . وكانت مشكلتي الرئيسية هي أن أنت لنفسى شخصية قائمة بذاتها بعيداً
عن شخصية أمي . وكنت أتمنى أن أترك مجلة روزاليوسف وأعمل في صحف
أخرى ، رغم حاجة العمل إللي . مجرد أن أحرر نصي من اسم أمي ، وفي الوقت
نفسه كانت أمي تعاملني بحزم لا تعامل به بقية المحررين وتحدد لي دائماً أقل
أجر حتى لا يعرف عنها أنها تحابيني أو تستثنيني من بين بقية الزملاء لمجرد أني
أبها . . وهكذا ظلمت أمي وظلمتني أمي . .

وبعد ذلك أصبحت أنا أباً لابن يصير على أن يكون صحفياً . . وقد كنت
أتمنى ألا يكون صحفياً فاني أب يخيّل إليه أن عمله هو العمل الوحيد الذي يجلب
المناعب والمخاطر ويتنى أن يبعد أولاده عن مثل هذا العمل . . ولكن ابني محمد
صر على أن يكون صحفياً ، فأصررت على ألا يعمل في أي جريدة أعمل بها
وخصوصاً إذا كنت أتولى فيها منصباً رئيسياً سواء كرئيس تحرير أو كرئيس مجلس
إدارة . وجاءت فترة كنت أنا أعمل في مؤسسة أخبار اليوم وابني محمد يعمل
في مؤسسة الأهرام ، إلى أن حادى يوماً وقال لي إيه في الأهرام يعاملونه ويحذرونه
كانه جاسوس لي . . فاضطرت أن أسمح له بأن يعمل معي في أخبار اليوم ،
وعهدت به إلى مدير التحرير الأستاذ سعيد سنبل دون أن أسمح له بالاتصال في
في كل ما يخص العمل ولم أكن أوافق على أي إجراء به إلا إذا وافق سعيد سنبل .

أُتِمَّت ابْنِي وَأَتَعْنَى . ولم يجد محمد حريته ولم يتقدم في عمله بأخبار اليوم إلا بعد أن تركتها أنا

إني موضوع طويل سقى أن كتبت فيه كثيراً وأنا أتساءل عن أبناء الرؤساء والشخصيات القيادية ، هل هم مظلومون بأبائهم أو أنهم يظلمون آبائهم ؟
* وهذه القصة من وحى هذا الموضوع . .

إحسان



١

إننا في عز النهار . الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحاً . . والشوارع كلها مرصوفة كالعادة بما فيها الشوارع الخائبية ، والسيارات مركونة بجانب الأرصفة وبعضها فوق الأرصفة في انتظار أصحابها . . وكان يسير في شارع رشيد عصر الجديدة ، وتوقف عند سيارة مرسيدس واقفة أمام باب عمارة ، ولم يلتفت حوله ولم يحاول أن يرقب بواب العمارة الجالس على مقعد فوق الرصيف ، ومد يده يحاول أن يفتح باب السيارة وعندما وجده معلقاً بالمفتاح . أخرج من جيبه لفافة من الشمع الطلي الذي تلتصق به الضادات ، ولصق قطعة منها فوق النافذة الصغيرة الخائبية للسيارة ، ثم أخرج من جيبه « أجنة » حديدية صغيرة مما تستعمل في فك وربط الصوميل ، وضرب بها اللوح الزجاجي الصغير ضربة قوية فتشطم دون صوت وديد أن يتناثر الزجاج في الشارع متصقاً بقطعة الشمع ، ومد يده من خلال الزجاج المحطم وفتح باب السيارة من الداخل وقفحاً رأساً أمام عجلة القيادة . وأخفى ومد يده خلف لائحة العدادات . والنقط سلك الطارية وسلك « الكونتاك » وأخرج من جيبه قطعة من ورق الشيكولاتة المضغض وجمع به السلكين مدار موتور السيارة فوراً . . كان يتصرف بسرعة ونخعة كأني لخص محترف من لصوص السيارات . .

وتنبه بواب العمارة وجرى إلى السيارة صائحاً :

- بتعلم إيه يا جدد انت ؟ .

وقبل أن يصل البواب إلى السيارة كان اللص قد انطلق بها فأخذ يصيح :

- حرامى .. حرامى !!

وكأن في الشارع سائق تاكسى تطوع وجرى سيارته يلاحق السيارة المسروقة وهو الآخر يصيح :

- حرامى .. حرامى !!

وتطلعت عدة سيارات أخرى لمتابعة اللص ، وكان الخبير قد أبلغ للبوليس فأطلق سيارة مجهزة بآخر ما وصل إلى البوليس المصرى من أجهزة . .

واللص يقود السيارة المسروقة بمهارة عجيبة ويدخل ويخرج بين شوارع مصر الجديدة كأنه في استعراض لسباق السيارات ، ولم تستطع أى سيارة أخرى أن تلحق به ، بل إنه من كثرة مفاجآته في اللف والدوران تسبب في تصادم سيارتين من السيارات التي تتبعه تماماً كما يحدث في أفلام السينما الأمريكية . . وبعد أن مضى أكثر من نصف ساعة على المطاردة لاحظ جميع المطاردين

أن اللص بدأ يهتئ من سرعة سيارته واشتدت دهشتهم عندما قادمهم إلى الشارع الذي يقع فيه مركز بوليس مصر الجديدة ، وعندما وصل إلى باب المركز كاد يتوقف بالسيارة ، وأحاطت به السيارات المطاردة وأجبرته على التوقف تماماً ، ونزل السائقون من سياراتهم واندفعوا إليه ، ورعاهم بعضهم بأن يعتدى عليه بالضرب ولكنهم وجدوا أمامهم شاباً وسياً هادئاً يتسم لهم قنودت الأيدي التي كانت تهم بالضرب ، وبدأوا يكتفون بالصراخ من حوله ، وامتدت يد الشاويش وقضت عليه من كتفه ثم شدته في عنق خارج السيارة ودفعته إلى داخل مركز

البوليس ، وهو مستسلم هادئ لا يقاوم ولا ينطق بكلمة . .

وأمام ضابط البوليس رفع الشاويش يده بالتحية وهو يدق بقدمه على الأرض كأنه يطلق زفرودة الفرح وصاح :

- قبضنا عليه يا أفندم .. لص سيارة رشيد !!

ورفع الضابط رأسه من بين أوراقيه في تكاسل وملل ، ولكنه ماكاد يلتفت برحه اللص حتى انتهت كل خلجات وجهه وأخذ يطيل النظر إليه كأنه لا يصدق عينيه ، ثم التفت إلى أفراد فريق المطاردة الذين ازدحمت بهم الغرفة وصاح :

- لا أريد أن أرى أحداً هنا .. يا شاويش .. محذهم ليتنظروا في الخارج . . ودفع الشاويش يكل من في الغرفة إلى الخارج ، ولم يبق إلا الباشجاويش وهو لا يزال قابضاً بيده على كتف اللص ، وقال الضابط :

- انتظرني أنت أيضاً في الخارج يا باشجاويش .. أتركه لي . .

وتردد الباشجاويش برهة ثم رجع يده بالتحية بلا حماس ولم يدق بقدمه على الأرض وخرج وكله دهشة ساخطة على تصرفات حصرة الضابط . .

ونظر الضابط في رفق إلى اللص وقال في صوت خفيض :

- اسمك ؟

وقال اللص وهو يتململ كأنه لا يريد أن يبقى وحيداً مع حضرة الضابط :

- أشرف . .

وابتسم الضابط وعاد يقول :

- وبقي الاسم ؟ قل .. إلى أعرقك !!

وقال اللص في زهق :

- أشرف عبد الصبور . .

وقال الضابط مبتسماً :

- تقصد أشرف إسماعيل عبد الصبور .

وقال اللص في حدة :

- إن من حق أن أحدد اسمي . . هذا أقل حق لي حتى لو كنت لصاً .

واسمى أشرف عبد الصبور ! !

وقال الضابط وهو لا يزال يتنعم :

- لا يهم . . طبعاً أنت لم تسرق السيارة ؟

وصرخ المتهم :

- طبعاً سرقها . . ما هي السرقة إذا لم تكن هذه سرقة ؟ إلى أعترف بأني

سرت . . لا تحاول أن تزور اعترافي . .

ونظر الضابط إليه في دهشة وقال :

- يا أشرف أوجوك أن تهدأ ، كل شيء يمكن إصلاحه . .

وصرخ أشرف :

- لا أريد إصلاح شيء . . أريد أن يكون نصيبي هو نصيب غيره . .

القانون . .

وازداد تعجب الضابط ونظر إلى أشرف نظرة حديدة وكأنه ينظر إلى مجنون

ثم قام من وراء مكتبه وهو يصرخ متنادياً الباشاويش وقال بمجرد أن دخل

إليه :

- إبقى معه إلى أن أعود . .

ورفع الباشاويش يده وأطلق زغرودة الفرح بقلبه التي يدق بها على الأرض .

وخرج الضابط مسرعاً ودخل إلى مكتب مأمور المركز . . وبعد لحظات عاد

والمأمور يهرول أمامه ونظر إلى أشرف كأنه لا يصدق عينيه ثم قال في حيرة

معتلة :

- لماذا يا ابني . . لماذا لا ترحموا آباءكم من « بلاويكم » ؟

وصرخ أشرف :

أ، سرت . . افتح المحضر واستدع الشهود . .

وقال المأمور في لهجة خطيب الجمعة :

- ولأنك سرت لا يهلك أن تضيق البلد

وقيل أن يرد أشرف خرج المأمور وعاد إلى مكتبه وأجرى عدة اتصالات

لليموية وبعد مدة نادى الضابط ليأتي إليه في مكتبه ومعه أشرف ، وقال وهو

يتنعم لأشرف ابتسامة يتوكل بها إليه حتى لا يتعبه :

اتهدئا يا أشرف اعتبر الموضوع كأن لم يكن . . تستطيع الآن أن تعود

إلى البيت . .

وصرخ أشرف :

- لن أخرج من هنا إلا بأمر النيابة . .

وقال المأمور وهو يشد أنفاسه كأنه يستعيث :

- لا داعي للنيابة ولا حتى لمحضر تحقيق فقد تنازل صاحب السيارة عن

دعواه وهو راض عما فعلته . .

وقال أشرف ساخراً :

طبعاً نظير رشوة ؟

وقال المأمور :

- لا أعتقد أنها رشوة إنما طبعاً من حقه أن يأخذ حق إصلاح العطب الذي

حدث لسيارته ، ولم يعد هناك شهود فقد انصرفوا بعد أن اكتشفوا أنها شقاوة شباب . .

وقال أشرف محتدًا :

- تقصد شقاوة عيال . . لا يهم اعتباري كما تريد أن تعتبري - ولكنك لا تستطيع أن تفرح عني حتى لو تنازل صاحب السيارة . . إنها حريمة . . وصاحب السيارة ليس إلا مدعيًا بالحق المذني إنما الخصم هو المجتمع ، والذي يمر عن المجتمع هو القانون والذي يطبق القانون هو النيابة . . ولما أخرج من هنا إلى بعد استكمال كل إجراءات التحقيق وإذا رأيت النيابة بعدها أن تطلق سراحى .
وقال المأمور في (قرف) .

- إني أرحب بك في ضياعتي وتستطيع أن تبقى هنا كما تريد .
ومال المأمور وهمس في أذن الضابط وخرج الضابط من الغرفة مسرعاً ، ثم مال للمأمور على أوراقه كأن موضوع أشرف الذى لا يزال حالساً أمامه قد انتهى ، وقال أشرف في حلق :

- إنك تحل بمسئولياتك . . البوليس يجب أن يكون متحرراً من مراكز القوى .

ورفع المأمور رأسه إليه وقال كأنه يلقى عليه درساً .

- إن مسئوليتى هي منع وقوع الجريمة . .

وقال أشرف :

- الجريمة وقعت والسيارة سرقت .

وقال المأمور :

- ليست هذه هي الجريمة التى كنت تقصدها . . الجريمة الأخرى لم تقع

مد وأرجوك ، اجنس صامتاً فإن أمامى عملاً كثيراً .

وقال أشرف وهو ينظر إلى المأمور في غيظ .

صغنى في رزائة ! !

إن أى مكان هنا يمكن اعتباره رزائة عما فيه مكبى . . وأرجوك . . دعنى

يعمل .

صكت أشرف وقد بدأ يستسلم لليأس . .

والمأمور يدعى أنه عارق في مراجعة أوراقه فيما يتسلل بعينه بين الحين والآخر إلى أشرف كأنه ينتظر منه مفاجأة ، وبعد أكثر من نصف ساعة دخل الضابط وهمس في أذن المأمور ، وانفض المأمور واقفاً وهو يقول لأشرف :

يا أستاذ أشرف . . إن والدتك تنتظرك في الخارج . . وأرى أنك توافقنى على أن تذهب إليها بدلاً من أن تعرضها للدخول إلى مكاتب البوليس .

وقام أشرف وقال وهو يزم شفتيه في (قرف) :

- سأذهب إليها . .

وخرج من الغرفة دون أن يحيى المأمور أو الضابط ، والمأمور يجري وراءه إلى أن أوصله إلى داخل السيارة التى تنتظره وانحنى إحناءة كبيرة تحية لأمه . . وانطلقت السيارة الفخمة وهو حالس بجانب أمه ، وهمت الأم بأن تتكلم ولكن أشرف قال وهو غارق في الانهيار :

- دعيني الآن يا ماما . .

ثم أمسك بيدها وقلها واحتفظ بها في يده ودموعه تكاد تطفئ من عينيه كأنه يهم بأن يبكي نفسه . .

قطيلة حياته وهو يعيش هذه المعاناة . . معاناة الابن الذى ولد لأب

ناجح مشهور ويضيق هو وراء هذا النجاح وهذه الشهرة . . ومنذ تنبه وعيه إلى الحياة وهو يجد على الباب رجال البوليس يرفعون له أيديهم «تعظيم سلام» إلى أن بدأ يتنبه إلى أن هذا «التعظيم سلام» ليس تعظيماً له إنما هو تعظيم لوالده . . هو وحده لا يستحق أي تعظيم . . ومنذ دخل المدارس وهو منته إلى أنه يعامل معاملة خاصة يختلف عن معاملة زملائه الطلبة . . وناظر المدرسة يستدعيه إلى مكتبته بين الحين والآخر ويسأله أسئلة سخيفة ويتنصحه نصائح تافهة ، ثم يقول له «تحياي للسيد الوالد إنه رجل عظيم» . . وكان يعلم أن كل ما يريده الناظر هو إبلاغ تحياته لوالده ، لا شيء آخر ، ولولا والده لما استدعاه أبداً ولا عرف بوجوده . . والمدرسون أيضاً إنهم يعاملونه كأنهم موظفون عنده وحده . . ويحس أنهم يعاملونه في الدرجات ، ومدرس اللغة العربية يكرر أمام بقية الطلبة في كل مساة تافهة «يا سلام» . . إنك سترث والدك في عقريته أو كلاماً آخر في هذا المعنى . . وحتى الطلبة . . إنهم يضعونه في ركن بعيد عنهم ، ويعيشون معه كأنه ليس بهم ، وعندما يجتمع بهم يلتصقون حوله كأنهم يتفرجون عليه ، وعندما يتكلم يستمعون إليه كما يستمعون لمسرحية تذاع في الراديو . .

وأخذت كل هذه الأحاسيس تتمدد داخل نفسه ، وبدأ يحاول أن يثور عليها . . أن يتحرر من ضغط شخصية والده عليه . . يريد أن تكون له شخصية قائمة بذاتها . . يريد أن يعرفه الناس ويعاملوه على أنه الطالب أشرف ، لا على أنه أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . . ومنذ أن كان صغيراً وهو يعتمد أن يهرب من رجال البوليس الواقفين على الباب حتى لا يواجهونه بـ «تعظيم سلام» ، بل إنه بعد أن ضاق بهم صاح في واحد منهم :

عندما ترى أي أرفع يلك بالسلام . . هذا السلام ليس مخصصاً لي . .
إياك أن ترفع يلك بالتحية لي . . فاهم ؟
وأجاب الشاويش وهو يبتسم في تملق :
يا سلام يا أشرف بيه . . إنك تستحق ألف سلام . . إنك سيدنا واين صيدنا . .

ولم يستطع أن يتخلص حتى اليوم من الـ «تعظيم سلام» . .

ودعته العدة التي يحس بها وهو مع زملائه الطلبة إلى أن أصبح يبدو بينهم كأنه إنسان شاذ . . كان يجلس بينهم في ركن بعيد وهو صامت بينما هم يتباحثون ويهزجون ويلعبون ، ثم فجأة يقوم من بينهم يحمل شاذ لا ينتظرونه . . كأنه برقص رقصاً بلدياً وهو يصيح فيهم في هجة أولاد البلد :
- (سقف) انت وهو . . ياللا يا جددان .

ويصفقون وهم ينظرون إليه في دهشة ، ويشعر أنهم يستقلون دمه فيتوقف عن الرقص فجأة - كما بدأه فجأة ويخرج من بينهم مبتعداً وهو صامت .
ثالثه مع نفسه كما أنهم تائهون فيه .

وفي مرة كان جالساً بينهم وهم يلعبون أحدهم الآخر باسم الأب . وهو مند وعى وهو يسمع زملاءه يتلاعبون باسم الأب والأم كنوع من أحاديث مداعبة ورفح الكلفة ، ما عدا هو . . هو وحده الذي لم يلص أحد من زملائه أباه . حتى ولا من باب الخطأ . . وكأن أباه شخصية مقدسة يس من حق أحد أن يلحقها أو يتجرأ عليها أو يتخذها موضعاً للمزاح . . فقام بين زملائه وقال وهو يضحك كأنه يفرحهم برفع الكلفة بينهم وبينه :
- وأنا كمان يلص أبويا . .

وسكت كل من حوله كأنهم شلوا من هول المفاجأة ، ثم انطلق واحد منهم وكأنه قرر أن ينتهر الفرصة وصرخ في وجه أشرف لاعنا أبيه

وانطلق بقية الطلبة يضحكون ويرددون الشاتم على أبي أشرف ، وهو يحاول أن يفلحك معهم ويرد على شاتمهم وهو يحس أنه لا يستطيع أن يحفظ صبحته لا يستطيع أن يحتمل مريداً من اللعنات التي تقع على رأس أبيه حتى ولو كانت لعنات على سبيل المداعبة والمزاح . . به يحب أبيه ، ويقدره ، ويفار عليه ، ر حتى على صورته العامة التي تتمثل في احترام الناس له ورهبته منه . . رغم كل ما يعانيه أشرف من عقد في مواجهة أبيه فهو يحبه ويفار عليه حتى لو تار ضده . . وكل هذا دفعه إلى أن يسكت مرة واحدة داخل حلقة اللعنات والشتائم ، ويسحب ضحكته ، وبدأ يسير مبتعداً عنهم ، وهو يسمع أحدهم يقول :

— حان روح في داهية . .

ويقول الآخر :

— أنت اللي ابتديت :

ويقول الثالث :

— دى فيها رفت . .

ويقول الرابع :

— استعدوا يا اولاد . . كلنا حان دخل السجن . .

وربما شعر بما سمعه بإحساس من الرضا كأن أبيه قد استرد مكانته بين الطلبة ، ولكن العقدة التي يمانيا عادت تغلب عليه . . لماذا يكون أبوه دون بقية الآباء هو الذى يخاف الناس أن يداعبوه باللعنات . . وما ذنبه هو حتى يوضع

الذين حناعى لا يختاره نفسه إنما لمجرد أنه ابن أبيه . . وقد حاول أن يخرج من هذا الزكن قسماً إلى أن يصادق طلياً كان يعلم أنه ينتهى إلى أدنى الصدمات الشعبية ، ويقم في حى الباطنية وراء جامع الأزهر ، وأبوه صاحب دنانير سائح صغير ، ووصل بلحاحه في صداقة هذا الطالب إلى أنه ذهب له في بيته داخل حارة الطباش وما كاد يدخل الحارة بعد أن ترك السيارة التي جاء بها في ميدان الأزهر حتى استقبل كأنه زعيم شعبي ، فكل أهل الحارة جاءوا يتبرحون عليه ويصاحبه ، ووالد زميله أخذه من يده وطاف به على دكاكين الحي وهو يقدمه مفاخرأ :

— اثنا أشرف بيه . . ابن سيادة إسماعيل عبد الصبور . . صاحب ابني في المدرسة . . أمال ابن أكابر .

وبدأ يحس أن أبيه يلاحقه حتى في أصغر حارة في القاهرة ، بل أحس أنه ردد تعقيداً وهو بين أساء الطبقة الشعبية . . يحس بمسئولية يريد أن يهرب منها . مسئولية تمثيل والده . . علاوة على أنه اكتشف أنه يكلف صديقه غالباً كلما إره . فإن أهله يقيمون شبه وليمة كلما جاء إليهم . . إلى أن مال عليه ولد صديقه يوماً وقال كأنه يهمس في أذنه :

— عابريك في خدمة ياسى أشرف . أصل مأمور الحنة تابعنا وما حدثش عارف يلمه . . يمكن كلمة منك للسيد الوالد توقعه عند حده . .

ومضى والد الصديق يروى قصة طويلة لأشرف عن تصرفات المأمور برغم أن أشرف لم يكن أيامها قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ولا يستطيع أن يفهم كثيراً مما يسمعه . . كل ما فهمه أن ليس له قيمة إلا بوالده حتى وهو بعيد في حارة طناش يحيى الباطنية . .

وقال لوالده صديقه :

— حاضر . .

ولم يبلغ والده بشيء لكنه شطب من حياته صداقة هذا الصديق . .
وظل يحاول إثبات شخصيته بعيداً عن أبيه . . حتى أنه وهو في هذه السن . .
سن الثالثة عشرة . . أراد أن يثبت لزملائه الطلبة أنه « ولد شقي » ولا يقل عنهم
تطاولاً على المدرسين ، فاتفق معهم على أن يربط حبلًا رقيقاً في مقعد مدرس
اللغة العربية . حتى إذا جاء ليجلس عليه شده فسقط المدرس على الأرض . .
وقام المدرس صارخاً يكيل الشتائم للتلاميذ ويصيح :

— من هو ابن الـ . . . الذي دبره هذه الجريمة ؟ ! !

وقام أشرف وهو يمسك بطرف الحيط في يده :

— أنا يا أستاذ . .

وسكت صراخ المدرس ونظر إلى أشرف في حيرة وتردد :

— مقول يا أشرف . . لا بد أنهم سلطوك وضحكوا عليك . .

وحاول أشرف أن يثبت أنه المستول ، وأن ينال عقاباً ، ولكن لا أحد يريد
أن يستسلم لاعتزافه . . وأمر الناظر بإجراء تحقيق ، ونام التحقيق .

وأحس زملاؤه بأنهم يستطيعون أن يرتكبوا كل الآثام في حمايته ، وحاولوا
أن يعرضوه على مؤامرات طلابية أخرى ، ولكنه كان يرفض ، لأنه اكتشف
أن هذه المؤامرات أو المداعبات لا تحرره من شخصية والده بل تزيد خضوعاً
لها ، وتزيد شخصيته الخاصة ضياعاً . لو أنه كان قد عوقب كأي تلميذ عادي
فربما كرر هذه المداعبات لكنه لم يعاقب لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور . .
فلا أمل . .

ويكرر والمقدمة تنضخم في صدره ، وتلف أعصابه ، وتسيطر على عقله ،
« حس دائماً بأنه ضائع وأنه شهيد أبيه الذي أخذ منه كل شيء . يمكن أن يكون
ملكاً حاصلاً له . . حتى عندما أحب . . وكان قد التقي بعفاف وهو في الخامسة
عشرة من عمره . . التي بها صدقة بعيداً عن عائلته وعائلتها . . وهي تعرف أنه
ابن إسماعيل عبد الصبور ، وهو يعلم أنها ابنة محمود رفعت موظف كبير
بدرجته مدير عام . . ومع الأيام بدأ يلاحظ أن عفاف تعطيه كل ما يريد وأكثر . .
إنه يستطيع أن يحادثها بالتليفون كلما أراد ، ويستطيع أن يخرج معها كلما أراد ،
بل إنه حاول مرة أن يدعوها إلى الخروج بعد الساعة الثامنة ، واحتج بأنه تعب
ويفكر في الانتحار ، وقالت له عفاف في التليفون :

انتظر حتى أسأل ماما . .

ورسبت ماما على أن تخرج عفاف للقائه في الليل . وهو دهش . كيف
« ما في أي أم على أن تترك ابنتها التي لم تتجاوز الثالثة عشرة للقائي ليلاً
هي عائلة من هذا لنوع ؟ . وقد حرص على أن لا يدعوها لبيتها أو يقدمها لأمه .
إنه يريد أن يتعد بها عن مظهر عائلته . . عن أبيه . . يريد أن يكون بالنسبة لها
شخصية قائمة بذاتها . ولكن عفاف تلح عليه أن تقدمه لعائلتها ، وتدعوه إلى
زيارتها في البيت ، وتغريه قائلة :

— إذا تعرف إليك بابا وماما سهل علينا اللقاء . .

وكان عندما يطلبها بالتليفون ترد عليه الأم أحياناً في ترحاب شديد :

— من ؟ أشرف ؟ أهلاً يا بني . . دقيقة واحدة لأدعوك عفاف . .

وكان يتعجب لهذا الترحاب الكبير . . هل يطمعون في زواجه من عفاف .

ولكنه لا يزال في الخامسة عشرة ، ولم يصل إلى التوجيهية بعد . . لم يحن الوقت

لمجرد التفكير في الزواج . . ورغم تردده لم يستطع إلا أن يستسلم للإلحاح عفاف
ودفع إلى لقاء عائلته كأنه يستسلم لحكم الإعدام فإن ما حدث حتى الآن بينه
وسيا يجب أن يقيمه بعيداً عن عائلته . فكيف يواجه أناها أو أحاها ١١٩
وذهب . .

واستقبله بترحاب كبير وفي شبه وليمة رسمية ، وأنحنوا يدعون الجيران
ليفرحوا عليه ويتعرفوا به . . نفس ما حدث له مع صديقه في حارة الطناش
بحي الماطنية . . واحتمل . . ولا يزال يأخذ من عفاف ما يريد وأكثر . . إلى
أن كان هناك يوم استدعاء فيه والدها إلى جلسة خاصة وقال وهو يرفع من درجة
حنانه وجبه له :

- إلى لم أتعرف بالسيد الوالد حتى اليوم . . ربما لم تأت المناسبة بعد . .
ولكني أقدر أن هناك تفاصيل هامة كثيرة لا تصل إليه . . لذلك أعددت مذكرة . .
أقصد خطأياً . . أعتقد أنه يجب أن يصل إليه . . الواقع أني أستحق درجة وكيل
وزارة منذ ستين ولكن ما يجري في الوزارة بما لا يعرفه السيد الوالد كان السبب
في أنهم يخطئون . .

وأخذ السيد محمود رفعت المدير العام يروي تفاصيل كثيرة دون أن يقدر أن
أشرف وهو في الخامسة عشرة من عمره لا يمكن أن يعي شيئاً مما يسمعه . . وقال
أشرف :

- حاضر .

وأخذ المذكرة على أن يسلمها إلى أبيه ، وقبل أن يصل إلى آخر درجات سلم
الحروج كان يمزق فيها . . إنه يرفض أن تكون كل قيمته هو أنه ابن إسماعيل

من الصور . . وهذه العائلة تخفى به كل هذا الاحتفاء لأنه ابن إسماعيل عبد
الصور . . الذي يستطيع أن يمتنع الترقية إلى درجة وكيل وزارة . . وربما كانت
عفاف لا تحب فيه إلا أنه ابن إسماعيل عبد الصور . . وبضعت فترة كان أشرف
يكذب فيها ويدعي أنه سلم المذكرة إلى أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يستمر في الكذب . .
وأنشغل ويهرب من عفاف ، إلى أن شطها من حياته ، وأوقع نفسه أنه لم يكن
عليها وهي لم تكن تريده ولكنها كانت تريد أباه إسماعيل عبد الصور .

والعقدة التي يعانيها تشدد به وتزيد ضياعاً . . إنه لا يستطيع أن يساهم
في أي نشاط سياسي ، فشيخ أبيه يسيطر على كل تحرك له . . لو اشترك في
حركة تؤيد سياسة أبيه فهو منافق لا يفكر بعقليته ولكن بعقلية أبيه وإذا قال
أنه معارضاً لرأي أبيه فإن المعارضة ترحب به لا لأنه رأى له قيمته ولكن لأنه
رأى لابن إسماعيل عبد الصور ويمكن استغلال الابن عند أبيه . . بل إنه
كتب يوماً مقالاً سياسياً وسلمه بيده إلى رئيس تحرير الصحيفة وما كاد يعود
إلى البيت ويلتقي بأبيه حتى قال له في فجأة الهادئة العاقلة :

- دعك من المقالات السياسية الآن يا أشرف . . إن ما تكتبه سينسبه
الناس إلى . . فإذا صممت فلنتفق أولاً على ما ينشر وما لا ينشر . .

إن أباه على حق . . هذه هي الحقيقة . . كل ما يكتبه سينسب إلى أبيه . .
ولكن الحقيقة التي لا يريد أن يعترف بها أبوه هي أنه ضحية . . شهيد . . ما دونه
حتى لا يكون من حقه رأى خاص به .

وقد حاول بعد ذلك كثيراً أن يتفوق في شيء ينسب إليه وحده .
حاول أن يتفوق في الرياضة . . لعب التنس . . والشيش . . وأيضاً
المصارعة والملاكمة . . لكنه لم يستطع أن يتفوق في شيء . . وكانوا ينصرون إليه

وهو يلعب على أنه ابن ذوات يتسلل . . ابن إسماعيل عبد الصبور . .

وحاول أن يتفوق في دراسته . . وقد تفوق فعلاً ولكن تفوقه ضاع في زحمة الإشاعات التي تثار حوله بعد كل امتحان . . إنهم يقولون إنه يحصل على كل الأسئلة قبل الامتحان . . ويقولون إنه يصح إشارة خاصة على ورقة الإجابة حتى يعرفها المصحح فيعطيه الدرجة القصوى . . وعندما التحق أخيراً بكلية الهندسة قيل إنه استثنى من شرط المجموع . .

وبعد ذلك . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور .

أشرف وحده لا يساوي شيئاً . .

إلى أن أدت به عقده إلى التمكيد في ارتكاب جريمة . . سرقة سيارة . . ربما تأكد الناس بعدها أن شخصيته تختلف عن شخصية أبيه . .

* * *

ووقفت السيارة الفخمة أمام باب البيت ، وفتح السائق الباب ، وضغطت

أمه على يده وقالت في توسل :

- أشرف . . من أجل خاطري . . تحمل أبائك . .

وهز رأسه يطمئنها في صمت ، ودخل البيت وراها . . ولم ينتجه إلى غرفته هرباً من لقاء أبيه ، ولكنه انجه إلى العربة التي يعتقد أن أباه ينتظره فيها . . ووقف أمامه صامتاً وهو ينظر إليه بكلتا عينيه كأنه يريد أن يؤكد له أنه ليس نادماً على ما فعل ولا خجلاً . . وأبوه ينظر إليه في حيرة . . ليست نظرة ثورة على هذا الابن ولا حتى نظرة غضب ولكنها نظرة حسرة وألم عاطفي كأنه ينظر بها إلى ابنه المريض . . وقال إسماعيل عبد الصبور في لهجة اليائس :

- ما هذا الذي فعلته يا ابني ؟

قال أشرف في جمود :

- سرقت . .

قال الأب في تأفف :

- وهل كنت في حاجة إلى السرقة ؟

قال أشرف ولمجته لا مخلو من السخيرة ؟

- طبعاً لا . . ابن إسماعيل عبد الصبور لا يمكن أن ينقصه شيء حتى يسرق . .

إشارة واحدة من أصبعي تجعل سيارات الدولة تحت أمري . . ولكني سرقت

لإجراء تجربة اجتماعية . . كنت أريد أن أكتشف هل أنا بنى آدم أم أنى مخلوق

من نوع آخر . . نوع من الملائكة أو من الشياطين . .

ورم عبد الصبور شفثيه امتعاضاً ثم شد نفسه كأنه يتحامل ويستعين

بالعبر وقال :

- وماذا اكتشفت ؟

قال أشرف وابتهامته الساخرة تتسع :

- طبعاً لا يمكن أن أكون مجرد بنى آدم . . أنا ابن إسماعيل عبد الصبور . .

ابن البنى آدم إذا سرق يقبض عليه ويقدم للمحاكمة ويدخل السجن . . أما

النوع الآخر من المخلوقات الذي أنا منهم فإنه إذا سرق فإن رجال البوليس

يصطفون قرة قول شرف تحية له ، والنيابة تتحنى إحتراماً ، والحكام تعتبر

فسها في عطلة رسمية كأنها في يوم عيد وطني . .

وقال عبد الصبور وقد بدا كأنه قرر أن يكون مازحاً :

- اسمع يا ابني

وصرخ أشرف مقاطعاً :

- اسمع أنت يا بابا .. إذا لم تحقق معي النجابة في الجريمة التي ارتكبتها
فلن أسكت .. ولن يهجم شيء .. سأخرج في الشوارع وأصرخ حتى يعرف
الناس أن ابن عبد الصبور لم يصر أو يتصوروا أن ابن عبد الصبور مجنوناً ..
وارتفع صوت عبد الصبور محتداً :

أبهكت يا ولد .. إن أقل حق لأليك عليك هو أن تستمع إليه ..
وإذا كنت تعتقد أني أحملك حماية لسمعتي ولصالحى فأنت جاهل .. أحمق ..
وما يعذبني أنك وقد بلغت العشرين من عمرك تزود جهلاً .. إن مصالحي
كانت تفرض على العكس .. تعرض على أن أقدمك لميابة وأن أوصي بتشديد
العقوبة عليك حتى أخلص ذمتي أمام الناس الذين يتقون بي ، وحتى أنت طولاء
الناس أني في سبيل العدالة أضحي حتى بابتي ..

واهتزت حصى أشرف وهو يستمع لأبيه كأنه اكتشف شيئاً جديداً كان
غائباً عنه ، واستطرد الوالد قائلاً :

- إن القبض عليك كان يشرفي كرجل مسئول .. ولو كنت متأكداً من
أنك فعلاً قد وصلت إلى حد الإحرام ، لما ترددت .. ولكني واثق أنك لست
مجرماً ولن تكون ، ولكذلك تعاني حالة نفسية أعرفها و ..
وقاطعه أشرف كأنه يقاوم اقتناعه بمطوئ أبيه :

- طبعاً أنت تعرف كل شيء .. أنت خبير في الاقتصاد .. وفي السياسة
وفي القانون ، وفي الدين .. وأنت الآن خبير في علم النفس أيضاً ..

وقال الأب دون أن يغضب كأنه يعلم أنه في كل ما يقول :
- فعلاً أنا خبير في علم النفس وإلا لما نجحت .. وأنت تعاني عقدة ..
عقدتك هي أنا .. وهي ليست عقدة غريبة إنها عقدة التطور الطبيعي للأبناء

إلى أمد بما وصل إليه الآباء .. وقد كنت معقداً من أبي لأنه كان فقيراً لم
يستطع أن يتقدم بنفسه وهي عقدة دفعني إلى أن أعمل أضغاث ما كان مقدراً
لي أن أعمل وأن أكتشف بنفسى طريقاً لم يكتشفه أبي .. وبعد وصلت إلى العشرين
والناس يتحدث عنى دون أن تنسني إلى أبي ، بل إن أبي كان ولا يزال يسب
بي .. لم أكن أوصف بأى ابن فلان بل كنت في يوصف بأنه أبو فلان
وأنت .. إن عقدتك عكسية لقد ولدت لنجد أبك قد حقق شيئاً كبيراً ،
وكب يمكن أن تكفي بما حققه أبوك وتعيش راضياً فخوراً به ، ولكذلك ورثت عنى
طموح الشخصى فحاولت مد صورك أن تحقق شيئاً مميزاً ينسب إليك وحملك ..
وكان هذا يسعدنى .. أما أيضاً أريدك أن تنجح في شيء ليس لي فصل فيه ..
بالمردوع التامح يتمنى أن يكون ابنه طبيباً تاجراً حتى لا يكون له فصل في
نجاحه فيحس أنه أعجب شخصية كاملة تستطيع أن تحلق بمسار نفسها .. وكذلك
ما .. إنى أتمنى أن تكتشف لنفسك طريقاً غير طريق .. أحياناً أنجيل أنك عالم
في اللغة .. ولكن عقدتك كانت أقوى منك فلم تستطع أن تتحمل الوقت
لطويل الذى يتطلبه بناء شخصية قوية في مواجهة شخصية أبيك .. إلى
أنت وجودى أمام أبى وأنا في العشرين ، أما أنت فربما تحتاج إلى أن تنتظر
ونتمتع إلى سن الأربعين ..

وسقط أشرف حالساً على مقعد رأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم
منطق أبيه ، وقال وصوته يتهدج كأنه على وشك البكاء :

إن الناس لا تترك لي مجالاً للإحساس بنفسى .. لإثبات وجودى ..
بلثقة في أنى أستطيع أن أكون مستقلاً .. إنى دائماً صورة للماضى .. دائماً
ابن إسماعيل عبد الصبور .. حتى وأنا ألعب وكأنى أبعد قراراً رسمياً أصدره إسماعيل

عبد الصبور باللعب . .

وقال الأب وهو يقترب من ابنه ويمد يده يربت بها على كتفه :

- تسافر إلى الخارج . . وتم تعليمك هناك بعيداً عن الناس هنا . .

وابتسم أشرف في مرارة قائلاً :

- حتى في الخارج . . عندما كنت أسافر في الصيف كنت أبقى حبيساً

داخل شخصيتك ، وعندما كنت أذهب إلى أحد الكاباريات لأرقص كانت

السفارة كلها تلمحق وترقص معي . .

وقال الأب في رجاء :

- إن ملاحقة شخصية الأب لشخصية ابنه لا يمكن أن تعوقه عن بناء

نفسه و . .

وقاطعه أشرف وهو يهيب واقفاً :

- أرجوك يا بابا . . دعني أفكر لنفسى . . أنى سأحاول أن أعيش بعيداً

عنك ولكن لا تسألني أين ولا كيف . . وثق انى لن أكرر خطئى . . لن أرتكب

جريمة تمسك . . لن أفكر في مستقبل على حساب الماضى . .

وقال الأب وابتسامة ضعيفة بين شفتيه :

- أنا لست الماضى يا أشرف . .

فقال أشرف :

- أريد أن أحس بك كما مضى حتى أجد مستقبل . .

وهز الأب رأسه في أسف قائلاً :

- لقد تركتك حراً دائماً . . المهم لا تضطربني أن أثبت للناس حرصى على

الحق حتى لو ضحيت بابنى .

قال أشرف :

- لن يحدث . . فقط دعنى وحدى . .

قال الأب :

- لا تحرمنى من طبيعة الأب . . أريد أن أطمئن دائماً عليك .

وقال أشرف :

سأطمئن مام دائماً . أرجوك . . اكتف بماما للاطمئنان على ولا تعتمد

على أى وسيلة أخرى . .

ونظر إسماعيل عبد الصبور إلى ابنه طويلاً ، وقال وهو يشهد كأنه في موقف

وداع :

- إنها تجربة سأتركك لها . .

كأن القرار الذى اتخذته هو أن يبتعد عن أبيه . .
ولكنه لا يدرى أين يبتعد .

وكان القرار هو أن يخلق لنفسه شخصية جديدة قائمة بذاتها منفصلة عن
شخصية أبيه الرجل الناجح المشهور .

ولكنه لا يدرى كيف تكون هذه الشخصية الجديدة . .

وفكر أن يهاجر إلى أمريكا . . لا . . أمريكا مزدهرة بالعرب ووالده
على صلات قوية بمراكز القوى هناك ، ولن يستطيع أن يكون شخصية منفصلة .

فهاجر إلى أستراليا . ولكنه كى يهاجر يجب أن يقدم أوراقه إلى مكاتب الهجرة .

أى يكشف نفسه . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . . وأى سفارة يقدم لها
أوراقه مستحصل بالولادة فوراً . ثم ماذا يعتمد عليه في هجرته . . إنه لم يتم

تعليمه . لا يزال في السنة الأولى بكلية الهندسة . ولا يجيد أى عمل ، ولم يتعلم
بعد الاحتراف ولا حتى احتراف أن يكون سائق تاكسى . . إنه في أى مكان

في العالم مضطر أن يبقى معتمداً على شخصية أبيه . . على نفوذ أبيه أو على
أموال أبيه . . إنه حتى قيل أن يخرج من البيت أخذ من أمه مائة جنيه . . لم يخرج

إلا وشخصية أبيه في جيبه . . الشخصية التى تستطيع أن تعطي . . وربما كان
الأفضل أن يستسلم لرأى أبيه ويقرر أن يسافر ليتم تعليمه في الخارج على حساب

الدولة أو على حساب أبيه . . ولكن لا . . إن ما يعذبه ليس وجوده في مصر
إنما وجوده داخل شخصية أبيه سواء في مصر أو خارج مصر . ثم إنه لا يريد

أن يـ تعليمه . . إنه يستطيع أن ينجح في كلية الهندسة ويحصل على البكالوريوس
بسهولة . ولكن الحياة لم تعد تعتمد على الشهادات الجامعية . الشهادة قد
تكون شرطاً للحصول على وظيفة ولكنها ليست شرطاً للنجاح في الحياة . . معظم
الناجحين في الدول المتقدمة لا يحملون شهادات جامعية . . وهو يحس أنه
ملك إمكانيات يمكن أن تحقق له النجاح حتى لو بدأ كبائع ترمس .

عما كان مخوناً .
وتسبم به وبين نفسه انتقامه حربته . إن عليه أن يكشف أيضاً هل
هو مخون أم عبقري . .

وتردد أن يشار إلى شاطئ العجمي . وسبح في الشتاء والشاطئ خال يستطيع
أن حتى في من شخصية والده ويترك نفسه هناك لهكرة إلى أن يقرر مصيره . .

وقد اختار شاطئ العجمي لأنه منذ سنوات شبابه الأولى تعود أن يهرب إليه في
سبب لصيف بعيداً عن مجتمع أبيه الذى كان يحتل شاطئ المتزة حيث أعلن

هذا المجتمع - أنه الوريث الشرعى لأستقرائية العائلة المالكة . .
وفي العجمي استأجر بيتاً صغيراً على شاطئ " يسكنى " لا يعرف صاحبه ،

بعد استأجره من الخفير ، وربما كان الخفير يحتفظ بقيمة الإيجار لنفسه لأنه
ساحل جداً في تقديرها . . عشرون جنيهاً في الشهر . . بيت مؤسس مفروش

وصحبت . إن الخفير حارس ومن حقه أن يطبق نفس لوائح هيئة الحراسات
التي فرضت على بيوت الناس . .

وبعد اليوم الأول قرر أن يطلق شعر رأسه وذقنه لينتفى . . لا يمكن أن يتصور
أن هذا الشاب الذى أطلق شعر رأسه حتى كتفيه وأطلق ذقنه وهدهدها على

عبد المودرن يمكن أن يكون ابن إسماعيل عبد الصبور . . إن ابن إسماعيل

عبد الصبور لا يمكن أن يكون كفية الشبان . . إنه نوع آخر . . صنف آخر . .
 واتسم في فرح وأطلاق . . إنه منذ سنوات وهو ينتمى فضلاً أن يطلق شعر رأسه . .
 كان مقتنعاً أن إطلاق الشعر هو نوع من إثبات شخصية الجيل الجديد . .
 وكل جيل من حقه إثبات شخصيته وفرض مزاجه . . وقد قرأ أن الجيل السابق . .
 جيل والده . . عاش أيضاً في تقليبة يرفضها الجيل الذي سبقه . . تقليبة
 البطلونات الواسعة التي كانت تسمى شارلستون ، وتقليبة إلصاق شعر الرأس
 بدهن « البريانتين » و « العازلين » ، وكان الجيل الأسبق يتهمهم بالخشونة والميوعة
 وأنهم ليسوا رجالاً . . من يسرى ربما كان أبوه قد لس البطلونات الشارلستون ودهن
 شعر رأسه بالبريانتين ، ولكن كل جيل ينسى شبابه بمجرد أن يتعداه إلى الشيخوخة . .
 ولكن الواقع أن أباه لم يحذره أبداً من إطلاق شعر رأسه وذقنه إنما هو نفسه كان
 مقيداً بشخصية أبيه إلى حد أنه كان يحرم على نفسه أن يتطلق مع تقاليع الشباب . .
 وربما كان أول ما بدأ يحس به من مسئولية كاملة هي مسئولية عن نفسه وعن
 حياته العادية . . إنها المرة الأولى التي يعيش فيها وحيداً . . وهو المسئول عن إعداد
 إفطاره وغدائه وعشاءه . . وتنظيف البيت وإعداد فراشه وغسل ثيابه . . وقد احتار
 أمام مطالب صعبة لم يكن يحس من قبل بأهيتها ، وكان يضحك ويسعى إلى
 مطالبه كأنه كريستوف كولومبوس يسعى إلى اكتشاف عالم جديد . . وعندما
 تشدد به الحيرة كان يلجأ إلى الخفير وزوجة الخفير ، ولم يحاول أبداً أن يكون له
 خادم . . إنه يريد أن يكون نفسه . . ولكنه يفتح عينيه مكرراً في مصيره . . ويسعى
 إلى مطالب حياته اليومية مكرراً . . ويخرج إلى الشاطئ يجري ويسبح وهو يفكر . .
 وكان يترك العجمي أحياناً في الليل وبعد أن طال شعر رأسه ويتجول في حي المكسي
 أو يصل إلى حي محرم بك في الإسكندرية . . ودائماً على قدميه أو في أتوبيس

وأحياناً في تانكي ، فقد كان من بين القرارات التي اتخذها ألا يأخذ سيارة من
 بيت أبيه . . ويتناول العشاء في مطعم شعبي وهو مطمئن إلى أن أحداً لن يعرفه
 ولن يكتشفه ، وعلى كل حال فهو لم يكن معروفاً خارج مجتمع أبيه ويجتمع
 زملائه في المدرسة أو الجامعة ، فلم تكن صورته تنشر في الصحف ، ولم يكن
 قد قام بعمل يلفت نظر الناس إليه . . وهو دائماً يفكر . . وعندما يريد أن
 يستريح من التفكير يقرأ . . وكان يختار كتباً متعددة الموضوعات . . لا يستقر
 على موضوع واحد . . وكان يجيد اللغة الإنجليزية ، ويخطر على باله مرة أنه يمكن
 أن يكون عالماً فكرياً فيشتري كتاباً في الفلك ولا يتم قراءته . . وأحياناً يجيل إليه
 أن في داخله نزعة إلى الأدب فيقرأ في القصص . . أو في التاريخ . . أو في
 الهندسة الميكانيكية . . ولكنه لا يتم كتاباً أنداً . . والجلد الذي طرأ عليه أنه
 بدأ يقرأ إعلانات الوظائف الخالية التي تنشر في الصحف . . كان من بين
 ما يخطر على باله أن يبدأ مصيره بوظيفة صغيرة على أن يبقى مجهولاً لا يعرف أحد
 سر أبيه . .

وكان يحرص على أن يتصل بوالده بالتليفون مرة كل أسبوع ليطمئنها ،
 ووالده تستمع إليه في قرعة ، وأيضاً في استسلام . . فهي لا تسأله عن أكثر
 مما يريد أن يقوله لها . . تخاف إن سألت أن يهرب منها هي أيضاً كما هرب من أبيه . .
 وكانت تعلم أنه يقيم في الإسكندرية ولكنه لم يقل لها في أي مكان من الإسكندرية ،
 ولم تسأله . . يكفي أنه يطمئنها على نفسه ، وكانت كل مرة تعبر عن لطفها إليه
 أن تسأله في نهاية كل مكالة :

— ألا تريد شيئاً يا أشرف . .

ويرد في صوت مرح متعائل :

- أبدأ يا ماما ..

وقد مضى حوالى شهر على غيبته ، والمائة جنيه التى خرج بها على وشك أن تنسى .. وهى معجزة فى تقدير أمه أن يعيش كل هذه الأيام بمائة جنيه فقط . وتصويره أنه وجد عملاً يتكسب منه أو رعا يعيش فى رعاية بعض أصدقائه . ودائماً قلقة كيف يستطيع أن يعيش بمائة جنيه فقط . ودائماً تحاف أن تسأله .. إن ابنها ليس طبيعياً وقد يثيره السؤال ..

ولم يكن أشرف يعتمد التوفير . ولم يعتمد أيضاً التزول عن مستوى الحياة التى كان يعيشها والتى لا يمكن أن تكفيها مائة جنيه خلال شهر .. ولكن هذه هى الحياة التى يعيشها دون تعمد ولا احتياج فيها لأكثر مما يتفق .. ولكن المائة جنيه انتهت .. والخفير فى انتظار العشرين حينها قيمة الإبحار .. ليس أمامه إلا أن ينجأ إلى أمه .. ولكن كيف يلتقى بها ليأخذ منها ما يريد .. ووضع الخطة .. سيطلب منها أن تأتى إلى الإسكندرية وتقيم فى بيتهم هناك .. ويقابلها خارج البيت حتى لا يكتشفه العسكرى الواقف على الباب .. يقابلها فى المساء وفى سيارة تاركسى حتى لا يعرف أحد أن ابن إسماعيل عبد الصبور قد أطلق شعر رأسه وذقنه .. لا .. لن يقابلها فى الطريق .. داخل حدائق المتزة .. واستقر على الخطة وقال لأمه فى التليفون وهى تسأله :

- ألا تريد شيئاً يا أشرف ؟

وقال ضاحكاً :

- أفلست يا ماما .. أفلست قبل أن أصل إلى رأى ..

وقالت فى ذعر :

- أطلب يا أشرف .. اطلب .. كم تحتاج يا حبيبى ..

وأصر على أنه لا يريد أكثر من مائة جنيه أخرى . وحدد لها حطة اللقاء ،

وسلمت للخطة ملامناقشة .. إنها على الأقل سترى إيه الوحيد

وهذا . بين أشجار مدينة المتزة . وقتت أمامه تنظر إلى شعره الطويل

ودعه لمهدية نظرات حائرة كأنها تبحث عن ابنها الذى تعرفه . ثم ألقت نفسها

بين صدره تكى ، وقالت من حلال دموعها كأنها تحاف أن تعصبه بدموعها :

- إلى أبكى قرحاً يا أشرف .. أوحشنى يا ابنى ..

وهو يقلعها فى كل مكان من وجهها ويرفع يدها ويقبلها .. وهى تنظر إلى

شعره الطويل وتضحك ضحكة خافتة وتشد خصلة منه وتقلعها ، ثم تمسح

بأصبعها فى ذقنه قائلة :

- هذه الذقن تجعل من أمك امرأة عجوزاً .

ويتقطر إكجان .. ويسير تحت الأشجار كأنها عاشقان .. ويرى لها

كل حياته .. أين يعيش وكيف .. وتضحك حتى تحق حسرتها وجزعها عليه ..

وتسأله فى تردد خشية أن يفسر تساؤلها كأنه لوم :

هل أنت سعيد بهذه الحياة ..

وقال ضاحكاً :

- على الأقل أصبحت لا أستطيع أن أنب شيئاً مما يصابقنى إلى أبى ..

أنا المسئول وحدى عن نفسى .. وكل ما يتقصى هو أنت ..

واستمر لقاءهما طويلاً ، وربما تعمدت الأم أن تطيل فيه لعله يرضى فى

النهاية أن يعود معها إلى البيت .. لقد تجاوز الليل منتصفه وقد لا يرضى أن

تعود أمه وحيدة . ولكنه تركها تعود وحدها وقالت وهو يصحبها إلى قرب سيارتها

لأنى جاءت بها وهى تقودها نفسها تهديداً للخطة التى وضعها :

قال كأنه يتهمها بالغباء :

- طبعاً أستطيع أن أعرف كل شيء . .

قالت :

- ولماذا لم تقل لى . .

قال :

- فضلت أن تعرف منه هو . . إنها إحدى وسائل العلاج النفساني . .

أن يتأكد من أنه أصبح أقوى منى إلى حد أنى لا أعرف مكانه . . وقد خشيت

أن يعرف منك أنى أعرف . . أعرف كل شيء . .

وتهدت فى ألم وقالت فى يأس :

- لعلك تكشف لى علاجاً أنا الأخرى . .

• • •

وفى التجمي . . فى يوم من أيام الشتاء والشاطئ يكاد يكون خالياً من

الناس تعرف أشرف إلى ديتوس وعائلته . . إنها عائلة يونانية نقيم فى الإسكندرية

وتملك بيتاً فى المعجمى قريباً من البيت الذى استأجره أشرف ، تقضى فيه

عادة إجازة نهاية الأسبوع . . يومى السبت والأحد . . وكان أشرف جالساً

أمام بيته ينظر إليهم من بعيد . . ويتسم وهو يتتبع صياحهم ورقصاتهم . إن

عدهم كبير . . شيوخ وشبان وأطفال . . وكانت ابتسامته تنبض بالحسرة

على نفسه . . إنه لم يعيش أبداً مثل هذه الحياة العائلية المرحية . . ولم يجرب

إجازة نهاية الأسبوع . . الخميس والجمعة . . إن عائلته فى يوم الجمعة

تعودت أن يهرب كل واحد فيها من الآخر . . وأبوه يصبح يوماً ودمه أقل من

أى يوم آخر ، كأنه لا يحاول أن يستريح من متاعب الأسبوع الذى مضى ولكنه

- هل أراك غداً . .

قال وهو يسحب ابتسامته ويبدو جاداً :

- لا . .

قالت فى استجدهاء :

- إنى سأبقى بضعة أيام فى الإسكندرية . .

قال وهو أشد حزماً :

- أرحبك يا ماما . . عودى غداً إلى أنى . .

قالت ودموعها تكاد تنفجر :

- ولكنى لم أشيخ منك . .

قال :

- لنعود . . إنها حياة جديدة . . لا تضطربنى أن أختفى فى بلد آخر .

واحتضنها بسرعة وقبلها ، ثم تركها مبتعداً وجرى وراء أنوبيس وتعلق به . .

ودخلت الأم إلى سيارتها وألقت رأسها فوق عملة القيادة وبكت . .

وعادت إلى القاهرة فى اليوم التالى إطاعة لأمر أشرف وحتى لا يفر إلى بلد

لا تعرفه ، وعندما التقت بزوجها إسماعيل عبد الصبور قالت وهى تحاول أن

تغلب بفرحتها على حسرتها :

- عرفت أين يقيم أشرف . . إنه فى المعجمى . .

وقال إسماعيل عبد الصبور فى برود :

- أعرف . .

وقالت فى دهشة :

كيف عرفت ؟

يجمعها فوق رأسه . .

وخرج دينوس من بين الشلة واقرب من أشرف وقال وهو ينطق بالعربية
إن لمجة تراقص فيها الموسيقى اليونانية ؛

.. من فضلك . هل تعرف أحداً نستأجر منه أنبوبة بوتاجاز . . اكتشفنا
أن الأنبوبة عندنا فارغة .

وقال أشرف :

.. إن الخفير يعرف كل شيء هنا . .

وقال دينوس :

.. إذن لأبدأ البحث عن الحفير . . شكراً . .

وقبل أن يتعد استوقفه أشرف قائلاً :

.. تستطيع أن تستعمل البوتاجاز الذى عندى . . إنى لست فى حاجة إليه

اليوم . . والخفير قد لا يجده الآن . .

وتبادلا كلمات سريعة ثم دخل دينوس مع أشرف إلى المطبخ وحملا

أسورة البوتاجاز ، كل منهما من ناحية ، وعادا بها إلى البيت الآخر . .

واستقمت العائلة بالليل المرح ، وعرف واحد منهم على « البازوكا » لحن السلام

الملكى القديم تحية لأنبوبة البوتاجاز . . ووقف أشرف بينهم ضاحكاً حائراً . .

إلى أن تقدم إليه الرجل الكبير . لعله الأب . . يقدم له كأساً من بييد الريتسينا

صائحاً :

.. فى صحة البوتاجاز . . وفى صحتك .

وشرب الكأس ضاحكاً ، وفى لحظات أحس كأنه واحد منهم . . واللغة

اليونانية تملأ أذنيه . . كلهم يتكلمون فى وقت واحد ، وكل منهم لا يكف عن

السلام أبدأ . . ويتجهون إلى وجوده بينهم فيطلقون بضغ كلمات بالعربية ثم

موسم بسرعة إلى إطلاق قدائف يونانية . . إن اللهجة الجريكية أشبه بقدائف

.. ويحاول أن يلتقط أسماء كل منهم . . دينوس . . مايوى . . بابادولو

الكى . . مارينوس . . وأسماء البنات . . صوفياس . . جوانا . . مايوا . .

أبى . . كاتيا . . إنه يحس وسط كل هؤلاء كأنه طار بعيداً عن مصر . .

بعيداً عن أبيه . إنه الآن فى أثينا . . وعيناه تطفوان بشوارع أثينا ثم تتوقفان

طويلاً عند كاتيا . شئ فى دجحه يشده إليها . حيل إليه أنها أجمل بنت

عائلة . وهداهن على الأقل إنها نقل لبيت ثرثرة . والجميع فى حاجة

دائمة إليها . . كاتيا . . كاتيا . . كاتيا . . وهو لا يدري ماذا يطلبون منها ولكنها

سحرك دائماً والتفت إليها مرة فوجدتها هى الأخرى تنظر إليه من بعيد . .

وتلقت عينها بعينه وبينهما ابتسامة .

وخرجوا جميعاً إلى الشاطئ يلعبون الكرة ، ويتساقون ، ويقفز أحدهم

فوق الآخر . ويتحدون أحدهم الآخر من مهم يقبل أن يتزل البحر فى عز البرد . .

هان . وقبل أشرف الرهان ونزل إلى البحر وخرج وهو يقاوم وعشته . وكانت

مسة الرهان أن تسقيه كل فتاة من العائلة كأساً من الريتسينا . . وصاحت

ديا . . يهيم بكلمات كثيرة حريكية لم يفهم منها شيئاً ، ثم تقدمت إليه

بحمل كأساً وقالت فى لغة عربية لمة تتعثر كلماتها فوق لسانها حتى اضطربت

أن تقبها إلى اللغة الإنجليزية :

.. أخاف عليك أن تسكر . . لاشك أنك لست معتوداً على شرب

الريتسينا . . كأس واحدة تكفى . . كأسى . .

وشرب الكأس وقال ضاحكاً :

..

- أحس كائى عندما ولدت أرضعنى ريتينا . .

وضحكك وقالت كأنها أمه التى أرضعته :

- قم نلعب الراكث حتى تدفأ . .

وقام يلعب معها الراكث وجميع يهللون من حولهم . . براهو أشرف . .
أشرف نرجوك لا تهزم كاتيا . . وكان قد قدم نفسه إليهم باسم أشرف إسماعيل ،
ولم يتم بقية الاسم كأنه بدارى عورته . . وترك كاتيا تغلبه . . أو هكذا أفتعته ،
ولكن الواقع أنها غلبته . .

ولتعب معهم حول أطباق طعام الغذاء . . وعرف أن الكباب الجريكى
اسمه سوفلاكى . . وأحس أن أطعم سلاطة دافها هى السلاطة الجريكى التى
يضاف إليها الجلين . .

وفى العصر . . واجتمع فى راحة وقد سكنت طلقات التريلوز الجريكية .

كان نينوس ممدداً بجانب أشرف على الشاطئ يروى له قصة عائلته . . أنهم
كلهم ولدوا فى مصر . . منذ أيام أجدادهم وهم فى مصر . . وكان أبوه وعمه
يعملان فى البورصة ويديران شركة كبيرة لأعمال التصدير والاستيراد ، ويمثلان
شركات للنقل البحرى . . ثم فى عام ١٩٦٠ شملهم التأمين صودر كل
ما يملكون . . واضطروا إلى الهجرة إلى اليونان ما عدا العم ، ، فقد أصرع على
أن ينهى حياته فى مصر واستسلم لضياغ أمواله واكتفى بأن أصبح شريكاً لصديق
يونانى يملك مقهى ومطعماً فى الإسكندرية قريباً من محطة الرمل . . والذين
عادوا إلى أثينا أحسوا أنهم غرباء هناك حتى الشباب منهم . . لقد نجحوا فى أعمال
كثيرة ضخمة هناك ولكنهم دائماً غرباء ، وأهل أثينا أنفسهم يعتبرون الجريك
الوافدين من مصر غرباء ، بل يحاربونهم ويحاولون قطع أرزاقهم ، وبما أن

حدث مصر هم أمهر وأرقى من جريك اليونان أنفسهم ، على الأقل يتميزون
بإجادة اللغات الأجنبية التى أصبح العمل فى اليونان يحتاج إليها احتياجاً أساسياً ،
فى حين أن عدد الذين يجيدون اللغات هناك لا يكفى . .

واستطرد نينوس يروى القصة . . إنهم برغم محاحهم فى بلادهم قرروا
العودة إلى مصر بمجرد أن شعروا بالاطمئنان . . وعاد معظمهم لالبطالوا
تمتلكاتهم التى ضاعت منهم ولكن لبدأوا العمل فيها من جديد . .
وضحك نينوس قائلاً :

- هل تعلم ما هو مشروعنا الجديد . . إنشاء مطعم ومقهى جديد . .
مصمم كبير صمم من المطاعم السياحية العالمية . . إن عمى بعد أن اشترك
فى إدارة المقهى الصغير أصبح يؤمن بأن المقاهى والمطاعم أكثر ربحاً من الشركات
العالمية . .

وقال أشرف فى تردد :

- وكاتيا هل ولدت فى مصر . . إن لقبها العربية ضعيفة .

وقال نينوس وهو ينظر إليه كأنه يفهمه :

كاتيا لم تكن قد تجاوزت عاماً واحداً من عمرها عندما أخذناها إلى
أثينا . . وبرغم ذلك فقد كبرت وكأنا تعيش فى مصر . . إن مصر فى دمتنا . .
والأفكار تتضارب فى رأس أشرف كأنه وجد الطريق الذى يحدد من خلاله
مصيره . . كأنه هو الآخر مثل باقي أفراد العائلة عاد إلى مصر بعد أن ولد فيها
وغاب عنها طويلاً . . ولم يخلص من أفكاره إلا عندما بدأ القروب وبدأت العائلة
تعود إلى نشاطها ومرحها . . وسهر معهم على نضامات البوزك . . يسمع أغاني
لبوزوكا ، ويحاول تقليد رقصات الكلاماتيانوس والسيرتاكى والكاسيو . .

ويرقب كل شيء كأنه قرر أن يعلم كل شيء .. أن يصبح جريكياً .. وكانتا ترقص معه وتعلمه خطوات الرقصات اليونانية وتضحك ، ودائماً تعامله كأنها مسئولة عنه .. كأنها أكبر منه .. إنه حائر فيها .. ولا حتى ابتسامته تعطيه له لتشجيعه عليها .. إما ابتساماتها كلها كأنه الأخ الأصغر أو كأنه تلميذ يتعلم الحياة ..

وبرغم أن تينوس روى قصته لأشرف فهو لم يحاول أن يسأل أشرف عن أى قصة .. لم يحاول حتى أن يسأله من هو .. ربما لأنه حتى الآن لم يكن يهبه أن يعرف ..

وعادت العائلة كلها إلى الإسكندرية في مساء الأحد .

ولم يحتمل وحده أكثر من يومين . لم تعد أفكاره ولا قراءاته ولا إحساسه بمسؤوليته عن نفسه يمكن أن تشغله . واتصل بتينوس ودعاه إلى العشاء في مطعم المكس .. هو وماريا وكاتيا .. ثم انظرهم في شوق لقضاء إجازة نهاية الأسبوع في العجمي .. ثم أصبح يزور تينوس في بيته في الإسكندرية .. لم يعد حريصاً كل هذا الحرص على الاختفاء في العجمي . يكتفي شعره الطويل ودقته لإخفاء شخصيته .. وكاتيا تعبر عن مسؤوليتها عنه أكثر وأكثر .. إنها أيضاً تشرف على إدارة البيت الذى يستأجره وتتعهد أن تترك له كل مساء أحد كثيراً .. وضع الجبن التى يحبها وعدداً من رجايات النيد التى تكفيه بقية الأسبوع .. لم يعد يستطيع أن يستغنى عن النيد مع طعامه كائى واحد من أفراد الشعب اليونانى ..

ولم تعد الماتة جيبه تكفيه .. ثم أحس حاجته إلى سيارة .. ولم يقاوم حاجته ، طويلاً . اتصل بأمه وجاءته في لفة والتقت به في حدائق المنتزه طبقاً لنفس

الحلقة السابقة وروى ها عن صداقته الجديدة بالعائلة اليونانية ، وأخذ منها .. حبه لا مائة .. وعندما همت أن تودعه وتركب السيارة الصغيرة دون أن تعرض عليه أن يأتى معها خوفاً من أن يرفض .. فاجأها بقوله :

دعنى أقود السيارة حتى أوصلك إلى البيت وسأخذ السيارة لأنى في حاجة

إلى

وفرحت أمه .. فرحت لأنه سيخلص نفسه من بهدلة ركبوك الأتوبيسات وناكسيات .. وربما كانت تتخنى أكثر منه أن يأخذ السيارة ، فهى سيارة برك دائماً في بيت الإسكندرية ليستعملها الموظفون في فترات الصيف .. إن أشرف بدأ يفتق من جنونه .. لاشك أنه بدأ يفتق ما دام يطلب سيارة من بيت أبيه ..

وأشرف يحدث نفسه وهو يقود السيارة عائداً إلى العجمي .. يجب أن يعترف بأنه حتى الآن لا يستطيع أن يستغنى عن أبيه .. لا يستطيع أن يعيش إلا بغير أبيه . ولابد أن أنه يعلم بما تعطيه له أمه من تقود ، ولابد أنه سيعلم أنه أخذ هذه السيارة . إنه ليس مفعلاً حتى يتصور أن أمه تستطيع أن تحب شيئاً عن أبيه . لا يهم .. إنه على الأقل أصبح حراً .. هو الذى يطلب أو لا يطلب . لم يعد عبداً للمظاهر ولا لما تعرضه عليه شهرة أبيه . ولم يعد يتلقى أوامر من أحد .. وتحسن شعر رأسه الطويل ودقته المهدبة وانتم ساجراً .. كما كان هذا هو كل ما وصل إليه من حرية . أن يطلق شعر رأسه حتى لو كان من إسماعيل عيد الصبور . وسحب ابتسامته الساخرة وامتلات عيناه سطررات حادة وهو يقول لنفسه .. لا تياس .. انتك لم تبدأ بعد . لم تخض سوى ثلاثة شهور على حريتك . والأمل كبير في أن تتحرر من أيدي تحرراً كاملاً ..

أن تعمل وتكسب . لا تفقد الأمل . .

وكان على موعد مع كانيا في اليوم التالي . . كان يوم سبت وانفقت معه على أن تأتي إليه في الصباح الباكر قبل أن تصل بقية العائلة ، حتى تعد معه بيته ويبيتهم . . ولكنها ما كادت تصل حتى أخذها من يدها وأركبها بجانبه السيارة ثم انطلق بها كالجنون . . وقالت تسأله في هدوء كأنه لم يفاجئها بشيء

- إلى أين ؟

وقال دون أن ينظر إليها :

- لا بد أن نصل إلى شيء . .

وقاد السيارة يجنون حتى وصلا إلى شاطئ العلمين ، ثم توقف وبرزل من السيارة ونزلت معه وانجح بها إلى مقبرة قتل الحرب ثم توقف بين أعمدة الصلبان التي ترتفع فوق القبور ، وواجهها قائلاً :

كل هؤلاء شهداء . . وأنا لا أريد أن أكون شهيداً . .

قالت وهي تبسم ابتسامة هادئة :

- ماذا تقصد ؟

قال :

- إن الشهيد هو ضحية لحظة جهل أعمته عن الرصاصة التي قتله . . وأنا أعيش منذ أكثر من شهرين وأنا في جهل . . لا أدري أين أنا منك ، ولا أين أنت مني . . كل هذا وأنا لا أدري هل تعينني كما أحبك . .

وأرخت عينيها وقالت بعد لحظة صمت كأنها تفكر فيما يمكن أن تقول ، وكلماتها تتعثر ، بين العربية والإنجليزية :

- إني أعيش في جهل أوسع من جهلك . . إني إلى الآن لا أعرفك . .

عمر لقاء مصادفة جمعنا داخل الشلة . . وبرغم ذلك عرفت أن أحبيتك ولكنني فصلت أن أدري حتى حتى أعرفك أكثر . . إني لا أعرف عائلتك . . ولا أعرف عدد تعيش . . ولا أريد أن أسألك . . لا أنا ولا أني ولا أمي يريد واحد منا أن يسألك . . إننا حريتك . . وصداقتك ثمينة وأنتي الجميع بهذه الصداقة . . أنا وحدي التي لا أكتفي بها ولكنني أحسى نفسي بها . .

وقال في حدة :

لا أستطيع أن أقدم لك طلب حب على ورقة رسمية أسجل فيها اسمي واسم عائلتي والشهادة التي حصلت عليها بقيمة دخل وأملاكي . . أنا لا أبحث عن وظيفة حبيب لك . . لقد قدمت لك شخصيتي كاملة ، فإما أن تحي هذه شخصية أو ترفضها أو تكتفي بصداقتها . . وتصوري أني في حالة نفسية تدعيني أن أهرس نفسي حتى لا أريد أن أفصح عنها أمامك . . تصوري أني مريض . . ومريض يعطلي غير قادر على أن أقول من أنا . . بل قد أكون قد أخفيت عنك اسمي . . ولكن الحب يتسع حتى للمرضى . .

ونظرت إليها طويلاً وعيناها تضبانها إليها في حب وقالت كأنها تهمس :

- إنك لست مريضاً . . ولكنك في معركة لا أدري سرها . . هذا ما أحس . . وقد قررت أن أقف معك حتى تنتهي المعركة وبعدها أعرفك كلك بعد أن ترفع عنك ثياب وأقنعة الحرب . . وأنا متأكدة أنك لن تكون شهيداً ولا أنا فتعالى نخرج من هنا . . من حديقة الشهداء . .

واستدارت وهو معها وسارا بعيداً عن قبور قتل الحرب إلى أن أصبحا بين أشجار اللين البرشومي الممتدة حتى الشاطئ ، وقال وصوته لا يزال ناثراً :

- إن الحب لا ينتظر حتى تنتهى المعركة أوحى يشق المريض ..

ومدت يدها ووضعها في يده وهى تهمس :

- ومن قال إنه يستطيع أن ينتظر ..

وتوقف بها عن السير ونظر إليها طويلاً وهمس هو الآخر :

- هل أستطيع ؟

وشفتاهما تطلعا إلى شفتيه .. لم يعد فيهما سوى شفاه .. وكانت القبة الأولى بعد كل هذه الأيام التى جمعتهم .. وسقطا مع قبلتهما تحت شجرة التين .

وتحركت بين ذراعيه قبل أن تصل القبة إلى باقى جسديهما .. وهذا ما عودته عليه دائماً أن يكتفيا بالشفاه .. وقامت بجرى ضاحكة وهو يجرى خلفها إلى أن وصلا إلى السيارة :

وقال وهما في طريق العودة :

- لقد وجدتك .. بقى أن أجند نفسى ..

قالت كأنها تثير حماسه :

- وجدت الصعب وبقى السهل ..

...

وقد اعترفت العائلة اليونانية بأن كاتيا أصبحت لأشرف .. اعترافاً صامتاً لا يشير أى نكات حلوة يطلقونها أحياناً على تصرفات كل منهما نحو الآخر .. وهو دائماً معهم . وقد بدأ من خلال أحاديثهم يكتشف عالماً واسعاً لرجال

لأعمال .. إنهم لا يقصرون نشاطهم في مشروع المطعم والمقهى الكبير ، لكنهم وكلاء عن شركة فرنسية تطلع إلى بناء مدينة سياحية كاملة على ساحل البحر الأحمر .. إنه مشروع تصل تكاليفه إلى أكثر من ثلاثين مليوناً من الدولارات ، ولو استطاعوا تحقيقه فإن العمولة التى يحصلون عليها لا تقل عن نصف مليون . وهو يستمع إلى كل هذا ، وليس له أن يتقبل بكل فكره إلى هذا العام الجديد عليه .. من إن كل أحاديثه مع كاتيا حتى في خلوتها كانت تدور حول هذا العالم كأنه يحاول أن يتعلم منها ما لا يستطيع أن يتعلمه من أخيها أو من أبيها .. ويثام وهو يفكر .. ويصحو وهو يفكر .. إن كل هذه المشروعات التى يتحدثون عنها يمكن أن يحققها أبوه بساطة ولكنه لا يريد أن يلجأ إلى أبيه . إن مشروع المطعم يعتبر صغيراً بالنسبة لمشروع المدينة السياحية .. مشروع ليس في حاجة إلى تدخل أبيه ، فلماذا لا يشترك فيه ..

وحلّس مع صديقه ديبوس وعرض عليه أن يدخل معهم شريكاً في المطعم لسياسي . وعرض أن يساهم بعشرة آلاف جنيه ، وقال كأنه يفرى ديبوس :

- إني لا أريد ربحاً ، ولكنى فقط أريد أن أتعلم ..

ووعده ديبوس أن يعرض الموضوع على بقية العائلة : ثم غاب أياماً .. يوماً طويلاً . وعاد يعنى أشرف بأن العائلة قررت أن تقبّه شريكاً في مشروع المطعم

واتصل بأمه في التليفون ، وكان صريحاً برغم أنه يعلم أن التليمون يضم في داخله شريط تسجيل . وقال لها إنه يعلم أنها تحتفظ بمبلغ باسمها الخاص وهو في حاجة إلى هذا المبلغ ليساهم في مشروع .. وروى لها كل تفاصيل المشروع ، واتفق معها على لقاء ، وفي هذه المرة لم يتسكك بلقاء خدائق المتزوّج ،

إنه سيقاها في بيت الإسكندرية ..

وقالت الأم لزوجها .. ورد إسماعيل عبد الصبور فوراً :

- أعرف .. أنه مشروع مطعم .. اعطه ما يريد ولكن النصيحة أن يبقى مشروع الشركة سراً بينه وبين شركائه الجريك ..

وسافرت الأم إلى الإسكندرية ، وذهب أشرف للقائها في البيت ، ولم يتم كثيراً عندما أدى له العسكري الواقف على الباب تحية تعظيم سلام ..

واقنع بما نصحته به أمه وافق مع ديبوس ووالده بابا دوبرو على أن تبقى الشركة في اتفاق خاص بينهما ولا تسجل رسمياً ..

وتركوه حراً في أن يختار العمل الذي يريد أن يساهم به ، وقد اكتفى بأن يكون كل عمله هو أن يتعلم ويفهم ، وبدأ يراجع أوراق المصرف والإيراد .

وعملات استيراد ما يحتاج إليه المطعم ، وتكاليف العمالة .. بدأ يدرس العملية كلها . ووجد عقله يتفتح ويستوعب بسهولة كل ما يتعلمه ، حتى

أنه اكتشف أنه كان مخطئاً بالنسبة لنفسه عندما اختار يوماً ما أن يكون مهتماً والتحق بكلية الهندسة ، ربما لو كان قد التحق بكلية التجارة لجذبت أكثر

ولاً فرمها .

والعائلة كلها صاحبة المشروع تبدى إعجابها به دون نقاق ، وتستجيب بسرعة لأغلب اقتراحاته . ولكن . هناك فكرة للتوسع في المشروع لم يستطع

أحد منهم أن يحققها . فعلى المطعم الذي يقع على الشارع دور كامل من العمارة يشمل ثلاث شقق كانت الحراسة قد استولت عليه وأجرته للمحافظة

التي تستعملها كمكاتب لأرشييف السجلات . . لو استطاعوا أن يأخذوا هذه الشقق الثلاث ثم يصلون بينها وبين المطعم الأصلي الواقع إلى الشارع ، لأقاموا

١. مطعم في الإسكندرية بل واحداً من أكبر وأفخم مطاعم العالم . . وقد حاولوا كثيراً ودفعوا كثيراً من مقدم العملات من ارشوى ، حتى يفتحوا مكتب الحراسة بالغاء إيجار المحافظة هذه الشقق ليستأجرها . . ولا أمل .

وشغل أشرف كل فكره بهذا المشروع . . توسيع المطعم السياحي يعتبر صلاً خطوة وطنية أجدى على البلد من الاحتفاظ بهذه الشقق كمخازن للأرشييف . .

لاهم أن يتم هذا العمل الوطني على يد شركة حربية أو فرنسية أو إنجليزية ولأنهم أرباحه هو شخصياً . . إن أرباحه بمجرد أن يساهم في الشركة تصل إلى

مائة حبة في الشهر . . وقد فوجئ بهذا الربح السهل عندما أعطاه بابا دوبرو نصيبه . .

حيل إليه أنهم يشترونه ، أو على الأصح يرشونه ، ولكنه عند مراجعة حسابات لمطعم اكتشف أنه يستحق فعلاً هذا المبلغ . وهو ليس في حاجة إلى أكثر

منه وتمكبره في التوسع ليست دوافعه زيادة الربح إنما هو إبداع وطني لتحقيق مصلحة وطنية . .

ويرتدى في الصراح بدلة كاملة على غير عادته وذهب إلى الحلاق وقص شعره إلى أن أعاده إلى حالته الطبيعية ثم حلق ذقنه . . هل تخلى عن شخصيته التي حاول أن يخلعها . . وأجاب نفسه بلا . . إنه فقط وجد الطريق الذي يسير فيه . .

وسار إلى مكتب المحافظ ، ونظر إليه السكرتير في امتعاض :

- أفندم .

وقال أشرف في هدوء :

- أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور . .

وقفز السكرتير واقفاً وهو يقول في تلجلج :

- تشرقتا يا أفندم . . اعفضل .

وقاطعه أشرف :

- هل أستطيع مقابلة السيد المحافظ . .

وقال السكرتير في رعدة :

- طبعاً يا أفندم . . طبعاً . . دقيقة واحدة .

ودخل السكرتير إلى مكتب المحافظ . ثم عاد مهزولاً :

- اتفضل يا يا أفندم . .

وكان السيد المحافظ مجتمعاً ببعض موظفيه وقام من على مائدة الإحتياج يستقبل

أشرف مرحباً ثم التفت إلى الموظف قائلاً :

- الإحتياج يعتبر مستمراً إلى أن أدعوكم . .

وتخرج أعضاء الإحتياج وتفرغ المحافظ لأشرف . وروى له أشرف كيف

اكتشف أن هناك مصالح وطنية معطلة وأنه يجب تحقيقها حتى مع تحدى اللوائح . .

البالية . . وعليه يجب إخلاء الشق الثلاث من موظفي الأرشيف ليقام مكانها

معظم عالمي سياحي يفتح للبلد سنوياً من العملة الصعبة . .

واقترح السيد المحافظ سرعة ، ولكنه أمهل أشرف يومين حتى تراجع المسؤولين

في الوزارة

وكان أشرف يعلم أن أباه إسماعيل عبد الصبور لا بد ميعلم بهذا المشروع بل

وسيعلم أنه ذهب بنفسه للقاء المحافظ . وقرر أشرف أن يثبت حسن نيته وأن يعترف

بأنه في حاجة دائماً إلى أبيه ، فالتصل بأبيه وروى ها تفاصيل المشروع وهو واثق

أنها ستبلغ به والده .

وعاد إسماعيل عبد الصبور يقول بعد أن استمع لزوجته :

- عارف . . وأنا موافق . . الولد ابتلى يشتغل جد . .

ووافق المحافظ على المشروع بعد يومين . .

وم تصدق عائلة بابا دوبلو والخير وكادت تجر من الفرح عندما صدقته ،

بابا دوبا حفاً عائلياً حول برمبل كامل من البيذ تحية لأشرف ، وقال بابا دوبلو كأنه

سوى حصاناً رصيناً إنهم كانوا قد حصصوا ميراثية تباع قيمتها ثلاثين ألفاً من الجنيهات

للحصول على هذه الشقة وأصبح هذا المبلغ كله من حق أشرف . .

ورفض أشرف أن يتقاضى كل هذا المبلغ ، وقال إنه عضو مساهم في الشركة

و، يعود على الشركة يعود عليه ، ومع إصرار أشرف قررت العائلة أن تضيف الثلاثين

ألفاً إلى نصيب أشرف من الشركة . . وقام بابا دوبلو وهو ينظر إليه كأنه لم يكن

يصدق أن أشرف له مثل هذا الذكاء :

- هذا أفضل لك . . لقد أصبحت ابن سوق . إن نصيبك الآن في الشركة

يساوي نصف نصيب ابني دينوس . .

ولم تكن فرحة أشرف بما كسبه ولكنه كان فرحاً بأنه استطاع أن يشت شخصيته

بعيداً عن أبيه . . لقد قال أبوه إنه وهو في العشرين من عمره استطاع أن يكون

شحية منفصلة عن أبيه . . إنه هو الآخر استطاع أن يتصل وهو في الثانية

والعشرين . . لعله لم يتصل تماماً . . إن مشروع الشقة لم يمكن أن يتم إلا إذا

كان قد قص شعره وحلق ذقنه ليدنو أنه ابن أبيه . . ولكن ليس أبوه هو الذي

فكر في المشروع . وليس أبوه هو الذي قدمه إلى عائلة بابا دوبلو . . إنه الآن

شخصية تفكر لنفسها . .

وكانيا تنظر إليه من بعيد وهي تبسم في صمت . . ابتسامة لا تعب عن شيء .

لا أع فرح ولا عن قلق . . وأخذها أشرف إلى خارج المحل وقال وهو يرمع يدها

ويضع أصبعها بين شفتيه :

كانيا . لنعلن خطبتنا الليلة . ويتزوج الأسع القادم . . لقد فكرت
في كل شيء . سأجد شقة لنا غداً . . من السهل أن آخذ شقة خالية . . وإلى
أن يتم تأنيثها ناسفر إلى المحارج . إلى الريفيرا في فرنسا . . بعيداً عن هنا .
إلى تنطق كانيا بالفرحة كما كان يتصور ، وقالت كأنها تهم بالبهاء .

إلى خائفة . .

وقال أشرف في دهشة :

خائفة من ماذا .

قالت وهي لا تنتظر إليه :

لا أدري . . ولكنك منذ قصصت شعرك وحلقت ذقنك وأنا أحس أنك

ابتعدت عني . .

وقال مبتسماً :

إنك دائماً تعيشين في شك من كل من حولك . . اسمعي . . سأقول

لك كل شيء . . إن اسمي الكامل هو أشرف إسماعيل عبد الصبور . . ابن إسماعيل

عبد الصبور . . طبعاً معروف . . وكنت قد هربت من البيت حتى أتيت شخصيتي

بعيداً عن شخصية أبي . . وأعتقد أنني نجحت .

وقاطعته كاتيا في صوت خفيض :

إلى أعرف . .

وقال في دهشة :

تعرفين ماذا ؟

قالت :

أعرف كل شيء عنك . .

قال والدهشة تستبد به كأنه تلقى صدمة :

منذ متى ؟

قالت :

منذ دخلت الشركة مع عمي بابا دوبلو . . كان مستحيلاً أن يقبلوك

دون أن يعرفوك . .

قال .

ولماذا لم يصارحنني بأنهم عرفوا .

قالت :

كانيا في انتظار أن تصارحهم أنت . . هذا حقلك .

وابتسم أشرف ابتسامة يسخر بها من نفسه . . لعلهم لم يقبلوه شريكاً إلا بعد

أن عرفوا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . لا يهم . . يجب أن يتخلص من هذه

العقدة . . المهم أنه حقق أرباحاً ويستطيع الآن أن يعتمد على نفسه . . وقال

نكاتي كأنه يواسي نفسه :

مهما كان فلنعلن خطبتنا الآن .

وعادت تقول :

إلى خائفة . .

ثم فجأة انطلقت تتحدث باللغة اليونانية . . تكلمت كثيراً كأنها لسان

إبرة حرامقون وقفت على أسطوانة مشروحة . وأشرف يصيح فيها . ماذا تقولين .

ماذا جرى لك . . وهي مستمرة في الكلام باليونانية حتى رفع أشرف كفه

وصمغها صمغاً قوية ، وقالت ودموعها تفيض على خديها :

إني أستطيع أن أتكلم بلغة لا تفهمها طول عمري ، فكيف نتزوج . .

وقال يحيطها بذراعه في حب :

- ولكنى أستطيع أن أتعلّمها .. بل تعلمت الكثير منها وأحييت كل شيء جريكى .. أحييت الريتا والسوفلاكى والتارامو ، والموزاكا .. وأحييت اليوزك والسويتاكي والكاسايو والكلاماتانوس .. أصبحت نصف جريكى ويمكن فى أيام أن يجعلنى كلى جريكياً .. تعالى ..

وأخذها ودخل بها إلى الحفل وهمس فى أذن دينوس ، وهمس دينوس فى أذن بابادوبو ، وهمس بابا دوبولو فى أذن مارينوس ، وساد الجميع صمت قلق ، ثم صاح بابا دوبولو :

- سيداتى وسادى أعلن لكم خطبة كاتيا إلى أشرف ..

وهلل الجميع وهم يوقصون حول يرميل التبيد ..

.. .

وقرر أشرف أن يبلغ أمه بالخبر حتى تبليغه لأبيه وذهب إليها فى بيت الإسكندرية ، وما كادت تراه بعد أن خلق شعره وذقنه حتى احتضنته فى فرحة وقالت وهى تمسح بيدها على خده :

- الآن أحس أنك عدت إلينا ..

وأخطب يحدثها عن مشروعاته وعن الأرباح التى حققها ، ثم قال :

- وقد نويت الزواج ..

وقالت أمه فى فرحة :

- عين العقل .. سأختار لك أحسن وأجمل بنت فى البلد ..

وقال ضاحكاً :

- اخترت ..

قالت فى دهشة !

من ؟

قال :

كاتيا .. أخت صديق دينوس ..

قالت :

- جريكية .. مستحيل .. يا بنى هو من قلة بنات البلد .. وتعمل فينا كده ليه .. تناسب جريك .. أدى اللى كان ناقص ..

سمع يا أشرف و ..

وقاطعها متسباً :

- اعملى معروف يا ماما .. وافق حتى لا أجن وأهرب مرة ثانية ..

وسكتت وبدأ عليها أنها تذل جهداً كبيراً حتى لا تعقد أعصابها ، ثم قالت وهى تنتهد كأنها تستغيث بالله :

- لك الحق يا ابنى .. هذه حياتك وأنت حرفيا .. موافقة ..

وقال فى فرح :

- سأصحبها معى فى المرة القادمة حتى تتعرفى بها وتباركتنا ..

وقالت فى أسى :

- أهلاً وسهلاً بها ..

وبعد أن تركها أشرف أخذت سيارتها وانطلقت فوراً إلى القاهرة تبحث عن زوجها إسماعيل عبد الصور .. وعندما لاقته صرخت فى وجهه .. كأنها تستدعى بوليس النجدة :

- المحقنى يا إسماعيل .. أشرف سيتزوج جريكية ..

وصمت الأب كأنه واجه مشكلة ضخمة وقال ساخراً :

- وصلت إلى حد الزواج . .

ثم رفع صوته في حدة قائلاً لزوجته :

اسمى . . . اتركى هذا الموضوع لى . . لا تناقش فيه أشرف . . خذيه

بعقله . .

• • •

وعندما بدأ أشرف يتحدث مع بابا دويلو في تحديد موعد الزواج . قال له
إن الموضوع في حاجة إلى وقت طويل فيجب أن يتصل بالعائلة في أثينا ، ثم
إن اختلاف الدين يجعله مضطراً إلى اتخاذ إجراءات كثيرة حتى لا تشن الكيسة
ثورة عليه . . أنت لا تعرف الجريك يا أشرف . . إنهم متعبون في كل شيء . .

وكاتيا معك . . خطيتك . . وهي معك مهما طال الوقت حتى يتم الزواج
ولكنه بدأ يلاحظ أن العائلة كلها ليست متحمسة لهذا الزواج وإن كان
لم يسمع صوتاً يعارضه . . ثم بدأ يلاحظ انشغال الرجال بموضوع آخر غير موضوع
المطعم ولا يشركونه فيه . إنه موضوع المدينة السياحية على شاطئ البحر الأحمر .

لقد تقدمت شركة إيطالية تندمجهم فيه . . لا بهم . إنه لا يريد هذا المشروع
وإن يتدخل فيه . ولكن لماذا لا يهمل . . إنه مشروع يدر الملايين . إنه يستطيع
به أن يصل إلى درجة مليونير . ولكن ليبدأ أولاً بالانتهاء من مشروع زواجه .

ويخيل إليه أن كاتيا تغير . . إنها تخفى عنه شيئاً . . وهي دائماً قلقة .
ودموعها كثيرة إنها تبكي كلما قلته وكأنها قبله الوداع . وصرخ في وجهها .
- ماذا تخفين . . ماذا يفتقك .

ونظرت إليه طويلاً كأنها قررت أن تكشف له سرّاً وقالت :

- اسمعى يا أشرف . . لقد عرفني طويلاً وأنت تخفى عني سرى . وأنا أيضاً

ل سر أخفيه عليك . . إلى قبل أن أنقل إلى مصر كنت مخطوبة تقريباً لأحد

أدسا في أثينا . . وقد أرسلنا إليهم أحياناً لإلغاء هذه الحطة . . قلنا لهم كل

شيء . . ولكنهم لم يوافقوا . . إن إلغاء الحطة قد يؤدي إلى بكة على العائلة . .

وهم يريدونني أن أعود إليهم . . ولم أقل لك شيئاً . . لأنى أقاوم . . ولا أدرى

إلى متى أستطيع أن أقاوم . .

ونار أشرف :

لقد تعيرت . . إنك تكذبين . . لا أصدق شيئاً مما تقولين . . هناك سبب

آخر لكل هذا . . كوني أكثر صراحة . . ثم ماذا يهتما من عائلتك أو عائلتي تعالى

الآن لتتزوج وحدنا ونهرب بعيداً وحدنا . .

وقالت كاتيا . . . وهي تبكي :

- إلى أجبك . . ولكنى لا أستطيع .

واشدت ثورة أشرف ، وصرخت كاتيا :

- أشرف . . لم أعد أحتمل . . قبلنى . . قبلنى . .

وأبقت نفسها بين ذراعيه ، واحتضنت شفتيه بشفثتها ولم تتركهما كما دتها قبل

أن يسرى إحساسهما إلى باقي جسديهما . . تركت هذه القيلة تصل بها إلى

كل شيء . . أعطته كل ما يريد وأكثر . .

وفي اليوم التالى ذهب أشرف إليها وهو يحس بالزهو . . لقد أصبحت كلها

عندما دخل البيت استقبله بابا دويلوس ودينوس في وجوم . .

أين كاتيا ؟

سأوت صباح اليوم إلى أثينا . .

وهم أشرف أن يتعهد سيلحق بها . . سيحطم كل ما يتعرض به . .

وقال له بابا دوبلوس في هدوء :

- إنها مشكلة أكبر منا ومنك . . فأكد أننا حاولنا كثيراً . .

ونفظر إليهما أشرف ساخراً ، ثم جلس مدعياً الغدو قائلاً :

- لنعتبر الموضوع متنبهاً . . لم تعد هناك مشكلة . . إلى ماذا وصلتم في مشروع

مدينة البحر الأحمر . .

وانتف حوله بابا دوبلوس ودينوس يشرحان له ما وصلا إليه ، ولم يستمع

إليهما طويلاً وتركهما وركب سيارته واتجه بها إلى طريق القاهرة . . منذ عامين

وهو لم يفكر أبداً في العودة إلى القاهرة . . ولكن ليعد . . ليتعرف بالواقع . .

إنه يستطيع أن يستفيد من الواقع بقدر ما يمكن أن يؤذيه خياله . . والواقع هو أنه

ابن إسماعيل عبد الصبور . . وإسماعيل عبد الصبور هو الأمر الواقع إنه يسيطر

على قدره سواء كان محابته أو بعيداً عنه . . به استطاع أن يطرد كاتيا من مصر

كلها . . ربما هدد عائلتها . . أو ربما أغراها بمساعدتهما في مشروع البحر الأحمر . .

ولكنه متأكد أن أباه هو الذي طرد كاتيا .

وقف أمام أبيه هادئاً ، وأبوه يستقبله باستمالة الرجل القوي المتصر حتى

على أولاده . . وقال أشرف ساخراً

- أقدم لك نفسي . . أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور . . ابن إسماعيل

عبد الصبور . .

ومد أبوه ذراعيه وضمه إلى صدره وقال :

- أوشحيتي يا أشرف . . ورغم بعدي عنك كنت فخوراً بك . . لم أكن

أعتقد أن عندك يمكن أن يقدرك إلى كل هذا النجاح . .

وقال أشرف وكأنه يناقش :

- الفضل لك دائماً . . فأنا لست إلا ابن إسماعيل عبد الصبور . .

وقال الأب كأنه يرضيه :

- وأنا أبو أشرف . .

وقال أشرف وهو يحاول أن يحتفظ بشخصيته كاملة أمام أبيه :

- وقد جئت أطلب أبي بحق في التعويض . .

وقال الأب في دهشة :

التعويض عن ماذا ؟

قال أشرف :

- لقد فقدت فتاة خطبتها . . وإني مستسلم لما حدث وأعرف أنك السبب . .

ولا يمكن أن يلجئني عن استسلامي إلا أن أدخل في مشروع جديد . .

وقاطعة الوالد :

إن مشروع البحر الأحمر تمت الموافقة عليه . . ومن حقك أن تأخذ

جهدك لو أردت . .

وقال أشرف :

إن أصحاب المشروع لم يحرروني من خطيئتي . . ولن آخذ منهم المشروع

انتقاماً وعقاباً ولكن فقط سأساهم معهم ، وأردت فقط أن أتأكد منك أنه تمت

الموافقة عليه . . وأردت أيضاً أن أعلن لك أنني قد عدت إليك . . إلى البيت

وسأدعو بابا دوبلوس ودينوس إلى هنا . . إلى بيتك وبيتي . . للصشاء غداً . .

هل تكون معنا . .

وقال الأب :

- حتى نكون أكثر واقعية أفضل ألا نكون معكم وأفضل أن ندعوهم في الخارج .. هذا نوع من التغطية ..

وقال أشرف :

- لك حق .. إني مازلت تلميذاً لك .. عن إفذك ..

وهم أشرف أن يخرج فناداه أبوه قائلاً :

- أشرف .. مادمت مازلت تلميذاً فإني أتصحبك بأن تحصل على

شهادتك الجامعية .. إنك تستطيع أن تكون مليونيراً بلا شهادة ، ولكنك لا تستطيع

أن تكون وزيراً وسياسياً إلا بشهادة وأنا أريد لك أن تكون يوماً ما وزيراً ..

رئيس وزراء .. هذا يسعدني ويجعلني أزهو بك .

وقال أشرف وهو ينظر إلى أبيه في عجب :

- الشهادة سهلة .. أستطيع أن أسافر وأعيد بشهادة من لندن .. دكتوراه ..

وسأحتار دكتوراه في الاقتصاد .. لم أعد أريد الهندسة ..

وقال الأب :

- اترك لي هذا الموضوع ..

(تمت)

❖ أسرار المهنة ❖

شدت قوامها الطويل المشوق وسلطت عليه عيني عاصبتين وقالت في صوت
سعل في رنة قاسية بجانب موسيقاه الرائعة كربة آلة السيكون بين نعمات
الكمان :

- اسمع . . إلى خبيرة في مهنتي . . وصاحب رأس المال يعتبر غيباً إذا
لدخل في أعمال الخبيرة . .

ونظر إليها في خوف واحترار وقال :

- ربما من كثرة ما تعاملت مع أمثالك من الخبيرة كشفت أسرار المهنة . .

- قالت وهي تنظر إليه في تعال :

- لم أكن أتوقع أن ألتقي بكل هذا الغباء . . إنك لن تكشف أبداً سر
مهنتي . الزبون لا يمكنه أبداً أن يصل إلى أسرار التاجر سواء قضى عمره يتعامل
مع تاجر واحد أو تنقل بين ألف تاجر ، وكنت أعتقد أنك تفهم ذلك دون حاجة
إلى أن ألقى عليك درساً ، محزن الاثنان أبناء سوق واحدة . أنت تاجر وأنا تاجر . .
أنت رجل أعمال وأنا سيدة أعمال . . وإذا اعتبرت نفسك خبيراً اقتصادياً
فأنا أيضاً خبيرة في الاقتصاد . والفرق بيننا هو في نوع البضاعة التي نتحمل مسئولية
نسويقها . . وهذا هو ما يفرض على كل منا أن يحترم خبرة الآخر في تخصصه . .

قال في حلة :

- إني أقبل وقاحتك لأنه لم يعد هناك وقت لاستبدالك بفورك . . و .

وقاطعته ساخرة :

« إنها ليست وقاحة ، إنها مصارحة ، وأنت تقبلها لأننا وحدنا ولا أحد يسمعنا . لو كنت أقول هذا الكلام أمام الناس لقتلني أو قتل نفسك ولكننا الآن وحدنا . أنت ترفض أن تتعري أمام الناس ولكنك تقبل أن يعريك شركاؤك . وأنا شريكك هذه الليلة . . ومن حتى أن أعريك ما دمتنا في اجتماع مجلس إدارة . .

وقال في ثورة :

- إنك لا تعزيني ولكنك تسرقيني . . مائتا جنيه عن الثوب الذي ترتدينه في السهرة . . هل هذا معقول . . مائتا جنيه . . ولجود أتى طلبت منك أن تظهرى في مظهر لائق .

وقالت في هدوء :

- ليس لأنك طلبت المظهر اللائق . . ولكن لأني درست كل شيء ، ولعلك تذكر أتى كنت أفرض عليك أسئلة كثيرة قبل أن تنفق على هذه العملية . . وقد علمت منك أن ضيفك شخصية كبيرة واسعة النفوذ واسعة الثراء . . يملك ما لا يحصر له من دولارات البترول . . وعرفت ملك أنك تحاول أن تحصل معه على صفقة سيارات نقل تحصل قيمتها إلى حوالي خمسين مليوناً . . الزبون مليونير والصفقة بالملايين . . ومهنتي هي أن أضعف مقاومة هذا المليونير خلال السهرة حتى يستجيب . . كيف أضعف مثل هذا الرجل ؟ .

وقاطعها ساخراً وهو يحاول أن يقلد لهجتها الجدية التي تتحدث بها :

- وطبعاً الوسيلة الوحيدة لإضعافه هي أن تشتري ثوباً عاتق حنيه .

وقالت وهي تنظر إليه في تأفف :

- لقد عرفت منك أنك بدأت حياتك تاحراً صغيراً وأعتقد أنك لا تزال بعض عقلية التاجر الصغير ، وسأحاول أن أقنع فيك هذه العقلية . . إن هذا الثوب هو الفترينة التي تعرض فيها البضاعة . . وكلما أراد التاجر أن يقنع الراسي بأن البضاعة غالية وأراد أن يشدهم إليها وضعها داخل فترينة مغربة لها مؤثرات تشد أنواع الزبائن الذين يسعى إليهم . . إن فترينة الملابس الشعبية عمر فترينة الملابس الراقية . وفترينة لعب الأطفال عبر فترينة المجوهرات . . وهذا الثوب هو الفترينة التي أعرض فيها بضاعتى . . وقد اخترته حسب تقديري لشخصية الزبون ، ولعلك تلاحظ أنه ليس ثوباً عارياً . . لا يكشف عن شيء من جسدي . . لماذا . . حتى أبدي أمامه كامراً غالية ، فهذا النوع من الرجال يعصى كل ليلة وأمامه امرأة معروضة عليه حتى أصبح يتعالى على النساء الرخيصات في حين أنه من السهل أن تقتنسه المرأة بأنها غالية بمجرد أن تغطي جسدها حتى لو كان جسداً تعود على العرى . إن الرجل يشبه ما لا يراه أكثر مما يراه . . حتى لو عرضتها داخل بطانية . .

وقال ساخطاً :

- ولماذا لم تشتري بطانية بدلاً من أن تختصني منى مائتي جنيه . .

وقالت في تأفف :

إنك لا تزال مبتدئاً . . وعقلك لا يزال ضيقاً . . إنك تؤمن بأن المظهر أهم من الواقع ولكنه إيمان تطيقه على نفسك فقط . . إنك تتركب سيارة بويك ٧٦ وتشتري

ثيا بك من لندن والكرفنات من كريستيان ديور وأخذت بك من إيطاليا . . والدعوة
تقيمها الليلة في الميكتون ، ويرغم هذا عندما دخلت بيتك أشفت عليك . .
إيا شقة في الزمالك لأنك في حاجة أن تقول إنك تسكن الزمالك تتغية للمظهر ،
ولكنها في داخلها تجمع قطعا من الأثاث الملهل وراشك يبدو أنك لم تبدله منذ عشرين
عاما - والثلاجة التي رأيها يبدو أنها من بقايا عصر التجارب التي سبقت اختراع
الثلاجات ، وحتى التلفزيون ، مصر . . وأنا أعرف أنك لا تدعو أحدا إلى البيت ،
كل حياتك خارج البيت ، . . الخارج هو المظهر والدخل هو الواقع . .
وقد أخذتني إلى الواقع لأنك اعتقدت أنني أنا أيضا أعيش في نفس الواقع الملهل
المسكين . . لا . . آسفة . . إن بيتي أرقى مائة مرة من بيتك . . ورغم ذلك فلا
لم أدهش عندما رأيت واقعك . . إنه واقع كثير من رجال الأعمال خصوصا
وهم يجازون مرحلة ما قبل المليون الأول . . ولكنك تخطئ خطأ كبيرا إذا حاولت أن
تبخل على مطالب المظهر . . وأنا وأنت نرقم بعملية واحدة ويجب أن نكون في
مظهر واحد . .

ويخط على حافة المائدة بقبضة يده وصرخ :

- لا تقارنى بعسل كي . . أنت تعرفين من أنت .

وقالت في برود :

- أنا أعرف من أنا فعلا ، ولهذا فإنني أعتبر نفسي متساهلة وفي منتهى التواضع
عندما أقارن نفسي بك . . أنا تاحرة وأنت تاجر ، ولكن مستوليكي عن الزبون
أشرف من مستوليكت . . أنت تبيع المجهول وأنا أبيع الواقع . . والمجهول يبقى
مجهولا مهما جمعت من تفاصيله ، أما الواقع فكله واقع . . إن تاجر الماكهة
يبيع البطيخة بعد أن ينظفها من خارجها حتى تبدو لامعة ، ويعرضها في دكانه

عرصاً مغرباً ، وقد يشقها لك حتى ترى احمرار باطنها ويرغم ذلك فصلها يأكلها
لربون قد لا يجد لها طعماً ، والتاجر بعد ذلك ليس مسئولاً . انتهى دوره
إنه مجرد سمسار بين البطيخة والزبون . . وكذلك أنت قد تحقق صفقة السيارات
وبهما ضمنتها من شروط هي مجرد عقد ينتهي دورك فيه بمجرد توقيعه . . مجرد
سمسار بين الشركة والزبون . . وقد يكتشف الزبون وهو داخل السيارة أنها عاطلة
أو ناقصة وأنت لست مسئولاً . . أما أنا فشيء آخر . . أنا مسئولة أمام الزبون
حتى ينتهي من استهلاك البضاعة ، وإذا اكتشف فيها عيباً فقد لا يدفع الثمن
المتفق عليه أو قد يؤذي ، بل إلى أحياناً أعطي أكثر مما ينتظر الزبون حتى أطمش إلى
أمانتي في البيع . . تجارتي ليس فيها مجال للغش أو الاختلاس أو الخداع . .
أنا أنت . . أنت سمسار تقدمني وتتفق مع الزبون ، أما أنا . . أنا البطيخة التي
تأكلها الربون ويجب أن تكون طمناً للمواصفات وإلا ألقى بها من النافذة وماتت
أقصد صاغت هل فهمتني . . إلى هذا أعتبر نفسي متواضعة عندما أقارن نفسي
بك .

وزر أنفاسه قائلاً :

- لا أدري لماذا أحتملك . .

وقالت ماضرة :

- لأنك في حاجة إلي . .

قال :

- احذري فإنني أستطيع أن أطردك في أي لحظة . .

قالت مبتسمة :

إني واثقة أنك لن تطردني الآن . . إن حاجتك إلي تجعلني أنا الأقوى . .

هذا هو حكم الحاجة دائماً . قانون العرض والطلب . ربما بعد أن تنتهى العملية تطردى لأنك تنتهى من حاجتك إلى . . ولن أفاخأ . . إلى أحسب حساب كل شيء . .

ونظرت إليها كأنه يحاول أن يكتشفها من جديد :
- لم أكن أتصور أنك بهذه المادية . . ليس فيك ذرة من العاطفة . .
خيرينى . هل عرفت الحب يوماً ؟
وابتسمت كأنها تحقّره وقالت :

- إن الحب هو امتياز للأغنياء ، وليس مهنة للعاطلين . . هكذا قال أوسكار وايلد . وأنا لست غنية حتى أعيش في ملهاة الحب ، وإذا توقفت عن العمل وأصبحت عاطلة فالحب لا يصلح مهنة أعيش بها . . إن ما نمارسه شيء آخر غير الحب . .

قال :

- إنك تعرفين أيضاً أوسكار وايلد . .

قالت :

- قلت لك إنى نخرجت في كلية الآداب .

قال :

ولماذا لم تحاولي أن تكوني شيئاً آخر وأنت تحملين شهادة جامعية محترمة ؟ !

وضحكت ضحكة خافتة وقالت :

إن شهادتي تؤهلني للفكر . . أن أفكر وأبني أفكارى . . ولكنى اكتشفت أن الأفكار ليس لها سوق هنا أو في أى بلد آخر . . الأفكار بضاعة مرفوضة عندنا . .

وقال في استغفاف :

- لا أظن . . كل ما هنالك أنك اخترت الطريق السهل . .

قالت :

- بالعكس . . اخترت الطريق الصعب . . إن اعتيادك على الفكر هو الأسهل . . ولكن أين تبيع هذا الفكر . إن الشعب العربي كله لا يزال يعيش في عصر الترجمة . إنه يترجم كل ما تعيش فيه الدول المتحضرة من أفكار . . حتى عندما يحاول أن يتقدم في ما كولانه يترجم ما تأكله الشعوب المتحضرة . . بعد إلى آخر تطورات مجال الأطعمة . الفوت دوجز ، والويجي ، وكناكسى . . كلها تقدم أطعمة مترجمة وبطريقة مترجمة . لم يظهر فكر عربي يحاول أن يطور طعام العلس ، والعتة ، والفطير المشلتت بحيث يتماشى مع متطلبات الحياة الحديثة . وحتى في السياسة . إن أبرز رجال السياسة في البلاد العربية كلها لا يقيمون بشيء إلا أنهم مترجمون . . حتى النظم السياسية كلها نظم مترجمة . تحالف قوى الشعب العامل بنظام مترجم عن اليوغوسلافية . . والأحزاب والبرلمانات والرئاسات والشيوخية كلها ترجمات حتى الكويت الدولة العربية الصغيرة لم تجد فكراً يكتشف لها نظاماً سياسياً خاصاً بها فترجمت النظام العربي . . والسعودية ظلت متمسكة بالنظام القبلي ولكنها لم تجد فكرة تنبها على تطويره ، وبدأ الإلحاح عليها بأن تفتيس هي الأخرى النظام السياسى الأمريكى . . وانظر إلى لندن ، لقد كان يقال إن الشعب اللباني أكثر الشعوب العربية تقدماً . وقد استطاعوا أن يكونوا فعلاً مركز السوق العربية . . ولكنها سوق لا تتعامل مع عميات الخلق الفكرى ولكنها تتعامل فقط مع الأفكار المترجمة أى مع البضاعة الأجنبية . كل ما في السوق مترجم سواء في مجال السياسة أو في مجال الاقتصاد .

أو في مجال الفن أو حتى في المظاهر الاجتماعية . . إلى أن وقع لبنان في مشكلة لم يجد لها حلاً مخرجاً . . ولم يستطع الفكر اللباني أو الفكر العربي كله أن يجد حلاً لهذه المشكلة لأن الفكر ليس له سوق عندما ، فاستسلم لسان اللبانيين وأنت . . أنت رجل الأعمال المحترم . . هل تعتبر نفسك مفكراً ؟ للأسف أنت أيضاً مجرد مترجم . . إلى أعرف عشرات من رجال الأعمال يتعمقون نفس أسلوبك ونفس خطواتك . . أنت مترجم حتى وأنت تدخل في منافسات مع الآخرين . . إنك تنافس الآخرين كأنك في حلقة ملاكمة . . ولا شك أن الملاكمة في حاجة إلى ذكاء وحضور ذهني حتى تنتصر على خصمك ، ولكن اللعبة نفسها مترجمة . . لعبة منقولة عن الحضارة الأجنبية . . لم تستطع ولم تحاول أن تخلق أو تشكر لعبة جديدة فأنت لست مفكراً . . أنت مترجم . .

وصرخ في وجهها :

- إلى لم أدعك لتلقي على محاضرة فارغة . . وسواء كنت مفكراً أو مترجماً فأنا على الأقل متمسك بالشرف . . شرفي . . أما أنت . .

وضحكت ضحكة عالية وقالت :

- الشرف . . أربوك . . لا تضحكني . . إنك قد عرفت تسبيح ليلة لأحد عملائك . . أنا البضاعة وأنت التاجر . . فمن منا الذي يبيع الشرف . . ما ذنب الطبخة إذا حقنها تاجر الفاكهة لشدو في داخلها حمراء . . من المشاش الطبخة أم التاجر . . ثم ما هو الشرف . . لقد انتقلنا من عصر الترجمة إلى المعنى الجديد للشرف . . لم يعد الشرف يتركز في مكان واحد من المجد . . الشرف هو الإنسان كله من رأسه إلى أخمص قدميه . . الشرف هو عدم الاعتداء ، وهو عدم الإيذاء ، وهو الترفع عن القس . . الشرف هو أن يعرفك الناس كما أنت . . والحرية

لا اجتماعية التي في الدول المتحضرة لا تعني الاعتداء على الشرف أو التضحية به بل تعني وضع الشرف في معناه الصحيح . . وصديقي . . هذا المعنى المترجم أصبح سائداً في كل الشعوب العربية حتى وإن بقي في بعض المجتمعات سرّاً لا يعلن عنه . .

وقال في تأفف :

- أن تكوني كل ليلة في فراش رجل . . فأنت لا تزالين شريفة . .

وقالت دون أن تعصب :

- هذا صحيح ، مادمت لا أعتدي ولا أغش . . وأنت تخطئ بين معنى الشرف ومعنى الامتلاك الشرف هو إرادة فردية ، كل فرد يعبر الشرف كما يريد . . أما الامتلاك فهو تعاقد بين اثنين . . قد اتفق مع رجل على أن يمتلك ليلة واحدة وقد اتفق معه على أن يمتلكني العمر كله . . كل شيء له ثمن . . ثمن مالي وثمر اجتماعي . . والفرق بين امتلاك ليلة وامتلاك العمر كله أي الزواج ، هو الفرق في الثمن . . لا تتصور أن الزواج ليس عملية تجارية . . إنه مجرد عملية تجارية .

وحجم الأديان والقوانين تنظمه كعملية تجارية . . عملية يحكمها الشئ وتحكمها الحاجة إلى هذا الثمن . . هل تدري لقد قرأت أخيراً أن نسبة الطلاق بين العاملات والنساء اللاتي لم يدخلن خاص أكبر من نسبة الطلاق بين النساء اللاتي لا يعملن وليس هن دخل خاص . . أتدري لماذا . . لأن المرأة التي لها دخل خاص أقل احتياجاً للارتباط بعقد الزواج . . أقصد الاحتياج المالي والاجتماعي . . ولذلك سرعان ما تسعى إلى التحرر من الامتلاك أو على الأقل فإنها إذا اضطرت للاحتفاظ بهذا العقد فإنها قد تقم لنفسها علاقة خاصة مع رجل حر بجانب زوجها . . إنهم يقولون إن النساء العقيرات أشرف من النساء العاملات

أو الثريات . لا . . لمن أشرف . كل ما هناك أنهن لفقهرن أكثر استسلاما
للكية الرجل . . وهناك رجال كثيرين لا يمكن أن يتلوا امرأة إلا في حدود الشرع
والقانون . . شرف . . إن بينهم واحداً تزوج غسماً وأربعين امرأة . . شرف . .
يا صديقي صدقتي ليس للشرف دخل في كل هذا إنما هو مجرد تنظيم وصحته الأديان
والقوانين لتنظيم عقود الامتلاك . . مجرد تنظيم تجارى . .

وقال ساخراً :

- معنى هذا بالنسبة لك أن نحن الامتلاك لينة واحدة يدر عليك دخلاً أكبر
من نحن الامتلاك طول العمر . . أى نحن الزواج . .

قالت في بساطة :

- لا . . إنه الفرق بين الأعمال الحرة والوظيفة . . وأنا إلى الآن أفضل الأعمال
الحرة . لم ألتق بالرجل الذى يفرق بين الوظيفة . . وظيفة العمر .

وقام من أمامها في زهق وأخذ يخطو داخل الغرفة .

- تأخذين من مائتي جنيه ثمناً ثوب واحد ثم تلقين على درسا فلسفياً .

وقالت وهي تقوم كأنها تجرى وراءه :

- عدنا إلى المائتي جنيه . . يا صديقي الجاهل صدقتي أن هذا في صالح
العملية . . لقد اشتريت ثوباً بمائتي جنيه ولكنى مثلاً لم أشتري حذاء . انظر . .
إني أضيق في قدمي حذاء قديماً لا يساوى أكثر من خمسة جنيهات . لماذا . .
لأن الحذاء لا يعتبر البلية مؤثراً في المظهر ، فالثوب الذى اشتريته طويل سيغطي
ثم إن صيفك من هذا النوع من الرجال الذى لا يهمه أن ينظر إلى حذاء المرأة
لأنه يسلط كل عينيه على وجهها وجسدها ولا يصل بهما إلى حداثها . .
ثم إنى أعطيتك من شراء الحلى التى أعتمد عليها في تزيين هذا الثوب . . كنت

استطيع أن أصبر على شراء عقد أو سوار أو حاتم حتى لو كان فالفصو . . فإن
صدقتك من الرجال الذين لا يفهمون في البترول ولا في المجوهرات ورغم أنهم
يكونون بترول العالم ومجوهراته ، ولم يستطيع أن يميز بين الفالفصو والحر .
وهذا اكتسبت بالحلى التى أملكها فعلاً ودفع ثمنها رجل عيرك كل هذا لأوفر
عليك ، لأننى أعلم أنك لا تزال في بداية الطريق ولم تصل بعد إلى المليون الأول . .
المهم كيف مستدنى إلى صيفك ؟

وقال في سداحة :

- ماذا تقصدين ؟

قالت كأنها ضاقت بغبائه :

- أقصد ماذا سأكون بالنسبة لك عندما نلقاه ؟

قل في زهق .

- كأنك تتصورين أننا في طريقنا إلى حفل دبلوماسى . . إلى لست
في حاجة إلى تقديمك . . إنه سيفهم كل شيء بمجرد أن يراك معي .

وقالت كأنها تبصق في وجهه :

- أنت عيب . . لم أكن أتصور أنك جاهل بكل شيء وإلى هذا الحد .

إن مصطرة أن أتى عليك درسا آخر . أرحوك استمع لى نائنه فهو درس مهم
إن هناك أكثر من صورة نستطيع أن نلبس بها أنا وأنت . . فإذا كانت العملية
صعبة تافهة أو كانت مجرد لقاء للدرشة تستطيع أن تقدمي كصديقة . .
مجرد صديقة عابرة . . وهذا يعطى لصيفك الحق في أن يعارلى من اللحظة الأولى
ويتأذنك في أن يأخذنى منك . . وإن كانت العملية أكبر قليلاً . . أى صفقة
صغيرة فإنك تقدمنى في هذه الحالة على أنى صديقتك الخاصة أى عشيقتك

وتتظاهر بذلك في حالة حب معي . . هذا من شأنه أن يرفع ثمنى ويجعل صديقك يدفع أكثر لأني سأبدو أمامه امرأة أصعب في الوصول إليها . أما إذا كانت العملية أكبر من ذلك واقتربت من ربع المليون دولار مثلاً فإنك تقدمني إلى صديقك على أنني أحبك أو أنة خائنك ، لأني أنقلب في هذه الحالة في خيال الصبيب إلى امرأة شريفة لا تخرج من البيت إلا في حماية عائلية أو كما يقولون في حماية محرم . وبذلك يصبح الشئ أكثر ويصبح التأثير على صديقك حتى يتم العملية أسهل على . . أما إذا كانت العملية تصل إلى المليون دولار كالعملية التي تقوم بها اليوم فإن الطريق لصحيح هو أن تقدمني إليه على أنني روحتك . وقاطعها صارخاً :

- هل جنت . . هل تصورين أن يصل بي الأمر إلى هذا الحد . . أن تكوي زوجتي . . والله ولا مائة مليون دولار .

وقالت في هدوء :

- أزوجك . . استمع في هدوء ، إني لا أطلب منك شيئاً ولكني ألقى عليك درساً في مهنة رجال الأعمال . . إني عندما أكون زوجتك فإن الطرف الآخر يعتبرني جزءاً من الصفقة ، أي إذا كانت العملية تساوي مليوناً ونصف مليون دولار فهو مستعد أن يوقعها بليون فقط وابق لزوجتك أي أما إن الروحة لها طعم آخر وقيمة أخرى لمجرد أنها زوجة . ولكنك في هذه الحالة في حاجة إلى عدة إجراءات مكتملة . فيجب مثلاً أن تدعو معنا إحدى صديقاتي حتى يبدو كأننا نرياً وأنك لم تأخذني إليه وإعاً معنا امرأة أخرى لتجالسه ونهت به . ولا تخش شيئاً فأني مع وجود هذه المرأة الأخرى سأكون أكثر إغراء لصاحبتا وسيصطر أن يبدل مجهوداً أكبر حتى يصل إلى ويرتفع ثمنى أكبر وأكبر وفي هذه الحالة

فإن يجب أن أضع على كتنى معطف هيرون حتى أبدو كأنني فعلاً زوجتك . . لا تخش شيئاً . . لن تدفع ثمن الفيزيون . . ولكننا . . سنتأجرو . . إن لي صديقة تـؤجر معطفها الفيزيون كما تؤجر شقتها المروشة . وقال ساخراً :

- وطبعاً . . بما أنني قدمتك كزوجتي فأني مضطر بعد ذلك أن أتزوجك فعلاً حتى لا ينكشف أمرى أمام الرجل الذي يمكن أن يستمر تعامل مع سوات . هذا ما تسعين إليه . . هذا أبعد من كل أحلامك . وقالت في تأفف :

- إنك رخيص . . إنك أغنى من أن تفهم لماذا أتزوجك فعلاً ما مصلحتي . . لقد اشتركت في عملية منذ ستين وكان صاحبها يقدمني في مجتمع الأعمال على أنني زوجته . . وكان فعلاً رجلاً ممتازاً رائعاً . . واستطاع وهو معي أن يحقق ثلاث صفقات ضخمة ، وكان دائماً يعزف بعضي ويعطيني حتى ، وبعد الصفقة الثالثة طلب مني أن يتزوجني فعلاً . قال لي إن المجتمع العالمي أصبح على أننا أزواج فلحقني ظن العالم . ولكنني رفضت لماذا لأني أفضل الأعمال الحرة على الوظيفة وإذا تزوجته فأني سأصبح أقرب إلى موظفة عنده . ثم إننا تعودنا على أن نكون معاً بلا زواج وربما بعد أن يتزوج يرمق ويضيق أحداً بالآخر . بل إنه بعد الصفقة الثالثة بدا كأنه أصبح أقل حاجة إلى لذلك تركه أصبحنا مجرد أصدقاء . . وعندما يسأله أحد عنى يجب بما يفهم منه أننا افصلنا بالطلاق . . ولكنه كان نوعاً آخر من رجال الأعمال غيرك كانت كل أعماله في الخارج . . وكنت أسافر معه كل شهر أو شهرين إلى لندن أو باريس أو نيويورك . . ومجتمع المخرج أكثر حرية وكان من السهل علينا أن ندعي أننا

زوج وزوجة أما أنت إنك لا تزال رجل أعمال محلياً والأعمال المحلية تبقى دائماً في مستوى تافه ضئيل . .

ونظر إليها كأنه تلميذ بليد وقال في تردد :

« وكيف تريدني أن أقدمك إليه . .

وقالت في زهق :

- لقد شرحت لك كل أساليب العمل . . عليك أن تختار الأسلوب

الذي تقتنع به . .

وصمت طويلاً وهو يفكر ثم قال :

- اسمي . . لن أقدمك إليه بأى صفة . . لا زوجتي ولا عشيقتي .

وتركه بفهم ما يريد . . ولكننا نستصحب صديقك معنا ونتركه يفهم أنها

له وأنك لي . .

وابتسمت قائلة :

- بدأت تثق أنك لست غيباً كما تصورتك .

• • •

وبعد أن انتهت السهرة قالت له وهي يجانحه في السيارة عائداً بها إلى بيتها :

- طلب مني أن أحادثه في التليفون . .

وقال في دهشة :

- منى طلب منك . . لم أسمع شيئاً

قالت ضاحكة :

- إنك عندما تأكل لا تسمع . . بطنك أقوى من رأسك . . وتصور .

إنه لم يطلب من صديقتي أى موعد . . اسمع . . إن حليتي معه في التليفون

لا يستمر ثلاثة أو أربعة أيام . . وبعدها سأطلب منه استئجار شقة لأنى لا أستطيع أن أقامه في حناجره بالصدق . . ولن أقابله وأعطيته شيئاً إلا قد أسوعين وفي خلال الأسوعين يجب أن تكون قد انتهيت من الصفقة . . هناك خوف على الصفقة . . عطيتته نفسي قبل أن تم يجب أن يدفع مقدماً . . ويجب أن تدعوه معنا كل . . أو حركة بدعونا وستكون صديقتي معنا دائماً

وقد

- كيف ندعو صديقك وأنت تصدق أنها لم تعجبه ؟

وولت :

لا تكن غيباً . . اترك هذا الموضوع لي . . سأقول له إنى أتعهد دعوة

صديقتي لأنى أعرف أنها لا تعجبه فلا أخار منها عليه . . هذا يجعنه أكثر سعادة

وأشد انحداً . .

• • •

وبعد أيام اتصل بها في التليفون وهو يصبح مهلاً في فرح :

- تحت الصفقة . . وقعا العقد .

وقامت في برود كأنها انتهت من عملية عادية :

- مبروك . . وسألقه عدداً في الشقة التى استأجرها

قال كأنه يزغرد :

- سألقاك الليلة وحدنا وسنقيم احتفالاً خاصاً بالنجاح .

وقالت :

- لا . . الليلة سأسهر مع صديقتي ميمى . . إنها نائفة على وأنت تعرف

ميمى . . إذا ثارت غربتنا يستر . . اذهب أنت إليه وحده . . لا يصح أن

تجمله بعد توقيع العقد . . . وقيل له إني في زيارة أُمِّي لأُنْهَا مريضة وسأكون قد
حدثته بالتليغون . . .

° ° °

وكان جالساً في الصباح يملأ عييه بصفحة كاملة من الجريدة اليومية ،
تحمل إعلاناً عن العقد الذي وقعه باستيراد سيارات النقل . . . وصورته وهو يوقع العقد
وبجانبه الضيف الكبير ومعه مسئولون من كبار الموظفين . وكلهم يتسمون .
لقد وصل . . .

حقق المليون الأول . . .

عقبال المليون الثاني . . .

وأخذ يقلب في صفحات الجريدة وكل صفحاته تحقق بالسعادة . . . وهاجته
اتسعت حينها في دهشة . . . إنها هي . . . صورتها . . . وهذه صورة صديقته . . . ثم هذه
صورة السيدة ميمى . إن بوليس الآداب هاجم منزل ميمى وقصص على من فيه
من النساء . . .

وطوى الصفحة بسرعة كأنه يدرك فضيحة . . . وهمس كأنه يواسي نفسه :

— البلد لم يعد فيها أخلاق ولا حياء

❖ تائه بين السماء والأرض ❖

كلمة

هذه قصة أخرى من قصص الأدب السينائي ، وقد سبق أن طالبت بأن اعترف بأدب السينيا كما اعترفنا بأدب المسرح ، وكتبت أكثر من تفسير وتحليل لهذا اللون من الأدب .

وقد حدث أن اتصل بي الأستاذ عبد الحليم حافظ باحثاً عن قصة ينتجها سينائياً ويمثلها . . . وقلت له :

- لماذا لا نستلهم قصة حياتك ؟

وبدأت أكتب من وحي قصة حياة عبد الحليم حافظ دون أن أكون مؤرخاً ، إنما أطلقت لحيالي حرية تصور الحياة التي احتارها عبد الحليم ، وعلى قدر ما ابتعدت عن الواقع فقد تأثرت به حتى أنني جعلت البطل يقف باللغة الإنجليزية ولفرنسية معزاً بذلك عن العقدة التي يعنى بها كل الفنانين والتي يمكن أن تسمى عقدة « عمر الشريف » فكل منهم يريد أن يكون عالمياً ويمثل أو يعي باللغة الأجنبية كعمر الشريف .

وكما سبق أن كتبت فإن الأدب السينائي يبدأ بقصة ثم تتحول القصة إلى سيناريو ثم يتحول السيناريو إلى حركة ، وهو في الأصل عمل جماعي يعتمد على مجموعة أشخاص تبدأ بالمنتج صاحب رأس المال ثم المخرج والمصور والممثل ، والممثلة . . . و وكل هذا يعكس الأدب المجرى أو الأدب المقروء الذي يتم في مرحلة واحدة ويعتمد على الكاتب وحده .

لذلك فهذه القصة السينائية التي يقرأها القارئ لن تكون أبداً هي نفس الفيلم الذي يشاهده المتفرج ، وذلك نتيجة اختلاف العمل الفردي عن العمل الجماعي



كنت جالساً على مقعدى بين أعضاء الفرقة الموسيقية والباى بين أصابعى وقد أسندته فوق ركبتي وكل عنيّ مركّزان على صلاح وهو يفتى . . لم أكن أتطلع إلى الجمهور الكبير الذى يستمع ، رغم أنه جمهور يصم كل الشخصيات الكبيرة في البلد . . ونحن الموسيقيين . . نتبادل مع الجمهور نفس درجة الاهتمام أثناء الحفلات الغنائية . . الجمهور ينظر إلينا نظرة سريعة ثم يركز اهتمامه على المطرب . . ونحن أيضاً ننظر إلى الجمهور نظرة سريعة ثم نركز كل اهتمامنا على المطرب من فوق آلاتنا الموسيقية . . إلا إذا قام واحد منا ليعرف « سولو » بمفرده . . فنركز نحن والجمهور اهتمامنا عليه . . ولم أكن أيضاً أركز اهتمامي على الناي الذى أحمله بين أصابعى . . إن هذا الناي . . عود البوص المزيل المتواضع . . هو كل حياتي . . ورغم ذلك ففي هذه الليلة لم يأخذ من اهتمامي كثيراً . . فالقرارات التى سأشترك فيها بالناي خلال اللحن . . متبادعة . . وحفظها غيباً إلى حد أن أذى أصبعي تستطيع أن ترفعا يدي بالناي إلى شفتي بمجرد أن يأتي دوره . . دون أن أحتاج إلى تركيز ذهني عليه . . وحتى الفقرات التى وضعت لأعزفها « سولو » كانت متمكنة مني إلى حد أني أقف من تلقاء نفسي وأعزف دون أن أحتاج إلى التركيز على الترتيب ولا انتظار . .

كل ما في كان مركّزاً على صلاح . وكان صلاح يفتى كمادته وكأنه يفتى لكل واحد من هذه المئات المتجمعة من أمامه . فيحرك عينيه ويديه وطبقات صوته . . ويحرك نفسه كأنه يريد أن يصل بنفسه إلى آخر فرد يجلس في آخر صف من الصالة العريضة . . إنه ينسى وهو يفتى . . ينسى كل شيء . . إلا مسئوليته عن فته . . ينسى مسئوليته عن نفسه .

واستدار صلاح مواجهاً الفرقة الموسيقية وظهر للجمهور . . إن صلاح يستدير أحياناً ويتولى بنفسه قيادة الفرقة خلال الفقرة الموسيقية . . ولكنه غالباً ما يستدير ليتلقط أنفاسه وظهر للجمهور . . إنه إنسان عادي من حقّه أن يريح أنفاسه ويبعد التقاطها ويريح ابتسامته ، ويريح نظرات عبيه من الأصواء المسلطة عليها ومن اقتضال القوة والجسمال والأمل الذى يبدو دائماً في الصور الفوتوغرافية التى تلتقطه له أو هو واقف أمام الجمهور الذى يفتى له . .

وأنا جالس في الصف الأول من الفرقة الموسيقية ، وعندما يستدير صلاح يواجهني مباشرة . . وحلست في منتصف الصف الأول ليست فقط لأن هذا هو المكان الطبيعي الذى يتطلبه التوزيع الموسيقي لآلة الباي ، ولكن أيضاً لأنني أصر على أن أكون دائماً بجانب صلاح . . وتطلعت بكل عيني في وجه صلاح . لا أحد يستطيع أن يرى في وجه صلاح ما أستطيع أن أراه أنا . . وهست إليه حمسة أقرب إلى الأمر :
- اشرب قليلا من الماء .

ومددت يدي تحت مقعدى حيث أتعمد دائماً أن أحفظ بكوب من الماء . . ولكن صلاح انعد غنى بسرعة وانجه إلى ناحية بعيدة من الفرقة حيث الجيتار

والأورج وأخذ يقودهما بتأثيرات ذراعيه . . لعله لم يسمع همتى . أو الأرجح أنه سمعها وهرب منها .

وعاد صلاح يواجه الجمهور وعلى شفتيه الانسامة الواسعة وفي عيبيه بريق القوة والجمال والأمل .

وانتهى صلاح الفقرة التالية من الأغنية وعاد يدير ظهره للجمهور ويواجه الفرقة الموسيقية ، أى يواجهنى . . وجهه ملاماً عيى . . وذعرت . استولى على نوع من الخوف أقرب إلى الفرع ، إن ما أراه لا يستطيع أحد آخر أن يراه حتى من بين أفراد الفرقة . . فقلت وأنا لا أتعمد المحس ولكنى أكنم الصراخ . .

.. لا تكرّر الكويليه . . ادخل فى الكويليه الثانى وبسرعة . . اختتم بسرعة . .

وكان مفروضاً فى هذه الفقرة أن أقف لأعزف على الناي سولو . . وكنت قد تعودت أن أطيل عرف هذه الفقرة . . وأن أكررها بناء على طلب وإلحاح الجماهير . . ولكنى فى هذه الليلة وقفت وأديت الفقرة كأنى تلميذ سيد يحفظ دروسه صم دون أن يفهمها . . وانتهيتها بسرعة وجست ، وقد تعجب الجمهور إلى حد أنه لم يلبح على طويلا كماداته فى إعادة الفقرة . . والتصميق لى تصميق بارد . .

وعاد صلاح إلى الجمهور وحاول أن يبدأ الكويليه التالى . . ولكن الجمهور اشتد صراخه وتصفيقه مطالباً بالعودة إلى الكويليه السابق من الأغنية . . وإذا بصلاح يستسلم للجمهور . . للناس الذين لا يستطيعون أن يروا فى خطوط وجهه ما أراه أنا . . ويشير صلاح إلى الفرقة الموسيقية ويبدأ فى إعادة غناء الكويليه السابق .

وعندما استدار إلى الفرقة الموسيقية بعد الانتهاء من الكويليه وواجهنى . . مد يده لى وهو لا يزال محتفظاً بانسامته رغم أنها أصبحت نسيامة صعبة لأن ظهره للجمهور . . وفهمت أنه يريد كوب الماء . . ولكنى ما كدت أمد يدى إلى تحت المقعد حتى ابتعد صلاح عني . . لقد غيّر رأيه . . لن يشرب جرعة الماء وابتعد عني إلى الناحية الأخرى من الفرقة . . وانتهت الأغنية . . إن الفقرة الأخيرة أيضاً كررها صلاح ثلاث مرات . . والتصميق . .

وأسدلت الستار وفتحت الستار أكثر من مرة ليرد على تحية الجمهور . . ووقف صلاح أمامنا وقد أسدلت الستار لآخر مرة . . وبين شمس سامة ضميقة . . يقاوم كثيراً ليحفظ بها كأنه يهديها لنا . . وجفاه يتأرجحان فوق عينيه يحيل فى وقفته كأنه يبحث عن شيء يستند عليه . . ثم مرة واحدة سقط . .

.. سقط على الأرض

وانطلقت دماؤه ثقيلة غامقة تسيل من بين شفتيه

ووكعت بحاجبه . . لم أملك . . ولم أكن أنظر دموعى . . فإنى كنت أعرف أن كل هذا ممكن أن يحدث . . وكنا كما نعرف نعتب صلاح فى مثل هذه لحالة . . الصمت . . لا أحد يتكلم . . لا يجب أن يعرف غريب وخصوصاً من الصحفيين ما حدث . . وتلكا أعضاء الفرقة الموسيقية . . إلى أن دخل بسى سكرتير صلاح ومعه الطبيب الذى يصاحب صلاح دائماً . . وأعطاه حقة فى صحنه أوقفت التزييف بسرعة . . ثم استطاع أن يقوم واقفاً واستند على حتى أوصلناه إلى حجرة داخل المسرح ، وتركناه للطبيب . . وأفراد كثيرون من

الجمهور دخلوا إلى صالة المسرح يريدون أن يروا صلاح وكنا نعتذر لهم بأنه يستريح ويترك للنكات الضاحكة أن تنطلق :

ومرت ساعة .

ونخرج صلاح من الغرفة معه الطبيب الذي لا يعلم أحد أنه طبيب . وكان الجمهور قد خف من طول الانتظار ورغم ذلك فقد خرج صلاح وكأنه على استعداد لمواجهة جمهوره كله بابتسامة تملأ وجهه . . وخطواته مرحة . . ونظراته تحمل القوة والجمال والأمل . .

وركب سيارته . . وصمم أن يسوقها بنفسه . . وحاول الطبيب أن يقنعه بأن يعدل عن السواقة :

- دعني أسوق أنا يا صلاح . . طول عمري وأنا أتمنى قيادة هذه السيارة إنها سيارة متينة مثلك وأنا متخصص في المتعنين . .

ولكن صلاح صمم أن يقود السيارة نفسه . . ويشير للجمهور الوقف محبياً بدواعه . . ونحن معه صامتون إلى أن وصلنا إلى البيت .

وما كاد يرى فراشه حتى اهتز . .

إنه هنا فقط يعترف بما هو فيه . .

وأنا واقف أرى استسلامه الكامل لقدرة . . ودعنتان ضعيفتان ترتلقان من عينيه كأنهما تواسيانه في آلامه . .

وكانت فاطمة قد سبقتنا إلى البيت .

إن فاطمة مثلي . . إنها تستطيع أن يمسأ سيحدث لصلاح قبل أن يحدث . .

إنها تحس به دون أن تحتاج إلى أن ترى خطوط وجهه . . إنها تعتمد على هاتف إحساسها . . هاتف الحب . . إنها تحبه إلى حد أنها ترى داخله حتى وهي

بعيدة عنه . . وهي دائماً بعيدة . . إن صلاح لا يريد لها أبداً أن توجد بين الناس في حلاته . . يريد أن يحفظ بها فوق الناس يريد لها وحده . . أنابية الفنان .

والطبيب يلم صلاح كله بين ذراعيه . . وأنواع متعددة من الدواء . . الأبر والمجرب . . وما يذوب . . وما لا يذوب . . ثم انتهى بعد وقت طويل وهو يقول له في حدة . . كأنه يهم أن يصمعه :

- قلت لك إنه كان يجب أن تؤجل حفل هذه الليلة . . ولكل لم تسمع الكلام . . سمع . . أمامك ثلاثة أسابيع ترقد لها في الفراش . . سمع ثلاثة أسابيع . . بلا حركة وإذا تحركت فلن أكون مسئولاً عنك بعد اليوم وأمرنا الطبيب أن يخرج كلنا من الغرفة حتى فاطمة بعد أن أعطى صلاح دواء منوماً لينام رغم أنه . .

وعديت إلى بيتي وكل ما في رأسي هو هذه الأسابيع الثلاثة التي فرص على صلاح أن يقصها راقداً في فراشه . . إلى أعلم أن صلاح مرسل أكثر من حفلة خلال هذه الأسابيع الثلاثة : أقرها حفلة زفاف ابنة رئيس الوزراء بعد يومين ولكن لا شك أنه سيعتذر . . إنه لا يستطيع أن يعرض نفسه لما حدث له لقد كان ما حدث هو أول مرة يصاب فيها صلاح بدمته وهو فوق حشة المسرح . . لقد كان يصاب بها قبل الحفل بأيام أو بعد الحفل بأيام . . أما أن يصاب بها وهو على المسرح . . فهذا هي المرة الأولى . . ولديها تكون درساً له . . فإني أعلم أن أكثر ما يكرهه هو أن يبدو أمام الناس مريضاً . . ولن يعرض نفسه لمصره مرة أخرى وهو أمام الناس . .

واعتذر صلاح فعلاً عن حفل زفاف ابنة رئيس الوزراء .

إلى أن صدمت .

كان قد مر أسبوع واحد على قرار الطبيب . . وكان صلاح قد بدأ يبدو أحسن حالا ، وكان مطيعاً فعلاً بكل التعليمات لا يحرك من فراشه ويأكل بنفسه عن اللبوء . . مرتاحاً هادئاً . .

كان أحياناً عندما أكون معه يكفىني بمهام تافهة . . حتى كان يحيل إلى أنه يعتمد أن يبعدني عنه . . وكان يفعل نفس الشيء مع فاطمة . . ومع أصدقائه .
إلى أن كان صباح يوم الخميس .

ودهمت إليه في الساعة الواحدة بعد الظهر كعادتي . إنه ليس في البيت . وفاطمة جالسة تبكي . . إنها لا تعرف أين هو ؟

ولأحد في البيت يعرف لقد خرج كأنه هرب . لم يره أحد وهو يخرج وكنت أنا أعرف . . واكتشفت أنه خلال وقاهه في فراشه كان يتخلص مني . وفاطمة ليتحدث في التليفون . وليس هناك إلا جهة واحدة يهيم أن يتحدث معها في التليفون ، الجهة التي يحتاج إليها .

ودهمت إلى نادى الفرقة الموسيقية . . ورايته أمامي واقفاً بين أفراد الفرقة الموسيقية يجرى برفوفات على أغاني الحفلة التي كان مقرراً أن يقيمها الليلة لصالح مشروع بيت الطلبة .

وابتسمت في يأس . . لا أمل . . وفتحت حقيقتي . . وأخرجت أعواد الناي . . وأخذت مكانى بين أفراد الفرقة . ولم يقل لي صلاح شيئاً كأنه لم يفعل شيئاً .

إنها قصة طويلة .
قصة بدأت منذ كنا أطفالاً . .

• • •



• . لقد ولدت مع صلاح في قرية واحدة . . كقرية محونة . . وأنا أكبر من صلاح بأربع سنوات ولكنه مدد ك في عمر لصا وهو يحاول أن يفرض شخصيته على كل أولاد القرية . رعد لم يكن يحاول . ولكن حيويته التي لا تهدأ ، وشقاوته الجريئة التي كانت تثير الميظ أحياناً ولضحك أحياناً . كانت تدفع كل أولاد القرية إلى التجمع حوله . أحياناً لمشاركته اللعب وأحياناً للانتقام منه بعد أن يكون قد لعب لعبة بايعة . وأنا شخصياً كنت أحس بارتباطي بصلاح دائماً . . كنت أحب شقاوته . . وأحب جنونه وجراته . . وأحب دكاهه . . ودائماً معه نلعب الكرة الشراة أو نسلل إلى حقول الليرة لنسرق ونأكل أو نسلل إلى الجواموس والبقر المنتشر بين الحقول بعداً عن أصحابه لنستمتع اللبن يشفاها من ألدائها . .

وكان أكثر ما يهواه صلاح بعد أن كبرنا قليلاً هو العزم . العزم في التبرعة . . وللعزم في القناة . . وأحياناً لا يعزم ولكنه يلقي بنفسه في قناة صعبة بعد أن يملأ ثيابه وينام في الماء وكنا تعلم أن هناك شيئاً اسمه ملهاسيا . . كل أهل القرية يعرفون الملهاسيا . . ويعرفون أن سموها ترقد في مياه الترع والقنوات . . ورغم ذلك فكل أهل القرية يعيشون في مياه الترع والقنوات . وأنا مع صلاح دائماً في الترع وفي القنوات . . مع الملهاسيا . .

ولم يكن كل ذلك هو أقوى ما جمعني بصلاح . .
كان هناك ما هو أقوى . .

كان والد صلاح الحاج عبد الله مرعى معروفًا في القرية بأنه يهوى الأصوات الجميلة . . ولم يكن يغنى . . كان شخصية محترمة في القرية يمتلك عشرة أهدنة . . وأحياناً يستأجر عشرين هداناً عندما يكون على وفاق مع ناظر عزبة الباشا . . وربما لهذا واحتفاظاً باحترامه بين أهل القرية لم يكن يغنى . . إما كانت كلما مزت بالقرية فرقة من الفرق الفنية الجواله تضم مطرباً يدعوها الحاج عبد الله إلى دواوه ويقم ليلة يستمع فيها إلى هذا المطرب . . وكان أهل القرية - كلهم - يجتمعون وهم في انتظار حكم الحاج عبد الله على هذا المطرب . . فإذا استمع منه إلى موال أو أغنية واعتذر بعدها في أدب وانحس إلى داخل الدوار ونزك المطرب إلى أهل القرية عرفوا أنه مطرب لا يستحق ولا يساوي آذان الحاج عبد الله . . أما إذا بقى الحاج عبد الله إلى نهاية السهرة فمعنى هذا أن المطرب يستحق . .

ولكن أعجوبة الحاج عبد الله في أنه يتولى بنفسه أداء آذان العجرج . . في كل فجر تصحو القرية كلها على صوت الحاج عبد الله يؤذن للصلاة . . وكان صوته أعجوبة . . إنه لا يؤذن كمجرد أداء واجب ديني ، فهو ليس مؤذناً ولا إماماً للمسجد . . ولكنه فنان . . إنه مطرب . . إنه صوت غال نادر . . ولو أنه استطاع أن يحرر نفسه من شخصية المزارع وتقاليده مجتمع القرية لاستطاع أن يحترف الغناء ويصبح مطرباً مشهوراً في مصر كلها . . ولكنه كان مصحماً على أن يحتفظ بشخصيته في القرية وبكل التقاليد القديمة المروضة على هذه الشخصية . . وربما كان يغنى أغاني عادية بينه وبين نفسه . . ولكن لا أحد يسمعه ولا أحد سمعه إلا وهو يؤذن آذان الفجر كأنه قرر أن لا يعطى فنه إلا لله حتى لو حرم منه الناس . . وفي مناسبات قليلة كان أهل القرية يلحون على الحاج عبد الله

أن يلقى أذاً آخر . . وكان عندما تكون هناك مناسبة مفرحة . . كنجاح محصول القطن ، أو انتزاع أزمة . . يقبل أن يلقى آذان العشاء بحجاب آذان الفجر . مرة واحدة في عمره كله ألقى آذان الصلوات الخمس . ألقاها كما لم يسمعها مسم من قبل . . ألقاها ودموعه بين عينيه . وكان هذا يوم توفيت أم صلاح . وكان صلاح عندما نكون معاً وحداً يقف ويقلد والده في الأذان . . وكنت أسمعها أضحك عليه وأقول له إن صوته أشبه بصوت صرصر الليل بحجاب صوت أبيه . ولكن صلاح كان يبدو متمتعاً منفعلاً فعلاً وهو يقلد أباه . . وكان يقلده دائماً في الخفاء خوفاً من أن يصل الخبر إلى أبيه فيفسره بأن ابنه يستهزئ به . ومع السنوات بدأ صلاح لا يكتبني في خلواتنا بتقليد أبيه بل أصبح يقلد كل المطربين ويردد مواويل وأغاني الريف ، ثم تجرأ صلاح أكثر وبدأ يردد أغانيه في جلستنا مع أولاد القرية أثناء الليل . . وبدأنا نضح وهو يغنى . . لم يخطر على بالنا أيامها أن نقدروا كفتان . . ولكننا كنا نتركه يغنى أن نطلب منه أن يغنى . . لخفي معه . وغالباً ما يرفع صوته على صوته . .

ولم يجزّ صلاح أبداً على أن يغنى أمام أبيه أو أن يعترف أمامه بأنه يحب أن يغنى رغم أنه قطعاً ورث صوته وورث كل فنه عن أبيه ، ربما لأن تقاليد القرية كانت تجعل من الفنانين والمطربين مجموعة أقرب إلى الشحادين ، وهي التقاليد التي حرمت على والد صلاح نفسه أن يغنى وأجبرته على الاكتفاء بأداء آذان الفجر ، وهي نفسها التقاليد التي كانت تجعله يتمنى أن يكون ابنه أي شيء إلا أن يكون مطرباً . . وربما كان كبقية آباء الريف يصر غاية ما يتمناه لابنه أن يكون ضابط بوليس لأهلية وقوة صباط البوليس بين قرى الريف . . وأنا . . أنا ليس في عائلتي أي تراث ولا أي ظاهرة موسيقية . . ولكني وجدت

نفسى منذ صباى أمد يدى إلى أعواد البوص وأحاول أن أنفخ فيها أنفاسى لنصح
نما . ثم بدأت أفقد الذين يصحبون العرق الربيعى من عازقى الأرغول والنأى .
أعلق فى أصابعهم وهى تتحرك فوق ثقبوب عود البوص بل إن أول نأى حاولت
أن أعزف عليه صنعته يديى تقليدا لما كنت أراه فى أيديى العازفين . . ورغم
ذلك فلولا ارتباطى بصلاح مند صباى لما أصبحت الآن عازقا محترما للنأى . .
إلى أن دخلنا المدرسة الابتدائية . .

وانقلنا . . صلاح وأنا . . نقيم فى المركز ، ورغم أنى أكبر منه سناً فقد كنا
معا فى سنة دراسية واحدة . . ربما لأنى أصلام أكن من هواة دخول المدارس .
كان حلم صباى أن أزرع وأجلس على حافة الساقية أعزف النأى وصلاح يعنى
لى

وفى المركز انطلقت هوايتنا . . وانطلق بنا الفن إلى آخره . .

كان صلاح يعنى ليل نهار ، وحناسة وبلا ماسية ، وأنا أعزف النأى كلما
استطاعت أصابعى أن تصل إلى ثقبوبه . بل إننا ، صلاح وأنا ، بدأنا نحاول
أن نعزف ونعنى أى شئ ، يصل إليه . صلاح حاول أن يعنى بابوبى تقليداً
ليقال جريكى كما نردد عليه ، وحاول أن يعرف الأكورديون والبيانو ، والكمان ،
والأرغول

كل ذلك دون أن يحظر على بال أحدا أنه يرسم لنفسه مستقبلاً فنياً . .

وأذكر أنا كنا فى رحام مولد سيدى الرناى ، وافصلنا مع بقية الطلبة إلى
مكان بعيد وبدأ صلاح يعنى والطلبة تصفق وأنا أعزف النأى . وكنتا نضحك
ونقطع الأعانى لتبادل الشائتم التى كنا نعتبرها نكات . ويجمع بعض الناس
حولنا يستمعون إلى صلاح ويفنون معنا ، ويضحكون معنا . . وكان من

من تجمع طالبات المدرسة الابتدائية للسنات ، كن مناعداً فى حجل
نصاحكن الضحكات الخجولة المثيرة . . وغنى صلاح إحدى الأعانى الربيعية
المروقة وإذا بصوت يبدو من بين الطالبات يعنى معه . . صوت خجول . .
بى كلمتين ويسكت . ثم يعود يعنى . . ولكن الطالبات ابتدأن فى
الاحراج على الفتاة أن تغنى مع صلاح . . كأن السات فررن أن يحدين فى الص
الأولاد . .

ونحن أيضاً بدأنا نلح عليها أن ترفع صوتها لنسمع . .

وغنت الفتاة . .

بل اشتركت مع صلاح فى أعية واحدة كانت أيامها أغنية شعبية معروفة
كل منهما يرد على الآخر بمقطع منها . .

وكانت هذه الفتاة هى فاطمة . .

ولم نعرفها يوماً . .

وسأل صلاح بعدها عنها كثيراً . ربما كانت ابنة موظف من موظفى المركز
أو ابنة مزارع أو ابنة المأمور . .

بل إن صلاح بدأ يذهب ويقف أمام مدرسة السنات بحثاً عن هذه الفتاة
التى لم تكن تعرف أن اسمها فاطمة . .
ولكن صلاح لم يعثر عليها أبداً . .

وفى هذا العام . . ونحن فى السنة الثالثة الابتدائية . . توفى الحاج عبد الله
ولد صلاح وفى صباح يوم الوفاة . . دون أن يبلغ صلاح أحداً . أو يستأذن
حاله الذى أصبح مسئولاً عن العائلة . أو أخاه الأكبر . وحتى دون أن يقول

لى . . صعد فى الفجر إلى متذنة جامع الكفر . . وأذن للصلاة . . كما كانت عادة أبيه . . كأنه يريد أن يقول لأهل القرية إن أيامه لم يمُت ، أو كأنه يريد أن يعلن أنه يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركه أبوه ، أو كأنه كان يريد أن يرسل تحية لأبيه فى قبره . . ويهل أهل القرية وهم يستمعون إلى صلاح وهو يؤدى الأذان . . واعترفوا لأول مرة أنه ورث عن أبيه صوتاً أقوى وأحل وأداء لم تسمعه القرية من قبل . . وبدأوا يلغزون حوله فى ليالى الماتم . . ويطلبونه بأن يقرأ القرآن . . أو أن يعود ويؤذن ليقية الصلوات . . ولكن صلاح كان يرفض .
إلى أن عدنا إلى المركز . . إلى المدرسة .

وبدأ صلاح يبدو فى شخصية جديدة . . لقد كان والده هو الشخصية الوحيدة التى تقيده . . ويحسب حسابها . . ويخفى عنها حقيقة ميوله ومطعم أحلامه . . وقد تحرر بعد وفاة والده . . وأصبح يجاهر بفته المتمكن منه ، ويركز كل ذكائه وكل جرأته وأحياناً كل جنونه على ممارسة هوايته . .

ولكنه لم يكذب يوماً فى انطلاقه حتى أصيب بالضربة الأولى . .

البهاريسا . .

والبهاريسا كانت قد أصبحت فى الريف مرضاً عادياً كالزكام أو الصداع . . ولكن صلاح لم يكن ينتظرها . . لم يختبر نفسه مشغولاً عنها رغم السوات الطويلة التى قضاها فى مياه الترع والقنوات وهو يعلم أنها مياه مسمومة بالبهاريسا . . لقد كان غروره بنفسه يرفض أن يدعه يعترف بأنه السبب فى أى مصيبة تحدث له . . لذلك مرت شهور وصلاح منزو ، منهار ، ساخط على كل شيء ، يعالج نفسه من البهاريسا . .
وشق .

لا . . إنى بعد سنوات طويلة أصبحت مقتنعا بأنه لم يشف . . وأن اندفاعه نحو هوايته الفنية أيامها جعلته يتسرع ويهمل فى علاج نفسه ، ويعجز عن إقطع الدم الذى كانت تترقه بالبهاريسا اعتبر نفسه وكأنه شق تماماً ولم يعد فى حاجة إلى طبيب ولا إلى علاج . .

وكان الانطلاق الذى اندفع فيه صلاح بعد وفاة والده يجعله لا يكتفى بالاشتراك فى العزقة الموسيقية التى تجتمع بين طلبة المدرسة ، والتى أصبح بها مطرب المدرسة ، ولا يكتفى بالعناء بين أصدقائه بل أصبح يبحث عن المناسبات التى يستطيع أن ينفذ فيها . . ورغم ذلك فإنه لم يصل إلى شيء إلا إشباع هوايته . . لم يكن بين الناس أكثر من طالب يستطيع أن يعنى ويستطيع أن يلعب بكثير من الآلات الموسيقية . . مجرد لعب . .

ودائماً كان يسأل عن فاطمة . .

ولم يعلم عنها شيئاً أبداً . . حتى من صديقاتها اللاتى كن معها يوم رآها . . ربما كانت أيامها مجرد زائرة لإحدى عائلات المركز ، أو ربما جاءت إلى البلدة مع أهلها مصادفة لحضور الاحتفال بالمولد . . إلى أن انتسبا هو وأنا - من المدرسة الابتدائية . .

وفى فترة الصيف قضينا أيامنا فى القرية نحاول أن نرسم مستقبلنا . . وكان المفروض أن المستقبل كله ينتحصر فى التحاقنا بمدرسة دمنهور الثانوية .

ولكن لا صلاح ولا أنا ، نريد أن ننزع أنفسنا بين حواطم المدارس . . نريد أن نطبق . . أن نحرق . . أن نحرق كل أحلامنا فى الالتحاق بالمعهد الموسيقى الذى كنا نسمع عنه . . أى أن نهاجر إلى القاهرة . . ولولا أننا كنا مجبرين على أن ندخل المدارس . . أى مدرسة . . لما فكرنا حتى فى الالتحاق

بالمعهد الموسيقى ، ولا تطلقا نغنى وعزف فى كل البلاد كأتى فرقة من الفرق
الريفية إلى هذا الحد كان صلاح يريد أن يمارس فيه ، ويمتنع به نفسه قبل
أن يمتنع به الناس . وإلى هذا الحد كنت متأثراً ومقتنعاً بكل ما يخطر على
بال صلاح . .

ولكن لأننا كان يجب أن ندخل مدرسة ، فقد دخلنا المعهد الموسيقى ،
ولم يمارس خال صلاح . . فقد كان كل ما يشغل باله هو نغمات التعلم . .
وربما كان مقتنعاً بأن صلاح ورث عن أبيه ميوله العنية ، فتركه بجموده . وأنا
أيضاً لم يكن يهتم عائلتى إلا كم تدفع . .
وذهبنا نعيش فى القاهرة . .



ولم يلتحق صلاح بنقسم الأصوات . ولكنه لتحق بنقسم الآلات . .
مضى . رأى لأن الدراسة فى قسم الآلات أوسع ، وربما لأنه هو نفسه لم يكن يدرك
حتى هذه الأيام هل يستطيع أن يحجج كمبرط أم يستطيع أن يحجج كعارف
أنا شخصياً كنت أتمنى له ما أتمناه لنفسى رغم الفرق الكبير بين قيمة صوته
وصوتى . كنت أريده أن يكون عارفاً . لأن امتلاك الآلة الموسيقية أطوع
من امتلاك صوتك . إن الآلة لا تستطيع أن تحالف أورك . ليست معرصة
معرض . ولا للصعب ولا للهرال ولا لسرعة التطور . الآلة إذا أصيبت عطلت
تستطيع أن تلتقي بعيداً وتستبدلها بأخرى جديدة . ولكن صوتك إذا عطلت
لا تستطيع أن تبدله . والآلة تعيش التواريخ كله .

البياض الذى كان يعزف عليه شيللى هو نفسه البياض الذى يعزف عليه اليوم . .
مهما تطورت الألحان . . ولكن صوت صالح عبد لمحي لا يمكن أن يطرب الآن .
لأن الصوت مرتبط بالقدر على التجديد ، والتجديد يستند على الطبقات
الصوتية . . والطبقات الصوتية هى قدرات فردية لا يستطيع أى فرد أن يصل إلى
ما يشاء من الطبقات

وأريد أن أروى كيف كنا نعيش فى القاهرة . . ليست أعجوبة أن نبدأ فى
انقاره وأن نعيش بقرشين صاع فى اليوم . وتستطيع أيضاً أن تصل إلى مائة
جنيه فى اليوم . .

وكنا منذ وصلنا إلى القاهرة نعيش - صلاح وأنا - فى حجرة واحدة مؤجرة

داخل بيت في إحدى حواري الجزيرة من البيوت التي تخرج للطلبة .

وكنيت أصحو كل يوم وأنا في انتظار معجزة من معجزات صلاح ، قد تكون معجزة ترتفع بنا ، وقد تكون معجزة تنهار على رؤوسنا . ولم تكن معجزة صلاح أنه استطاع بسرعة أن يجيد العزف على الكمان الذي اختار أن يتخصص فيه عندما التحق بالمعهد ، ولا معجزة تقدمه بصوته الذي يقني به تقدما كان يدهشني أنا شخصياً رغم أنني عشت العمر كله مع هذا الصوت . ولكن معجزة الكبرى هي قدرته على الاتصال بالناس . واكتساب صداقتهم ثم استغلال هذه الصداقة . لقد كان يعرف بذكائه أن الفن لا يساوي شيئاً إلا إذا استطاع صاحبه أن يصل به إلى الناس . إلى الجمهور . ولكي تصل إلى الجمهور يجب أن تصل أولاً إلى مراكز القوى التي تسيطر على حركة المرور إلى الجمهور . مراكز القوى الفنية . إنها مراكز تضم أفراداً أقرب إلى عساكر المرور . تشير ، تنشر إلى الجمهور . تشير فتتبع مكابك دون أن تتقدم إلى الجمهور . وأحياناً كثيرة تسحب منك رحمة القيادة الفنية فتجد نفسك قد انتهت كمان . وكان صلاح له قدرة عجيبة وذكاء حارق في اكتساب أفراد مراكز القوى الفنية . إنه يعرف مقدماً ماذا يريد كل منهم ومنهم من لا تستطيع أن تكسه إلا إذا بدوت أمامه ضعيفاً خلاباً ، محتاجاً ، تثير شفقتك ، وتثير فيه عقدة السيادة وتشبع فيه شهوة العظمة . ومنهم من يحتاج لإقناعه نوع من القوة أقرب إلى التهديد . ومنهم من ينتظر رشوة . والرشوة ليست دائماً مبلغاً من المال . إن هناك أنواعاً كثيرة من الرشاوي وصلاح يستطيع دائماً بدكائه وحديثه وحيويته أن يكشف الإنسان الذي يحتاج إليه ، ويكشف وسيلة الوصول إليه . وكان أول ما حاول صلاح أن يستغل فيه معجزاته هو حاجتنا إلى أن نعمل

واكسب حتى ترتفع من مستوى سندوتش القول إلى مستوى طبق الكباب . ومن مستوى البطول الواحد إلى مستوى ثلاثة أو أربعة منطلونات . ولم يكن هناك طريق أمامنا لعمل ونكسب وننحن لا نستطيع شيئاً إلا الفن . ولا نقبل أن نحرف عن إصرارنا بأن نعطي كل حياتنا لهذا الفن ، ولا أحد يعرفنا كفتانين في هذا البلد الكبير ولا برال طلبة في المعهد مفروض أننا لم نتم تعليمنا بعد . ولكن صلاح استطاع في عام واحد أن يعرف كثيرين من أفراد الفرق الموسيقية ، وأن يكسبهم بدكائه وخفة دمه ، ولا أقول القدرة الفنية ، بل كان صلاح يعتمد إحصاء قدرته الفنية حتى لا يثير بين أصدقائه الحدود العيرة والخوف على أنفسهم من فنه ، كما يحدث دائماً بين أفراد المهنة أو الفن الواحد .

ولم يكد العام الأول يمر ونحن في فقر نعيش على ثلاثة جيبيات في الشهر يتلقاها صلاح من بلده وجيبه واحد أتلقاه أنا ، حتى استطاع صلاح أن يضع نفسه في إحدى الفرق الموسيقية كعازف للكمان ، ويضعني معه كعازف باي . وكسبت . ارتفعنا إلى مستوى الكباب ومستوى شراء القمصان والبطولونات وتفصيل البدل . وارتفعنا أيضاً إلى مستوى السكر في شقة يجار . شقة وحدنا . صلاح وأنا . وكل ذلك كان ارتفاعاً إلى مستوى متواضع ، أي إلى مستوى عشرة في المائة من المستوى الذي نعيشه الآن . ولكننا - أيامها - كنا نحس أننا ارتفعنا مليوناً في المائة من المستوى الذي نحلُم أن نعيش فيه

وكان أصدقائنا الجدد قد بدأوا يعرفون أن صلاح يقني . وكان يقني لهم ، والكثيرين منهم يهلون له ويدعون عليه أن يبدأ في محاولة الظهور كمطرب وكثيرين أيضاً استهزأوا به ورفضوا الاعتراف به كمطرب . كناية عليك الكمسة . ما تطلعش فيها .

وصلاح لا يريد أن يقدم نفسه علانية كمطرب إلا في الحلسات الخاصة الضيقة . . إنه عندما يعنى يردد أغاني محمد عبد الوهاب أو سيد درويش وأحياناً محمد عبد المطلب أو يردد الأغاني الريفية والشعبية . وهو لا يريد لنفسه كل هذا • به مقتنع بأن صوته يمكن أن تكون به شخصية مفصلة . شخصية قائمة بذاتها . شخصية تخلق الحديدي ولا تكتفى بتزديد القديم . . إنه لا يريد أن يقدم نفسه للجمهور إلا كشخصية فنية جديدة ، شخصية الصوت . وشخصية اللحن . . وشخصية الأداء . . يجب أن يبدأ شخصية جديدة بأغنية لم يسمع الناس مثلها من قبل . .

ولكن الجديد ، يتطلب ملحناً جديداً . . وشاعراً جديداً . . إنه لا يستطيع أن يلحظ إلى أى ملحن ويطلب منه أن يلحن له . . فهو غير معروف ، ولا يستطيع أن يدع تسمى الملحن ، وصوته قد لا يكتفى ليدفع أى ملحن إلى أن يقدم له بحثاً مجانياً . . وعبد الوهاب إنه حلم صلاح . . إن عبد الوهاب بالنسبة له هو القمة التي لا يستطيع أن يصل إليها أو على الأقل لا يستطيع أن يصل إليها وهو لا يزال واقفاً في القاع . إنه يخشى وهو في القاع ألا يصل صوته إلى القمة يرتفع ويخاف أن يرفضه عبد الوهاب .

وبدأ ذكاء صلاح يعمل . . إنه جديدي . . جيل جديد مجهول من الناس ومن محطات الإذاعة وشركات الأسطوانات ورعاة التليفزيون . فإذا أراد أن يبدأ فيجب أن يبدأ معه كل الجيل الهى الجديد . . به يقدم نفسه وهو مجهول . . ويجب أن يكون الملحن أيضاً مجهولاً . . وكاتب الأغنية . . ومورع الموسيقى . . والموسيقيون . . يجب أن يكونوا كلهم مجهولين يجب أن يقدم نفسه من داخل الجيل الحديدي . . وبدأ صلاح وأنا معه نعيش بين مجموعة من الفنانين الشبان المجهولين .

مهمهم من طلبة المعهد . وبعضهم من هواة . . وبدأنا كنا نعمل بضع أغنية جديدة . . فتأ جديداً . . كل ما فيه جديد ، قد نتجع كلنا أو نقفل كلنا . . قد حجب الجيل الجديد أو يقفل الجيل الجديد . . كنا نعيش أيامها كأننا محطط لانقلاب للاستيلاء على مقاليد الحكم الفني .

وانتهينا من وضع أول أغنية تمثل الجيل الهى الجديد . . كنا كنا فيها مشترك في التلحين وفي الأداء وفي الغناء . . كنا نعيش كأننا في مضاهرة هبة ولكن كيف نقدم هذه الأغنية للناس . لا طريق إلا الإذاعة . ولكن

مستحيل أن نقلنا للإذاعة .

وبدأنا كنا نعيش اعتماداً على ذكاء صلاح . . وقد استغرق ذكاء صلاح عاماً كاملاً استطاع خلاله أن يكتسب صداقة الأستاذ عباس حمدي الذي اعتبر إحدى الشخصيات القوية في مركز قيادة الإذاعة . وأعجب عباس صلاح كمتان . أعجب به فعلاً . . وأعجب بالأغنية الجديدة واللحن الجديد إلى حد أن أعلن لثورة على الروتين المتجمد للإذاعة التي يحرم دخول الجيل الحديدي .

وأديعت الأغنية . . لأول مرة . .

وسمعا الجمهور في عشر دقائق وكنا قد قصصنا في عديد عامين ، آخرهما أسبوعاً لم تتم حلها من أساً . قصصناهما كلهما بعيد وترجع . . وعيد وراجع إلى أن تم التسجيل في الإذاعة .

فرحتنا الكبرى . . بنجحت الأغنية . .

وكل الأسماء التي أديعت معها ، كانت أسماء جديدة . . صلاح . . والملحن

رأفت التوبى . . والشاعر أحمد حلمى . . أما اسمى فهو لا يذاع . .

ولكن النجاح الأول لا يمكن الاعتماد عليه . . إنه أشبه بصدمة لا أحد ينتظرها . .
ولا يمكن أن تخلق حمهوراً ثابتاً . . خصوصاً إذا كانت الأعنية قد أذيعت فجأة
وبلا دعابة تجذب الناس لها .
تترى كم واحدا سمعها . .

وأذكر أنى عدت ليلتها مع صلاح إلى البيت ، وقال لى وهو منطلق فى
خياله كأنه يبحث به عن المستقبل :

- لسه بلىرى يا عمر . .

وليلتها دخل صلاح الحمام ، وكنت فى غرقى واعتقدت أنه دخل يفسل
وجهه . . ثم ذهبت إليه داخل الحمام . . وفوجئت به وقد أمسك القوطة وهو
يمسح بها حوض الحمام والقوطة ملطخة بالدم . . وخطوط من الدم لا تزال
معلقة داخل الحوض . . وذعرت :

- ما هذا الدم يا صلاح . .

وأجابنى صلاح وهو يحاول أن يعلق ابتسامة بين شفتيه :

- لا شىء . . بسيطة . . إن دى ثقيل وأحاول أن أخفقه . .

وصرخت :

- هل هى المرة الأولى التى تنزف فيها دمك من فمك . .

وأجاب وهو لا يزال يحاول أن يبتسم :

- المرة الأولى . . وبإذن الله الأخيرة . .

وأخذته إلى مراشه ، وأنا ساخط أصرخ فى وجهه وأصم على استدعاء
طبيب . . ولكنه يرفض . . إنه يهدد بالكذب على الطبيب لو استدعيته .

وهو مؤمن بأن لا شىء قد حدث له . . إنه لم يلم طوال أسبوعين ، وقد أسرف فى وضع
الشطة داخل الساندوتش . . وهذا هو كل السبب . .

ونام . .

وبدأت ألاحظ لأول مرة الخطوط التى ترسم على وجهه عندما تنتابه
الأزمة . .

خطوط تظل عالقة تحت عييه حتى وهو نائم . .



وفي صباح اليوم التالي دق جرس الباب . . . وفتحت . .
إنها فاطمة . .

وفرحت بها كأني وجدت الدواء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ صلاح .
وأحسبها في الصلابة ، وجريت إلى صلاح وهو لا يزال راقداً متعباً من أثر
الأزمة . وما كاد يعرف أنها فاطمة . . القنابة التي يبحث عنها منذ خمس سنوات .
حتى قفز من الفراش وألقى على وجهه قطرات من الماء . . وأدخل يده في قميصه
وبنظرونه . . وجرى إليها . . إلى فاطمة وهو يهمس كأنه يخبر نفسه :
- الأغنية تبحث . . مادامت قد جاءت لي بفاطمة فقد نجحت . .

وكان هذا صحيحاً ، لقد سمعت فاطمة الأغنية في الإداعة . . وقالت له إنها
عرفته من صوته لا من اسمه رغم أنها لم تسمعه إلا مرة واحدة في سوق سيدي رافي
ومنذ خمس سنوات . . واتصلت بالإداعة وعرفت عنوانه وجاءت . . وقد حاولت
من قبل أن تتصل به فلم تستطع . . مرت سنوات حتى استطاعت أن تعود مرة
أخرى إلى دمشق ، وسألت عنه هناك ، ولم يجده . .

ورأيت صلاح يوماً كما لم أراه منذ زمان طويل . . إن ضحكته منطوقة صادقة
ليس فيها هذا التعمد الذي يضعه دائماً واقف دائماً أمام آية تصوير .
والحطوط التي تركتها الأزمة تحت عينيه احتفت بسرعة . . وما يتذكران الأغنية
التي غناها معاً في المولد . . ثم يعني لها أغنيته الجديدة وعنيها معه . . إن صوتها
فيه شيء . . إنها يمكن أن تصبح شيئاً جديداً . . كبيراً . .

وأصحت فاطمة في حياة صلاح . . لا . . أقصد إن صلاح أصبح في حياة
فاطمة . . أما حياته فإني لم أكن أعتقد أنه يمكن أن تكون فيها فاطمة
أو أي إنسان آخر . . لقد أعطته فاطمة قوة حديدية . . قوة الزهو بالنفس
قوة الغرور . . ولكن كل هذه القوة لم يكن يعطيها لأحد إلا لفته . . أثنائية الفنان . .
وقد بدأ صلاح في إعداد الأغنية التالية . . ويقص كل أيامه مع مه ، وفاطمة
لا نجد طريقاً إليه إلا أن يجري وراءه . . وهي لا تفضب . . إنه يعطي نفسه لشيء
تحبه . . لفته . . وهي راضية ، فرحة به . . وتتحمسه كأنها هي التي تعني . .
وكانت تعني فعلاً . . كانت في الأوقات التي بقي فيها صلاح في البيت وتأتي
إليه ، تفتي معه . . وتعيد كل ألحان البروفات التي كان يؤديها وهي جالسة
تسمعه . . وفي يوم قلت لصلاح :

- إن فاطمة صوت جديد . . إنها تستحق أن تكون مطربة . . لنحاول
أن نقدمها لأصدقائنا ونظر إلى صلاح في دهشة كأنه قد نسيت . . وقال :
- أنتظر إلى أن أنتهي من بناء نفسي أولاً . .

ورفض صلاح أن يقدم فاطمة إلى عالم الغناء . . أثنائية الفنان . . وربما لم
يكن يريد أن يكرر طبيعة الصراع الفني الذي كان قائماً بين عبد الوهاب وأم كلثوم .
كان يخاف أن يعانى هذا الصراع ويحلّق أم كلثوم أخرى . . من يدري ربما كانت
فاطمة تستطيع أن تكون شيئاً جديداً بالنسبة لأم كلثوم ، كما أصبح صلاح
شيئاً جديداً بالنسبة لعبد الوهاب . . ولكن المهم أن فاطمة نفسها لا تريد أن
تكون أم كلثوم . . لا تريد أن تحترف الفن وتعلن نفسها أمام الجمهور كمطربة
يكفيها صلاح . . إنها تجد فيه كل ما تحلم به لنفسها . .

وكان صلاح قد اكتشف بعد الأغنية الأولى أن المساجح لا يتم إلا بجذب الناس

إلى العمل الفنى . . إن كل شيء يحتاج إلى قوة جذب حتى الأغنية الناجحة . .
 وقوة الجذب الكبرى هي الصحافة . . إن الزعماء السياسيين يعتمدون على الصحافة
 كقوة لجذب الناس . . لا يمكن أن الزعم يلقى خطأً ويجذب الجمهور دون
 أن تقيم الصحافة بمهمة وضع الجمهور أمامه . . والشيكولاتة لا يأكلها الناس
 إلا إذا جلدتهم إعلانات الصحف إلى شرائها وأكلها . . وكذلك الفنان الذى يواجه
 الجمهور . . وبدأ صلاح يركز ذكاه على الاتصال بالصحفيين حتى يجذبوا
 الناس إلى أغانيه الجديدة . . صفار الصحفيين وكبار الصحفيين . . وأذكر
 أن صلاح أقتنع أحد صفار الصحفيين بأن يقدمه إلى أحد كبار الصحفيين . .
 وصحب الصحفي الصغير صلاح إلى الصحفي الكبير وطلب منه أن يستمع إليه
 ولم يكن قد سمعه فى أغنيته الأولى ، وقال الصحفي الكبير :

— اعمل معروف . . لا تجربه فى . . دعه يجرب نفسه فى غيرى . .

ولم تنقضى شهور حتى أصبح هذا الصحفي الكبير من أقرب أصدقاء
 صلاح . . إن صلاح لا يأس أبداً من الاستيلاء على صداقة من يريد صداقتهم . .
 وبدأ اسم صلاح يلمع فى الصحف . . ولم يكن يمكن حتى يلمع اسمه أن
 يكون صديقاً للصحفيين بل يجب أن يكون قد نجح فى اجتذاب الجمهور ،
 حتى تضطر الصحف إلى ترديد اسمه . . أى يصح نجاحه أقوى من أن تنجاهله
 الصحف . . ولكن الصحف بدأت تعرف قصة الحب بينه وبين فاطمة .
 وبدأ صلاح يلقى قصة حبه . . لقد طلب من فاطمة ألا تكون معه أثناء البروفات
 وطلب منها ألا تظهر معه فى مكان عام . . وكان عندما يدعى إلى حفل خاص
 ويجدها هناك يعتمد أن يبدو أقل اهتماماً بها . . بل يعتمد تجاهلها . . وقلت
 له يوماً :

— إنك تقسو عليها بهذا التجاهل .

وقال وهو يشهد بحسرة :

— إنى أقسو على نفسى . . إن مسئوليتى عن فنى تأخذ منى أكثر مما أطيع . .

إن المغنى الذى يعنى للحب يرسم أمام المستمع صورة من الخيال وهذا المستمع
 يتصور أن الفنان نفسه هو هذه الصورة . . كالتقارنى الذى يقرأ قصة حب ،
 إنه يتخيل أن الكاتب نفسه هو بطل هذه القصة ويعيش معه فيها ، وقد تكون
 القارئة فتاة يأخذها خيالها إلى أنه تتصور نفسها بطله وأنها هي التى يحبها كاتب
 القصة . . وكذلك المطرب . . إنى عندما أغنى الحب أرفع المستمع إلى الحب
 إلى الخيال . . ولو عرف الناس قصة فاطمة فكل مستمع سيتصور أى أغنى
 لفاطمة وحدها فينهار خيال المستمع . . يفقد الخيال متعته لأنه ينقلب إلى
 واقع قصصى مع فاطمة . . أما محكوم على حتى أحتفظ بخيال المستمع والمستمعين
 بأن أشر كل فتاة بأنى أغنى لها حتى ولو كنت فى الواقع أغنى لفاطمة .

محكوم على أن أحنى حتى داخل قلبى وتحت ثيابى حتى لا يراه الناس

وربما لم أقتنع بهذا الكلام . . ولكن فاطمة نفسها كانت مقتنعة به . . كانت
 مقتنعة بأن الفنان ملك لكل الناس وليس ملكاً لنفسه . . فإذا اهتم يجب أن
 يهتم لكل الناس . . وإذا أحب يجب أن يبدو كأنه يحب كل الناس . .
 ويجب أن تبقى حياة الفنان الخاصة بعيدة عن الناس . . إنها تفكر كما يفكر
 صلاح . . وتحس كما يحس صلاح . . بل حيل إلى أنها أصبحت تتكلم بنفس
 أسلوب وصوت صلاح بل إنها أيضاً تقلده فى حركاته دون أن تعتمد التقليد . .
 ربما لأنها أحبته حتى جعلته قطعة منها من عقلها ومن شخصيتها . . وربما لأن
 النجاح السريع الذى حققه صلاح يجعل كل من يطمع فى النجاح يتأثر به .

وفاطمة لا شك تطمع في النجاح . . وإن كانت لم تحدد بعد ماذا تريد أن
تصبح فيه

ولكن الحدث الأكبر في حياة فاطمة وصلاح كان يوم عرفت مرضه
كان قدر مضي أكثر من عام وهو يحق عنها الأزمات التي تتابى وتقترن بدمه من
بين شفتيه ، ويسقط بعدها وكأنه لم يعد فيه قطرة دم ، كان يعتبرها هي أيضاً
واحدة من الجمهور الذي يحق عنه مرضه . . حتى لا تنهار صورته الفنية .
صورة الشاب المرح القوي المليء بالحياة الذي يعني للحب . . كانت شخصيته
المية تغيب شخصيته الأدبية ، حتى لا يريد أن يعترف بأن فاطمة يمكن أن
تحبه كبنى آدم . . إنها تحبه فقط كفنان . . والفنان لا يمكن أن يكون مريضاً .
وكانت فاطمة أحياناً تلمح الحزن والضعف الذي يبدو على وجه صلاح
ولكن - لأنها لم تكن تعرف أنه مريض - كانت تعتقد أن كل ما يبدو عليه هو
نتيجة إتهامك نفسه في عمله الفني . . وأحياناً كانت تعتقد أن هذه هي طبيعة
تكوينه الجسماني . . ولد هكذا . . ترسم فوق وجهه خطوط الضعف والحزن ،
وينحصر قوامه في جسد رفيع قصير . . وكانت تقول له ضاحكة : -
- صلاح . . طول عمرك ستبقى سنك سبعة عشر عاماً . إنك تستطيع أن
تمش في السينا أدوار الشباب المراهقين دون أن تحتاج إلى مكياج . يابحتك
احمد ربنا

إلى أن كانت يوماً معنا في البيت . . وكان صلاح قد استيقظ من النوم
مبكراً عصبياً وحس معها وهو لا يستطيع أن يستمر في حديث . . ولا يستطيع
أن يعي لها أو يدعها تفنى له . . ووجأة تقلصت عضلات وجهه ، واتسعت عيناه
كأنه يخشى ، ويضع يده على صدره كأنه يحس في داخله نطلقات مدقع

متريز تنفجر واحدة بعد الأخرى وفمه مفتوح إلى آخره دون أن يصرح . . وصرحت
فاطمة :

- صلاح . . ماذا حدث لك . . أجنبي . . تكلم . .

ولم يتكلم صلاح . . إنه لا يستطيع . . وقام يجرى مترنحا ناحية الحمام ،
وقبل أن يصل إليه سقط على الأرض واضعرج شلال الدم من بين شفتيه . .
إنها الأزمة .

ولأول مرة تراه فاطمة في أزمته . .

وساعدني فاطمة في حمله إلى فراشه ، وهي ترتعش وتصرخ :

- الدكتور . . اطلب الدكتور . . أين الدكتور ؟ . .

ولم تكن تعرف أن صلاح كان حتى ذلك اليوم يحرم علينا استدعاء الطبيب
حتى لا يعرف الناس خبر مرضه :

وكان شلال الدم قد توقف قبل أن تصل بصلاح إلى فراشه . . إنه شلال
لا يستمر سوى ثوان كطلقات مدفع المتريز ، وطر إليها صلاح وهو ممدد يلتقط
أنفاسه كأنه يسترد بها الحياة ، وقال في ضعف :

- لست في حاجة إلى دكتور يا فاطمة . . أنا بخير . . الدم توقف . .

ثم اغتصب ابتسامة من بين شفتيه وعاد يقول :

- أمس وضعت على عشاءي نصف كيلو شطة على الأقل . . وهذا هو

السبب . . إنها ليست القوطه هي المحتوة كما يقول الناس . . إنها الشطة . .
الشطة مجنونة وأنا مجنون بالشطة . .

وفاطمة تنظر إليه في تعجب ، ثم انقلبت نظرتها إلى نظرة غاضبة ثائرة كأنها
أم أخرجهما أبنا من هدوئها ، وصرخت في وجهه :

- امح . . أنا أفهمك جيداً . . ليس هناك عاقل يرفض استدعاء الطبيب بعد أن يتقياً دمه . . إننا نستدعي الطبيب عندما نصاب بصداع أو زكام . . وأنت أفرغت دمك ، ربما كان فيك شيء عرق . ونكبت لا تريد لطبيب لأنت لا تريد أن تعترف بالمرض . . لا تريد أن يعرف الناس أنك مريض . . حتى أنا أخفيت عني كل هذه الأيام أنك مريض . . اعتزنى واحدة من جمهورك . إنك لا تحبني . . وأنا مجرد إحدى المعجبات بفنك المريح .
ورأيت صلاح يرفع رأسه كأنه يستجمع كل شيابه مدافعاً عن نفسه ،
ولأول مرة اسمه يعترف :

- فاطمة . . أنا أحبك . . عمري ما اعتبرتك واحدة من الجمهور .
ولكني أحفيت عنك لأني كنت أخاف على حبك من مرضي . . إنني أريد حبك كاملاً ولا أريده إشفاقاً عليّ من مرضي . .
وقالت فاطمة وقد استردت هدوءها :
نُمت لي حبك . .

قال :

- كيف . . ما هو أكثر من أتركك تويني في ضعتي . . في مرضي . .
قالت في هدوء :

- الأكثر أن تركتك تستدعي الطبيب . .

وانفتحت إلى فاطمة تطلب مني أن أستدعي الطبيب في التليفون ، واحتارنا هي وأنا ، في تحديد اسم الطبيب الذي نستدعيه ، ولكن صلاح هو الذي حدد اسم الطبيب . . من يدرى ربما كان قد تردد على هذا الطبيب من قبل مرّ ودون أن يعلمني أو ربما كان يراجع بينه وبين نفسه أسماء الأطباء ويختار المتخصص

في مثل حالته استعداداً لمثل هذا اليوم . . إن ذكائه يتسع لكل شيء . .
وجاء الطبيب . .

وقبل أن يصل كانت فاطمة قد أخذتني خارج العrique وجلست معي بحجة أن تترك صلاح ليستريح وجعلتني أعترف لها بكل حالات مرض صلاح وكان الطبيب قد وصل بأسرع مما تتصور . . ربما لأنه اندفع وراء فرحته باستدعائه لعلاج المطرب المشهور صلاح . . وربما لأنه أحس برضاء عرويه بنفسه واكتساب شهرة طيبة عندما يعرف الناس أنه طبيب المطرب المشهور . . وربما لأن هذه هي طبيعته في تلبية حاجة المريض . . الله أعلم . . ولكنه جاء بسرعة . . والاهتمام يشمل كل ملامح وجهه ، ودخل إلى صلاح وأنا وفاطمة معه وبدأ يسأله . . وصلاح يجيب إجابات مألوفة ، وهو لا يزال مصرّاً على الاحتفاظ بابتسامته ، كأنه الطبيب ليس سوى واحد من الجمهور .
وتدخلت فاطمة قائلة في حزم :

- قل كل شيء بصراحة يا صلاح . . وإذا لم تغفل فسأقول أنا . . إنني الآن أعرف كل شيء . .

ونظر إليها صلاح عاصفاً ، كأنه ليس من حقها أن تتحداه بهذه الحرارة أمام عريب . أمام واحد من الجمهور . . ولكنه بدأ يكون أكثر صراحة في حديثه مع الطبيب . .

واستغرق الطبيب وقتاً طويلاً في الكشف على صلاح ثم كتب له مجموعة كبيرة من الأدوية تشرب وتبلع وتحقن ، ثم قال وهو يجمع أدواته :
- بسيطة . . ولكن أرجوك . . لا تتحرك من الفراش إلا بعد أن أقول لك . .
إن الكشف لم يتم بعد . . يجب أن نأخذ أشعة على كل جسمك . . خصوصاً الكبد

لم قال لنا الطبيب ونحن نسير به إلى باب الخروج :

- المسألة ليست سهلة . . أعتقد أنه نوع من تليف في الكبد نتيجة البلهارسيا . .

نتج عنه فقاعات في المرئ يتجمع فيها الدم ، وتتصحم إلى أن يتقيأ دمه . كل ذلك مجرد استنتاج ، في انتظار الأشعة . .

وما تكاد الطبيب يخرج وتعود إلى صلاح . . حتى قال :

- العود . . هاتوا العود . .

وقالت فاطمة :

- عود إيه يا صلاح . . الدكتور كتب لك حقنة منومة . . ويجب أن

تنام . . تسريح . .

وصرخ صلاح :

- العود . . مش ممكن أنام وأنا عايز العود . . وخلاص . . اعتبرى الزيارة

انتهت . . فين العود . .

ودون أن أسمع رأى فاطمة . . حملت العود ووضعت بين يدي صلاح . .

إني أطمش على صلاح والعود في أحصائه أكثر مما أطمش عليه وهو بين يدي الطبيب .

وانصرفت فاطمة خارحة وهي غاضبة .

ونقم العود يملأ البيت بلحن الأغنية الجديدة . . وصرخت من بعيد :

- مش كده يا صلاح . . غلط . . راجع الفقرة دى تانى . .

...



. وهكذا عشت مع صلاح عشت معه والأزمات التي تستنزف دمه

لا تنهى ولا تتوقف وتكاد في كل مرة تقضى عنه . ولا يقده منها إلا أن يمارس فنه ويستمد منه قوة تعيده إلى الحياة . . حتى أصبحت أؤمن أن قوة الفن أعظم من قوة العلم . أقوى من علم الطب والأدب . إن اعلم بأمه بأن يبقى في فراشه ويهدده بالموت . . والفن يأمره أن يعيش فنه ، أن يعيش بين الناس . . أن يبقى ويضحك ويعمل . . ويتنصر الفن على العلم . . ولكن تعدد الأزمات على صلاح جعله يعيش وهو في حالة خوف دائم ونقله المخوف إلى حالة عجيبة ، فهو لا ينام الليل أبداً وينام النهار ، وعندما حاولت في بداية هذه الحالة أن أحصله كبقية الناس ينام الليل ويعيش النهار ، قال لي في يأس :

- لا أستطيع . . إني أخاف الليل . . أخافه لأن كل الناس من حولي

ييام . . وقد تتأني الأزمة فلا أجد من حولي أحداً ليساعدني عليها . . ولذلك يجب أن أبقى صحياً حتى أساعد نفسي أو أستطيع أن أوقظ من يساعدن . . أما في النهار فكل من حولي في يقظة فأدرك أن معظماً على نفسي . . إني أخاف الليل رغم أني أغنى الليل للناس . .

وأنا مع صلاح في خوف دائم . . أخاف عليه وهو في أزمته . . وأخاف عليه

وهو يتحدى الأزمة ويستسلم لسه ويهرب من فراشه ليعمل . . وهكذا فاطمة أصبحت تعيش مثلي مع صلاح صلاح المريض المهار الذي يزوف الدم ، صلاح الفنان الحمار الذكي الأناني الذي يستطيع أن يحصل دائماً

على كل ما يريدته .

ولكن فاطمة بدأت تعيش حالة جديدة . . فإن نجاح صلاح جذب إليه مئات المعجبات نأت وساء يجذبن إليه فنه ونجاحه . . وكل منهن تحاول الاستيلاء عليه ، لو على الأقل تحاول تذوقه . إن النجاح يجع من الرجل الناجح شيئاً أشبه بقطعة الفاكه البادرة التي تطعم كل امرأة في الاستيلاء عليها أو على الأقل تذوقها . . وكان صلاح يصرح بأنه قطعة من الفاكه البادرة . ويصرح هؤلاء المعجبات ، ويصرح بالتليفونات والخطابات والدعوات الخاصة . ويصرح أكثر عده . تكون المعجبة من عائلة كبيرة معروفة إنه يحس معها أنه استولى على العالم كله من القمة إلى السطح . وكنت أرى صلاح وهو مع هؤلاء المعجبات أو وهو يجادلهن في التليفون كأنه يمثل دوراً في فيلم سينائي . إنه يبدو كأنه كله حب ، وكله فرح ، وكله رقة ، وحديثه الذكي يستطيع به دائماً أن يكس الصورة التي رسمها ، حتى لا يترك وحده إلا وقد استسلمت لكل ما يريدته . . يتركها وهي تعيش الحب . حبه . . وكان حبه مرض صلاح قد أديع وانتشر . . وعلى عكس ما يتصور صلاح فإن الجمهور تعلق به أكثر بعد أن عرف بمرضه . . وازداد عدد المعجبات آخريات أن الجمهور يرداد ثقة بالإنسان الضعيف المريض . وأصبحت صورة صلاح أمام الناس هي صورة الرجل المريض الذي لا يمكن أن تكون له شهوة في إحدى النساء . . إنه مريض . . ولا يستطيع أن يستسلم لشهوة . . وطمأن إليه الرجال . . فلا يشك أحد منهم في أنه يمكن أن تكون له علاقة بأمرأة . بروحة أو أمانة أو أنت . . وابتات اطمان أكثر إلى الاتصال به . . لأن لا أحد يمكن أن يشك في أنه يمكن أن تقوم علاقة كاملة بين أي فتاة وبسه . . كسب سمعة لمرأة كأنه زاهب . ولا يمكن أن يكون إعجاب امرأة به أكثر

من إعجاب بالفتى .

وبدأت فاطمة تجتاز مرحلة حائرة . إنها تحبه . تحبه . . تحبه قبل أن تكون قطعة من الفاكه البادرة . وهي تحب على حدها من هاتيك المعجبات . وهي تعلم أن صلاح ليس مجرد فتان . إنه رجل كبقية الرجال . ومرضه ليس له علاقة برحوله . وأحياناً كانت تشتد به الغيرة وتندأ في نقاشه والصراخ في وجهه . فيرد عليها وهو يحتضنها بين ذراعيه .

- لا تكوني مجنونة يا فاطمة . . هذا شغل . . الشغل عايز كله . . أنا مضطر . وكما أني لست ملك نفسي . لا أستطيع أن أكون ملكك لوحده . أنا ملك الناس . وإذا كنت سحني صحيح لا تحرمي الناس مني . ولا تحرمي من الناس . .

وكانت تقول ودموعها تلمع في عينيها .

- أنا خائفة عليك يا صلاح . . وخائفة على نفسي . . خائفة أن تصعب مني .

ماذا يعلمني

ويقول وصوته يتضج بحبه :

- يعلمك أن ليس بينهن واحدة تعرفني . . كلهن يعرفن صوتي بس . . ليس بس واحدة تعرف شكل عدا تلتابي الأرملة . ولا تترقب وانا حلق باقول إيه . . ولا يأكل على راسي يأكل إيه وبأكل أزاى . . ليس بينهن واحدة تعرف صلاح الإنسان وكلهن لا يعرفن إلا صلاح الصان . وإنتي عارفة إني هناك وانت لوحدهك اللي بتشوفيني كإنسان . .

وكانت فاطمة تفتنع ، وتتحمل المعجبات ، بل إنها أحياناً وهي جعنا في البيت كانت ترد على التليفون وتلتقي مكالمات المعجبات ثم تعطى اسماعة

لصلاح ويجلس بجانبه وهي تسمعه يحل دور راهب الحب . . . وعندما كانت تسأله المجبة لتي تتلقى بكلماتها عن من هي كانت ترد أنا أخته . وأحياناً ترد . . أنا الشقالة يا ستي . .

وبهذا كان أكثر ما يطمئن فاطمة في حبيب أنها كانت مقتنعة بأنها وحدها التي لها الحق في ريادة صلاح في بيته كل البتات بحادثته في التليفون ويقامنه في المحفلات الخاصة أو لعامة . هي وحدها التي تدخل البيت .

وكانت فاطمة تحب دائماً . تحب في شخصيتها . وتحب في كل حياتها فهي كصلاح أيضاً لا تتحدث كثيراً عن نفسها ولا تتكلم إلا بقوة ذكائها . كما لا تعرف شيئاً كثيراً عن عائلتها ولا عن حياتها العائلية . كل ما كنا نعرفه أنها تعيش مع أبيها الموظف بوزارة الداخلية ، ومع زوجة أبيها ، بعد أن توفيت أمها . وسعاً كما نعرف عنوان بيتها وعرة التليفون ولا أكثر . . وكنا نعرف أنها طالبة في الجامعة كلية الاقتصاد والسياسة . . ولكنها كانت أغلب الأيام معاً . وكنا نسألها لماذا لم تذهب إلى الجامعة ، فتقول ضاحكة . روعت . . أو تقول في غرف :

ما لي بش نفس للجامعة . . أنا دخلت الجامعة بس عشان أخرج من البيت .

وكان الشيء الوحيد الذي تتمسك به هو أن تعود إلى بيتها في الساعة السادسة حتى تتفادي ثورة زوجها أبيها . . لم ترها أيضاً بالليل . .

إلى أن دخلت نهال في حياة صلاح .



. . كانت نهال من أجمل فتيات المجتمع الراق . . كانت ابنة رجل حفيد عائلة الساموي ، واستطاع أن يستمر في الاحتفاظ بمستوى ثرائه ومكانته الاجتماعية . . وربما كان في حياة نهال ما جعلها دائماً هادئة هادئة أقرب إلى الحزن ، صامدة دائماً كأنها مكتفية بأن تعيش في خيالها . والهدوء والصمت يعاها بالطبيعة الحلوة ويحتفظان لجمالها بهرة ليست مثيرة أقرب إلى صورة من صور الملائكة أو صورة مريم العذراء . . وربما كان ما في حياتها هو ما أدى بها إلى التعلق بصوت صلاح وأعادى صلاح . هو ما جعلها تتعلق به منذ اليوم الأول الذي التقت به فيه خلال حفلة عائلية خاصة . .

وبهر صلاح بها كما لم يهر من قبل . . بهر بجمالها . وبهر باسم عائلتها الكبير . . وبهر بهدونها ، وبهر بصمتها

هل أحبها . . ؟

لا أدري .

ولكن كل أيامه أصبحت « نهال » . . إنه يتمتع عينيه ليحدثها في التليفون ويحدث مصيره يومه كله بعد أن يحدث مصيره معها في هذا اليوم . متى يلقيها . . وحتى تحدثه في التليفون وبعد ذلك كل شيء . . حتى أنه أصبح يأتي بعد تحديد مصيره مع نهال . . وهي . . نهال .

قطعاً أخته . .

إيه تعطيه من اهتمامها ومن الملهمة إليه أكثر ما تعطى فتاة لا يدعمها سوى الإعجاب منه . وبدأت قصة نهال وصلاح تنتشر في المجتمع ، ثم ، شرت في الصحف . . ولم يفترض صلاح على نشر القصة في الصحف وقد كان يستطيع صداقته لكل رجال الصحافة أن يمنع نشرها ولكنه لم يفعل . . ربما لأنها قصة يتباهى بها وترضى غروره ، أو ربما لأنه قدر أنها قصة ترفعه في أعين المعجبات لأن نهال يبين شيء غال لم يكن .

ولم تكن فاطمة قد عرفت شيئاً عن قصة نهال . وكان صلاح لا يزال مرتبطاً بها . وإن كان قد أصبح يحتج بأعماله ومواعيده حتى يقلل من زيارتها له واتصاله بها . . إلى أن قرأت ما نشر في الصحف . .

وجاءت إلى البيت وأنفاسها مبهورة . وبلا موعد . ولم يكن صلاح في البيت فانتظرتة وتأخر إلى ما بعد الساعة السادسة صقيت في انتظاره . إلى أن جاء في الساعة التاسعة يبدل ثيابه استعداداً لحفل كان يقيم في تلك الليلة ، ووحى بها . إنه لم يتعود أيداً أن يرى فاطمة بعد الساعة السادسة وقالت له في هدوء :

إيه الحكاية الجديدة دي يا صلاح .

قال وجعوه ترتعش فوق عييه .

- حكاية إيه ؟

قالت وهي لا تزال تبتسم :

- حكاية اللي اسمها نهال .

وقال وهو يلوى شفتيه سائحاً :

- زى بقية الحكايات . .

قالت :

- بس أنت بتقول لي على كل الحكايات ، ودي ما قتلش عليها .

قال :

- ما افكرتش . . وما جتش مناسبة . .

قالت :

- واشمعي الحكاية دي اللي انتشرت في الصحف . .

قال :

- أنا عارف . . يمكن علشان من عيلة معروفة .

قالت :

- يسي . أنت كنت تقدر تقول لهم ما ينشروهاش .

قال وقد بدأ يفقد أعصابه :

- أنت فاكراي عايش في الجرايد علشان أعرف إيه اللي بتنتشر وإيه اللي ما ينتشرش . . ما احنا حكايتنا انتشرت ، قبل ما أطلب أنها ما تنتشرش .

قالت :

- وحكايتي زى حكايتي

وصرخ صلاح :

فاطمة ما تجيبش . إذا كنت بتقول نتجيبى بيتي حبيبى زى ما أنا

ما فيش فائدة انا تعيريني . وما فيش فائدة اناك تحاسبيني .

قالت وهي تكاد تبكي :

الحب بيعي أطمش على حبك . . وأنا مش مطمئنة

قال كأنه قرمان :

- أطلنك زاي ؟

ونظر إليها طويلاً إلى أن هدأت ثورته ، ثم ارتفعت إلى شفثية ابتسامة هادئة كأنه استرد كل حبه لفاطمة ، وقال وهو يقترب إليها يأخذها بين ذراعيه :

- عايزه تطمى ، بوسينى ..

وتركتهما ليكملتا بقية قبيلتهما ..

وفي اليوم لثالى كنت أنا الذى اتصلت بفاطمة بالنيغون لأعشش عبيد بعد أن تأخرت في العودة إلى بيتها إلى ما بعد التاسعة . ولم ترد على تليفون رد صوت عييف كلماته كقطع الحجارة تنق في وجهي . لديها زوجة أيها . واتصلت مرة ثانية ، ولم ترد فاطمة بفساً وفي آخر النهار . هي التي اتصلت لتقول لي ٣٠ تشجرت مع زوجة أيها يسب تأخرها وتركزت البيت ، وهي تقيم الآن عند إحدى صديقاتها ، وعندما أصبت بالزحاجي عليها ، قالت ضاحكة :

ما يمش . مش دى أوب مرة . كلها كام يوم وأرجع البيت ثانى .

وصلاح مستمر في علاقته مع هان . وصبح يبدو معها في المجتمعات ، بل ربما كان يعتمد الظهور معها . إلى أن بدأت صورتها تظهر بجانب صورته في الصحف ..

وفاطمة تحتل .. بل تحتل أيضاً تريب صلاح منها ، وتواعدت الأيام التي أصبحت تنقده فيها . إلى أن أصابته الأزمة يوماً ، وما كاد تزييف الدم يتوقف حتى صرخ :

- فين فاطمة . دور على فاطمة ..

وفي هذا اليوم ، وهو لا يزال راقداً في فراشه عقب الأزمة ، اتصلت هان

بالتليفون وأشار إلى من بعيد لأقول لها إنه خرج . بيتا كانت فاطمة قد جاءت لتجلس بجانب فراشه . فراشه المريض .

ومرت الأزمة .

وعاد صلاح يقضى . ويثير ضجة حول حكايته مع نهال .. ويتحقق حبه لفاطمة ..

ولم أكن أعرف أن نهال مخطونة إلا بعد أن قرأت خبر فسخ خطبتها في

الصحف

وأعقب نشر حار فسخ الخطوة إشاعات ملأت البلد كلها حول قرب رواج صلاح ، وكنت أنا أول من سأل صلاح .

هل ستزوجها ؟

وأجاب ضاحكاً :

- مش ممكن . ما فيش واحدة ترضى بيثا احنا الاثنين انا واثت . كل حاجة

عملناها من يوم ما تولدنا عملناها احنا الاثنين . فاكز . اللعب اللى لعبناه في البلد . والكتاب والمدرسة . والناب . والكمنجة . والمزيكة . والفن . والجوع . والشبع . والضحك . والبكاء . كله احنا الاثنين إلا الجوار . هو ده اللى ما تقدرش عليه احنا الاثنين ..

وضحكت دون أن أفهم شيئاً من نيات صلاح ونهال

وحاءت فاطمة .

جاءت نائرة على غير عاداتها . لا تحاول أن تعتمد على ذكائها . ولا تحاول أن تعتمد الهدوء ولا النفاق . وحدت في الساعة الثامنة صباحاً حتى تتأكد من أن صلاح لم يهرب منها بعد أن يقوم من النوم . وما إن فتح عينيه حتى أنفت

عليه صراخها وربما قيل أن تقول له صباح الخير .

أنت حاتجوز الى اسمها نهال .

وانتهض من فوق وسادته كأنه يتلقى كارتة وقال :

لا . .

وقالت له في سرعة . .

— خلاص . . ما دام مش حاتجوزها . . الجوزي .

وصرخ :

— إيه الكلام الي بتقوله ده . . من إمتي بتكلمني عن الجواز . .

وارتفع صراخها على صراخه :

— من يوم ما شفتك وأنا باتكلم عن الجواز . . وأنت صامني كويس

وما بتدش . . وكنت ناوية أعيش وأنا باحلم بالجواز . . حلم . . أحلم ويس . .

واستحملت كل حاجة علشان أفضل عايشه في حلمي . . استحملت يوم

ما خبتي من الناس . . وفضلت تحبني لغاية دلوقت مش عايز حد يعرف بيبي

وبيتك إيه . . واستحملت نك منعتي عن أي أتعلم المر ، كنت عارفة إنك

بتفكر في نفسك أكثر ما بتفكر في . . استحملت الي تقول عليهم معصات

ودلوقت حضرتك رايح حاي مع واحدة تاية وساب الناس والجريد تنكلم وأنت

ساكت ومبسط وآخر حاجة إهم بقولوا أنك حاتجوز . . حتى لو كانت إشاعة

ليه الإشاعة ما تكونش على أنا . . تعرف ليه . . لأنك مستعز مني . . مش ماله

عنيك . . بتحبني في السر وبس . . وعين عارف بتحبني ولا ما بتحنش . . .

وصرخ صلاح :

— أنت المجنشي . . أنت مش فاطمة . . مش فاطمة الي بحبها . . فاطمة

قدرت تفهم إلى فنان . . وقدرت تعرف إلى ما المجوزتش إلا غنوة جديدة وإلا لحما

جديداً . . .

وقاطعته صارخة :

— كفاية حكاية الفن بأه . . الفنان مش هو الإنسان الي يودي غيره في

داهية .

وصرخ صلاح :

— أنا ما وديش غيري في داهية . . أنا بودي نفسي . . وأنا ما طلبتش منك

حاجة . . ما كذبتش عليك . . وما وعدتش وما عملتش بوعدي . . أنت الي

راضية بي . . مش أنا الي غاصب عليك . .

وقالت :

— وأنا دلوقتي مش راضية . . حاتعمل إيه ؟

قال :

— أنت عايزه إيه ؟

قالت :

— عايزه أنك تتجوزني . . وإذا ما المجوزتش عخلي الناس تنكلم عني . .

أنا

وقاطعها :

— ما اقدرش . . مش ممكن . . وإذا ما كانش عاجبك سيبيني . . اعدني

عني .

وصرخت :

— للدرجة دي . . للدرجة دي يا صلاح .

ثم رعت أباحورة الإضاءة من جانب فراشه وألقها على الأرض . ثم أعدت تحطم كل ما اتصل إليه يداها في الغرفة وهي تصرخ :

- أنا أحسن منك ونها ميت مرة . . أنا ألى عملك لك ما فيش واحدة تعمله لواحد أنا مجنونة . . أنا مجنونة . .

وأسكت . . حتى لا تحطم باقي الغرفة . وأنا أحاول أن أهدئها ، ولكنها تفصلت من بين يدي ، واطلقت بجري خارج البيت . .

وقفز صلاح من فوق فراشه يحاول أن يلحق . . ولكنها كانت قد خرجت وصعدت الساب وراءها بعنف كأنها تصنع البيت كله وعاد صلاح إلى فراشه صامتاً وعلى وجهه آثار معاناة عاطفية عميقة . به يحبها إلى إلى اليوم مفتتح بأن الحب الوحيد في حياة صلاح هو فاطمة . كل السنوات الثلاث مررت به كن أشبه بالبحار احتجاجية يوجه بها المجتمع حتى نهال . ولكن فاطمة كانت حياته الخاصة . . حبه الذي يضعه بعيداً عن عمله وعن مطهر الفنان وعن المظاهر والإشاعات الاجتماعية . وقد نفي في فراشه صامتاً ثم مد يده إلى التليفون وطلب فاطمة . ليست هي التي ترد . وبعد قليل حاولت أما أن اتصل . . في التليفون ولم ترد . ثم عاد صلاح وحاول الاتصال . . بالتليفون ولم ترد وقال لي وكلماته ترتعش بين شفتيه :

- أنا لازم أطمئن عليها . . لتكوني عملت في نفسها حاجة . . قوم نروح ها في البيت . .



كان من المستحيل أن نذهب أنا وصلاح لزيارة فاطمة في بيتها إن أهدأ سيطر دوتا قطعاً بمجرد أن يروا صلاح وقد يعتدون عليها بالصرخ فهم يعتقدون أن صلاح هو الذي جنى على مستقبل فاطمة ذلك فصلاح يصبر ، ثم يصبر أخيراً أن أذهب أنا وحدي إلى هناك

وقلت له :

ولكني لا أعرف أحداً من أهلها

قال :

- ولو . . إعمل فسلك زميلها في الجامعة . . ولا أرى حاجة

وفررت أن أذهب إلى بيتها بعد الساعة السادسة حتى أناكد من أنها عدت إليه كعادتها إذا كانت قد قصت اليوم في الخارج

وضغطت على جرس الباب . . وفتح لي رجل مكعبر الوجه ، لأشك أنه والدها . . وقلت له إنني زميل فاطمة في الجامعة وإنني حنت إليها بكرسه محاصرات كما طلبت مني . . وصرخ الأب في وجهي :

- اعدوا عن فاطمة بأه . . كفاية ألى عملتوها هيا . غور من وشي

وصعد الباب في وجهي . .

وعدت إلى صلاح . . وكان يتحدث في التليفون . . يتحدث إلى نهال . . ولأول مرة أراه وهو يبدل جهداً كبيراً حتى يحتمل هذونه وهو يتحدث إلى نهال وأهسى المكالمات بسرعة ، وهو يسألني بلهفة :

- لقيتها ؟

ورويت له كل ما حدث .. وصلاح يزداد عصبية ، وهو يردد .. دى مجنونة .. أنا عارف أنها مجنونة .. وبدأ يستعد للسهرة التي أقيمت يومها وهو فى عصبية بل إنه قبل رفع الستار بدقائق غير برنامج الحفل ، ووضع أغنية لم تكن فى البرنامج مكان أغنية أخرى مما أحرع رفع الستار حوالى نصف ساعة حتى يعيد الموسيقيون جميع أوراق اللحن الآخر ويستعد كل منهم . وعى صلاح .. وأحسست يومها لأول مرة أنه يعنى لفاطمة وحدها . يناديها من بعيد .. ويرجوها ألا تتركه وحده .

وانتهى الحفل فى حوالى الثالثة صباحا .. ودعيا لتناول العشاء فى الكافيتريا وصلاح لا يتحدث عن الحفل : ولا يحاسب نفسه أو يحاسب الموسيقيين كمعادته . ثم بعد ذلك وحثت وأنا سجانة فى السيارة بأنه يسألنى عن مكان بيت فاطمة ، ثم يقود السيارة إلى هناك ويوقفها بحيث يستطيع أن يراقب باب البيت وقال فى إصرار كأنه لا يقبل المناقشة :

- أنا متأكد أنها بإيتة فى بيّها .. والصبح حاتنزل تروح الجامعة أو أى حته ستناها لغاية ماتنزل .

وكانت الساعة الخامسة .

ولم أناقش صلاح ، إلى أعرف جنونه ..

ونمت فى السيارة وهو لا ينام .

وأصبحت الساعة الثامنة .. والتاسعة .. والعاشر .. والناس تمر وتنظر إلى صلاح فى دهشة .. وبعضهم يقف ويحييه .. وهو يدعى لكل من يسأله أنه فى انتظار أحد أصدقائه ولم تخرج فاطمة من باب البيت .

وعاد صلاح إلى بيتنا وهو منهار ، أخاف عليه أن تدمره الأزمة .. ولكن الأزمة لم تدمره ، ويبدو أن الحب كالس أقوى من المرض .. وقضى يومه وهو يحاول أن ينام ، ثم يقوم يطوف أنحاء البيت فى خطوات عصبية كأنه يبحث فيه عن فاطمة ، ثم يعود ويحاول أن ينام .

وفى اليوم التالى دق جرس التليفون ، وكانت فتاة تريد أن تحدث صلاح وهممت أن أعتذر لأن صلاح لم يكن فى حالة يستطيع فيها الكلام ولكنها أسرعت وقالت إنها صديقة فاطمة . فأعطيت التليفون لصلاح وقالت له الفتاة إنها رائة أمس فى سيارته فى انتظار فاطمة ، وكل سكان الحي رأوه ، وكلهم يعرفون حكايته مع فاطمة .. وهى تريد أن تبليه أن فاطمة نقلت هذا الصباح إلى المستشفى . مستشفى المقطم .. وأنها تلتفه دون أن تستأذن فاطمة فى إبلاعه وعندما سألتها صلاح وهو يرتعش عن صحة فاطمة ، أجابت :

- دى تعبانة .. تعبانة قوى يا أستاذ .. كلنا بندعى لها ..

وأصبح صلاح كأنه مجنون ..

ويبحث عن مستشفى المقطم ..

إنه مستشفى للأمراض العصبية .

وسألت عنها فى التلفون .. وقال لى عامل التليفون إنها ليست فى خطر ، وطلبت أن أتحدث إلى الطبيب المحاضر وقال لى أيضاً إنها ليست فى خطر ، ولكنها فى حاجة إلى علاج بعيد أعصابها إلى طبيعتها . وصوى أكثر من أسبوع استطاع صلاح خلاله أن يتعرف بطبيب المستشفى ، وأن يتفق معه كل يوم تقريراً عن صحة فاطمة ، إلى أن اتفق معه على أنه يسهل له ريارتها فى وقت لا يكون أهلها معها .. لم يقل للطبيب عن قصة حبه لها ، ولكنه قال إنها معجبة قديمة

تعودت أن تعبر عن إعجابها دائماً وهو لا يعرف أحداً من أهلها . ولدت يريد أن يراها وحدها .

وذمبت معه إلى المستشفى

وكان لقاء عجباً .

إن فاطمة قد استعادت كل أعصابها تماماً . . ولكنها تغيرت . . إنها لا تحدث صلاح بنفس اللهفة ، ولا بنفس اللهجة . . وهي تبدو دائماً كأنها تفكر في شيء بعيد . . ورغم الكلام الكثير الذي قاله صلاح يؤكد لها حبه . . وارتباطه بها العمر كله ، حتى بلا زواج وحتى لو تزوجت غيره فإن حبه هو الذي يعينه على فنه وعن مرصه . . ورغم كل هذا الكلام فإن فاطمة كانت تتلهف بانسامة شاكرة دون أن يبدو عليها أنها أصبحت تتأثر بهذا الكلام . .

وتخرجنا من المستشفى وصلاح حائر مثلي في الشخصية الجديدة التي رأى بها فاطمة . .

خرجنا وقد اطمأننا أن فاطمة ستترك المستشفى بعد أيام .

كل ذلك وقصة صلاح ونهال مستمرة . وإشاعة زواجهما تنتشر . . وبدأت الصحف تشير إليه دون أن يحاول صلاح أن يتدخل ليبس الإشاعة أو يسكت الصحف . . لقد كان في حاجة إلى نهال . . إنها أعطته مجتمعاً كان طول عمره يريد أن يصل إليه مجتمع القمم ومظهر وتقاليده ومحاورة حياة القمم .

وكانت نهال تلدو أحياناً كأنها تنفخ دروساً في تقاليد حياة هذا المجتمع ، بل إنها بدأت تعلمه للعب لفرنسية والإنجليزية ، وقد تعدد أن يجيد اللعنين حتى أنه لم يكتف بنهال فاتفق مع أساتذة يعطونه دروساً خصوصية في البيت .

والإشاعة أصبحت أكبر من أن تعيش العمر كله كإشاعة . . ونهال تعاني

سقطاً من عائلتها ومن خطيئها السابق تعود إليه . وأصبح صلاح مصعباً أن راحه نفس المشكلة ، مشكلة الزواج . وهو يعرف عائده ويعرف أنها عائلة لا تحب كثيراً بزواجه عن ابنتها ولكنه يستطيع رغم ذلك أن يتزوجها حتى و اضطر أن يهرب بها . . ولكن هل يتزوج صلاح ؟ لا . . إنه لا يريد .

لا يستطيع . إنه ليس منكأ لنفسه إنه ملك فنه . . ملك الناس كلهم . . ولا أدري هل استطاع أن يقنع بها كلامه أو أنها صطرت للاستسلام ما يريد حتى تحفظ بكرامتها وتقاليدها وتعاليمها .

وقبلت أن تعود إلى خطيئها الأولى تحت ضغط عائلتها ، وقالت لصلاح :

- إننا لا نستطيع أن نتزوج ونحن نعيش الحبه . . وأنا مصطرة أن أعيش

لزوج بلا حب

وقال صلاح بدكانه الذي لا يعجز بُد عن المنطق الذي يبرر به تصرفاته

إن الزواج هو الواقع ، والحب أقوى من الواقع . وأنت وأنا مصطرون

أن نستسلم للواقع ، ونحمله لأننا لا نفقد الحب أبداً

وقد عارضته أنا كثيراً . . كنت أريده أن يتزوج نهال مادام لن يتزوج

فاطمة . . قلت له إن عبد الوهاب عاش عمره الفنى ولا يزال يعيشه وهو متزوج .

دون أن يفقد الجمهور ولا ثقة المعجبات ، وكان يقول لي

- عبد الوهاب من جيل لم يكن فيه الزواج يستولى على الرجل كله . .

وعبد الوهاب لا يعاني ما أعانيه من رمت . وعدد الوهاب أستاذى . . كن شيء

حتى في فن الحياة ولا أستطيع أن أرتفع إلى مستوى أستاذى

وتزوجت نهال

وصلاح هو الذي أحيا حفل الزواج . . وكنت أحس به وهو يضي كآه هو الذي يملك نبال وهو الذي تنزل عنها في سبيل إسماعها . كان يتصرف كأنه صاحب البيت وكأنه صاحب الفصل . وربما كان هذا هو الإحساس الذي كانت تحسه هـ نفسها . فحتى بعد لزواج ظلت على علاقتها بصلاح تدعوها إلى بيتها وتسال عنه ، وتطمئن عليه وتجه

وخرجت فاطمة من المستشفى . . ولم تعلم بمخروجها إلا عن طريق الطبيب ولم تتصل بصلاح بعد خروجها ، وفوجئنا بأحد أصدقائنا من أفراد الفرقة الموسيقية يبلغنا بأنها ذهبت إلى نادى الفرقة وكانت تعرف كل أفرادها عن طريق صلاح ، وأنها بقيت هناك وقتاً طويلاً . . وأنها عنت . لم تمر كمحترقة ولكنها غت وسط أفراد الفرقة وهي تصفح معهم . وقال صديقنا . والله صوتها مش يطال وجمد صلاح لهذا التطور الذي حدث في حياة فاطمة ، إنها لم تعد حريصة على أن ترضيه بالعزافا عن الجو الفنى وخصوصاً عن أصدقائه بل إنها كل يوم أصبحت مع صديق من هؤلاء الأصدقاء . واستطعت أخيراً أن أحدها ولتها لأنها لم تحاول لقاء صلاح . . وقالت في بساطة :
- هو عزيز يشوفنى . . خلاص أشوفه . .

وحادت إلى البيت . . ولكنها جاءت إنسانة أخرى . . جلست تنكد كآها إحدى المعجبات وترب من أى حديث يبداه صلاح عن الحب والغش حتى عندما هم بتقبلها أعطته قلبها في برود كأنها تحاول أن ترضيه أو كأنه ربوب من زبائن القبل . وعندما ثار صلاح وبدأ يصرح في وجهها وبسعمل لأول مرة ألفاظاً جارحة تخدشها ردت عليه بهذوه

اسمع يا صلاح . أنا لسه بحبك وبمكر أنفصل أحبك عمرى كله أنا قررت أنى أحبك زى ما انت تحبى تمام . . أنت بتحط منك ويستفلك وير . . وبعدين الحب وأنا كنت بحط الحب الأول حتى لو ضمحت يبنى . . مستقبل . . إنما خلاص حتى زيك ، قى ومستقبل الأول . أنا فنانة يا صلاح وأنت عارف إنى كلنى فن . . وأحب أقولك إنى سبت الجامعة وبقيت في معهد عاليه . . اخترت البايه علشان أنا عارفة أنت مش عمارنى أعنى . مش عاير فى أن وأنت في هن واحد . وأنا مش عايزاك تصحى بحاجة إنما عايراك تعمى من التضحية . . خلاص . أنا نمت من التضحية واستمر النقاش والجدل بينهما كأنه لن ينتهى أبداً .

وأصبحت العلاقة بين صلاح وفاطمة علاقة عربية . لم يشهدا أى قصة حب . . إن كلاهما يبدو كأنه يحاف الآخر ، ويعارب الآخر ، ويجادل لآخر ثم فجأة يلتقيان في ساعدت حب عتفة ، يلتصق فيها كل منهما بالآخر لأنه لا يتركه أبداً ، ثم يعودان إلى الخوف والحرب والجدالة . وقد جد على صلاح أنه أصبح يغاز على فاطمة . إنها أصبحت تعيش في الوسط الفنى كله . وبدأت الإشاعات تلاحقها عن علاقات بينها وبين هذا أو ذاك ، وبين صلاح إلى حد أن يتحد مواقف قاسية من هذا أو ذاك . قام إشاعة قوية عن علاقة بين فاطمة وعازف العيتار ، فما كان من صلاح إلا أن عر عازف العيتار من مفرقة واستبدل به آخر . . ما فاطمة فكانت قد تعودت على العيرة منذ عرفت صلاح . . لم يعد يؤثر فيها استمرار صداقته بهال ولا زيادة عدد المعجبات . . ولكن حب فاطمة كان يعود كما كان تماماً إذ أصيب صلاح بالآزمة حتى تقذف بطلقات الدم من فمه . كانت لا تسمع بالآزمة حتى ترك كل ما هو

فيه ويجرى إليه لتجلس بجانبه على حافة فراشه . . وتبقى معه إلى أن تطمئن عليه . .
تبقى معه مهما كلفها بقاؤها من تضحية بالنفس والمستقبل اللذين تسعى إليهما . .
وربما كانت فاطمة هي أول من اكتشف أن أهدى علاج لصلاح في أمره
هو فني . . كانت بعد أن يتوقف الزيف ويستريح في فراشه تطلب منه أن يغني . .
وكانت أحياناً تثيره حتى يغني قائلة :

- صلاح . . صمعي الفتوة الجديدة . . فيها حته مش عجباي
أو أحياناً كانت تبدأ هي في الغناء ، حتى تأخذها إلى الإحساس بالتمحدي
فيغني معها أو يسكتها ليغني وحده . . ولا يكاد صلاح يبدأ في الغناء حتى يبدو
كأنه يسترد حياته . .

ومرت شهور ، وأقام معهد الباليه حفلته السنوية ، وإذا بفاطمة تبدو في
العرض متميزة عن كل الطالبات بل إنها استطاعت خلال هذه الشهور أن
تكتسب ثقة وحج أساتذة المعهد بنفس أسلوب صلاح في اكتساب من يحتاج
إليه ، فوضع أساتذة المعهد عرضاً في البرنامج تبدو فيه فاطمة وحدها وهي ترقص
وتغني أيضاً . .

وأثارت فاطمة إعجاب من شاهدها وبدأت الصحف تتحدث عنها . .
بدأت فاطمة تعيش بين الأضواء . . وقبل أن تتم دراستها في المعهد التحقت بفرقة
الرقص الشعبي وأصبحت تقدم شيئاً جديداً . . رقصات باليه كلاسيك ، مع أغان
شعبية . . تغني وهي ترقص . .
وأصبحت فاطمة نجمة . .

كل ما كان يضعفها في نظري أنها استمرت تقلد صلاح في كل شيء . .
في حركاته وفي أسلوبه . . وفي تصرفاته وتفكيره . . ربما لم تكن تتصدد تقليده

ولكنها كانت متأثرة به إلى حد أن سيطرت شخصيته عليها ، وأصبحت تؤمن
بأن طريق النجاح إلا طريق هذه الشخصية . . حتى لو كانت تقدم فناً يختلف
عن فن صلاح . .

وكننت كثيراً ما ألح على صلاح أن يضم فاطمة إليه في عمل واحد . . حفلة
غنائية . . فيلم سينمائي . . مسرحية . . ولكنه كان يرفض . . وكان يقول في
سخريه مرة :

- عايزني أنزل لمستواها . . ولا ترفعها لمستواي . . والناس بعد ما يشوفونا
حابتكلمو عنها ولا غنى . .

وكننت أقول له إن الناس لا تتكلم عن صلاح ولا عن فاطمة . . ولكن تتحدث
عن العمل الفني وإذا ضمها إليه في عمل واحد فإنه سيقدم عملاً فنياً ضخماً
يثير ضجة ويخلق مستوى فنياً جديداً ، وعبد الوهاب عمل مع أم كلثوم فقدما
قفزة فنية جديدة وارتفع عبد الوهاب وارتفعت أم كلثوم ولم يتأثر أحدهما بمستوى
الآخر . . وكان يرد على قائلاً :

- عبد الوهاب ما اشتغلش مع أم كلثوم إلا بعد ما يطل يغني للناس . .
اشتغل معاها من غير ما يواجه الناس وفي جنبه . . ما ظهرش معاها على مسرح
ولا في فيلم ولا في أغنية واحدة . . مش ممكن اتنين يغنوا مع بعض حتى لو كانوا
واجل وست . . وما يقوش بيتنوا بيتنوا يقولوا منولوجات . . وأنا مش عايز أبقي
منولوجت ياسي عمر . .

وفاطمة تنطلق في آفاق النجاح . . أصبحت شخصية فنية قائمة بذاتها . .
إنها ترقص رقصات الباليه وهي تغني وبدأ الناس يقارنون بينها وبين صلاح ،
كما كانوا يقارنون بين عبد الوهاب وأم كلثوم . . وانقسم الشعب إلى حزب صلاح .

وحزب فاطمة ، كما كان منقسماً إلى حزب عبد الوهاب وحزب أم كلثوم . .
وقد بدأت فاطمة تحرص على إخفاء أى علاقة لها بصلاح ، كما كان يحرص
هو من زمان على إخفاء علاقته بها . . وترفض أن تظهر معه فى مكان عام ،
وترفض أن تلتقط لها صورة معه ، وأحاديثها عنه التى تنشرها الصحف أحاديث
باردة . . وأحاديثه عنها أبرد . . ورغم ذلك فالعلاقة بينهما مستمرة بأسلوب جديد . .
إنى فى فترات متباعدة أفاجأهما فى البيت يستردان كل حلالة قصة الحب
الأولى ، وأحياناً أيضاً كنت أكتشف أن صلاح قضى الليل فى بيتها بعد أن انفصلت
عن عائلتها وأصبحت تقيم وحدها . . والناس لا تعرف شيئاً . .
ودائماً إذا ما أصيب صلاح بأزمته جاءت فاطمة بسرعة . . وعادت الفتاة
الصغيرة التى تضحى بكل شئ من أجل حبها وجلست بجانب فراشه . . حتى
لو عرف الناس وكنت أنظر إليهما وأنا اتساءل : كيف ستنتهى هذه القصة . . قصة
أعجب حب بين رجل وامرأة . . لا . . إنها ليسا رجلاً وامرأة . . إنها فتان وفتانة .



هذه هى قصة حياة صلاح . . أو قصة ما عشته مع صلاح . . وقد عشت
معه العمر كله إلى أن حدثت إصابته بالأزمة قبل أن يغادر المسرح . . ثم حدثت
مرة أخرى وبعد أسبوع واحد عندما أقام حفل بناء بيت الطلبة . . ويومها قرر
الأطباء أنه يجب أن يسافر إلى لندن ليتم علاجه هناك . . وحدد له بسرعة موعد
مع الطبيب الإنجليزي . . وسافرت معه إلى هناك . . إلى لندن . .
ووضع الأطباء الإنجليزي مرض صلاح فى صورة أخطر مما وضعها أطباء مصر . .
وبعد أيام طويلة قضاهها صلاح وكل أدوات الكشف الطبى الحديثة مسلطة عليه
تقرر إجراء عملية جراحية عاجلة له . .
ولم أفهم تفاصيل العملية ، وربما لم أهتم بفهمها ، يكفى أنها عملية جراحية ،
وأول عملية يتعرض لها صلاح . . وقضى صلاح بعد إجراء العملية خمسة عشر
يوماً وهو غائب عن الوعي ، وكلما أفاق ، حققوه ليعود إلى غيبوبته . .
ودخلت إليه مرة وهو راقد على فراشه فى المستشفى وإذا فى أجدنه يقضى . .
صوت ضعيف متناثر ، ولكنه يقضى به . .

وقلت له :

- ما يجهدش نفسك يا صلاح . . مش وقت الفنا . .

وقال وكأنه ييكنى :

- أنا حاسس أنى حاموت ، وعابز أموت وأنا باغنى . .

وكسحت دموعى حتى لا أبكى معه ، ولا أغنى معه . . أغنية الموت . .

والحمد لله . . بعد أيام بدأ صلاح يسترد حالته التي تعود عليها . . حالته بعد أن انتهى الأزمة . . يقنى ويعمل وهو في فراشه . . وفي مرة ذهبت إليه وفاجأني قائلا :
طلع الناي .

وكان يعلم أني أحفظ دائما في جيبي بصفارة صغيرة أتسلى بالعزف عليها عندما أجد نفسي وحيدا . . وأخرجت الناي من جيبي . . وبدأت أعزف عليه ، وصلاح يقنى . . وإذا بالمرضات يلغفن حولنا معجبات ضاحكات ، بل كثير من المرضى الذين تسمح لهم حالتهم بمغادرة الفراش وبينهم كثير من العرب ، جاءوا إلى غرفة صلاح ليستمعوا إليه .

وبدأ صلاح يقنى مرات كثيرة في المستشفى خصوصا بعد أن سمح له الأطباء بمغادرة الفراش كان يطوف على المرضى ويقنى لهم ، وهو مريض بينهم . . وكان يمكن أن ينامر صلاح كهادته ويقادر المستشفى قبل أن يسمح له الأطباء ، ولكنه كان لا يزال في خوف وحرج أمام الأطباء الإنجليز .

وفي يوم قال لي صلاح :
إيه رأيك . . تعال يقنى لم بالإنجليزي . . علشان يفهمونا . .

وبدأ صلاح يقنى أغنية إنجليزية كانت شائعة . . ولكنه كهادته . . كان طموحا عبقرا ، ما زلت أذكر أن يقنى أغنية بالإنجليزية له وحده . . أغنية جديدة هو الذي يقدمها . . وبدأ يسأل عن أسماء وعناوين الموسيقيين الإنجليز سعيًا لتتفق معهم على تلحين أغنية له .

ولكن قبل أن يبدأ في صناعة الأغنية الإنجليزية سمح له الأطباء بمغادرة المستشفى على أن يعود إليهم بعد ستة شهور . . لامتكمال العملية التي أجريت له . .

وفي الطريق إلى مصر قال لي صلاح :

— اسمع . . أنا وحدي . . وعازف أغنى بالإنجليزي . . طيب إيه مكان ما يكونش ملحن مصري يلحن للإنجليزي . .

ومند وصل صلاح إلى مصر وهو يعمل مع المحبين على إخراج أغنية بالإنجليزية . والواقع أن صلاح كان بعد هذه العملية أقوى وأبعد وأتم صحة مما كان قبل العملية . . واستطاع أن يقدم ثلاث أغنيات جديدة في أقل من شهرين ، وأن يقيم عدداً من الحفلات لا يقل عن حفلة كل أسبوع ، كأنه كان يريد أن يطمئن الناس على صحته .

وقاطبة فرحة به . . وتنفق فرحتها وحبا . . وتلقاه سراً ، هذه اللقاءات المتعاقبة التي قد تتباعد أكثر من شهر وشهرين . . إلى أن عدنا إلى لندن . .

ومرت الأيام الأولى بعد العملية . . والأطباء يجتازون به حافة الموت إلى أن استطاع أن يعود إلى حالة مقاومة الموت بالفن . . وبدأ يقنى . . ثم أرسل يستدعي ثلاثة من الموسيقيين . . عازف الجيتار ، وعازف الكمان ، وعازف الطبلية ، وقدم أغنيته الإنجليزية في المستشفى . .

ولا تتصور فرحة المرضات والمرضى بالأغنية . . لقد تجحت داخل المستشفى إلى حد أن كتبت الصحف الإنجليزية عن صلاح وأغنيته . . بل تقدم أحد المتعهدين الإنجليزي بعرض إقامة حفل عام يقنى فيه صلاح بالعربي للمقيمين العرب في لندن ، ويقنى بالإنجليزية للشعب الإنجليزي . .

وكان صلاح قد تعود على الأطباء الإنجليز ، فأصبح يتقاد لتهره ، أو يتقاد

لقته دون أن يستأذنيهم . . فكان يخرج من المستشفى بلا إذن . . ويعود دون أن يقول متى يعود ، وفي مرة شكوه للطبيب ، وقال لي في اطمئنان :

- هنالك شيء في الإنسان لم يصل إليه العلم بعد . . شيء أقوى من العلم . . إن صلاح يعرف مرضه جيداً ، وهو قطعاً لا يريد أن يتحرر . . فإذا كانت في داخله دوافع أقوى من المرض فيجب أن تتركه لما . . من يدري ربما كانت هذه الدوافع هي سر استمراره في الحياة . . ربما كان تحسكه بفنه أقوى من كل ما تسلهه الحياة . . فلتستسلم للأقوى . . وأصبحت هذه هي حياتنا . .

نقضي نصف السنة في مصر . . ونصفها الآخر في لندن مع الأطباء الإنجليز . . وصلاح لا يريد أبداً أن يستسلم حتى يشق تماماً . . بمجرد أن يتحرك يعود إلى فنه . . وأقام حفلات عامة في لندن نجحت نجاحاً ضخماً ، وأصبحت أغانيه بالإنجليزية تداغ في الإذاعة الإنجليزية كما تداغ أغانيه في القسم العربي . . وكان يتفق على إقامة هذه الحفلات وهو راقد في فراشه وفي المستشفى . . إنه دائماً مطمئن إلى أن فنه أقوى من مرضه . . وكان يخرج من المستشفى ليقيم الحفل رغم تحذير الأطباء . . بل كان أحياناً يخرج من المستشفى ويأخذني من يدي وأجد نفسي في طائرة تطير بنا إلى المغرب أو إلى لبنان أو إلى الكويت لنقيم حفلاً هناك . . ثم يعود إلى المستشفى . .

وفي مرة ظهرت في صحبة صلاح عناصر جديدة خطيرة ، وتقرر أن يذهب للعلاج في فرنسا بدلاً من لندن . . وانتشرت الإشاعة إلى أنه أصبح في حالة ميثوس منها . . كل الناس في انتظار الخبر المفزع . . وأنا منهم . . وكنا في مستشفى باريس عندما فوجئت بفاطمة تدخل علينا . .

كانت قد تعودت أن لا يجلس بجانب فراش صلاح وهو يعالج في الخارج ولكن هذه المرة لم تستطع أن تقاوم الإشاعات ، وجاءت لتجلس بجانبه . . أصبح الحب بجانبه . .

وساعده الحب حتى خرج من مرحلة الموت ، وبدأ يستعين بقوة الفن للتغلب على الموت . . وانتصر الفن . . وعاد يقني . . وأقام حفلاً غنائياً في مسرح باريس لأول مرة تشترك فاطمة معه . . لقد ظهرت أمام الجمهور في باريس ورقصت وغنت . . ثم ظهر صلاح وغنى وحده . . غنى بالعربية . . وبالفرنسية أيضاً . . ثم ظهر الاثنان معاً وألقيا أغنية مشتركة . .

كان هذا هو أكبر تطور في قصة صلاح وفاطمة . . انتصر الحب حتى جمعهما في عمل واحد وإن كان لم يجمعهما في زواج . . ولا أعتقد أنه سيجمعهما في زواج أبداً . . وحتى في باريس رأيت تهال مجلس بين جمهور المثفرجين . . وهكذا نعيش . .

نعيش في فرحة نجاح فني . . وفي خوف دائم من الموت . . والنجاح والموت يتصارعان داخل جسد يعيش على الأثم . . كيف تنتهي . .

لا أدري . . لا أحد يدري . . الله وحده . . رب الفن ورب العلم . .

تمت